على طريق سبتمبر

في الاول من شهر ذى القعدة من عام ١٣٢٩ هـ / ١٩١١ م ، وقع الامام يحيى بن حميد الدين اتفاقية هدنة مع العثمانيين عرفت بصلح "دعان" ، نسبة الى قرية تقع في قمة جبل في الشمال الغربي من مدينة "عمران" الجميلة .

ومع ان عددا من الدارسين الكبار ، في داخل اليمن وخارجها ، قد اكتشفوا ان تلك الاتفاقية لم تكن غير " مواد تنظيمية لتحديد العلاقة بين الامام والعثمانيين ، ولتحديد اختصاصات الولاة والموظفين العثمانيين ، ولتوضيح مدى سيطرة العاصمة العثمانية على ولاية اليمن "(١) الا ان بامكاننا اعتبارها علامة ضرورية على الطريق الذى اوصل الامام يحيى الى عرش المملكة المتوكلية . فلقد وجد فيها " مظلة " ينتشر بنفوذه تحت سقف شرعيتها ، ويستمد من قوة انفراده بها السلاح الفعّال الذى يبعد عن طريقه كل الخصوم ـ الذين كانوا حتى تلك السنة مصادر قوة اليمن ومن يمثلها .

وفي اليوم الثالث عشر من صفر سنة ١٣٣٧ للهجرة الموافق ١٧ نوفمبر ١٩١٨ بالحساب الميلادى ، دخل الامام يحيى صنعاء واستقر بها حكمه .

وما بين العامين ١٩١٨ و ١٩٤٨ انفرد يحيى بحكم اليمن ، حكما مطلقا .

وبدلا من ان تصبح اليمن العمق الاستراتيجي في نضالات البلدان العربية والشعوب الاسلامية والافريقية ، نصب حولها " المتوكل على الله " اسوارا مذهلة منعت اليمنيين من تصور اى حكم غير الامامة ومن التفاعل مع اى حياة غير تلك التي سمحت بها عقلية " بطل الاستقلال " الريبيّة .

---

(١) (تكوين اليمن الحديث) ص٥١٦ د. سيد مصطفى سالم

ولم يكن يحيى سوداويا مع " الاجنبي " على حد زعم بعضهم ، وانما كان هذا " طبعه " مع اولاده وموظفيه ومواطنية . كان يتدخل في كل شؤون اليمن ، صغيرها وكبيرها ، ولم يعد هناك من يعترض على ان الرجل كان يتصرف كمالك حقيقى يخاف الايام والانسان والتفاعلات التاريخية التي يمكن ان تنشأ بينهما ، حتى ولو كان الانسان المقصود احد ابنائه او من يدخل فى صلب سلالات اسرته .

ولكنه – وللتاريخ – كان اكثر حكام اليمن حرصا على الاموال العامة . ومن طرائف الايام وغرائبها معا ان يكون "حرصه " باعثا على انتقال الحكايات والمرويات التي يراد منها غالبا الاستغراب والتفكه بالنوادر .

وبموته ، مقتولا ، في السابع عشر من شهر فبراير عام ١٩٤٨ م لم تتمكن اليمن من الخروج الى العالم " او فتح باب عريض في سور العزلة " لدخول العالم اليها " .

ولكن ابنه احمد لم يستطع ان يسدّ تلك النوافذ الضئيلة التي انتشرت في " الطوق الامامي " . فحاول ان يمنع اضواء الحياة من الانتشار وذلك من خلال اساليبه " القديمة" في التعايش مع كل جديد .

واثبتت الاحداث ان اليمن لم تستنفذ طاقتها الثورية في صراعها مع العثمانيين ، ودارت الايام فاذا اليمني يحاول في تعز ، وحاشد ، والحديده ، و "صنعاء" منتشرا على خارطة اليمن في عدد من المناطق ، وخلال سنوات متقاربة .

كانت المسيرة الى فجر اليوم السادس والعشرين من سبتمبر صعبة ودامية ، ولكنها كانت ضرورية .

واليوم نحن نمر بالذكرى التاسعة عشرة لثورة سبتمبر بعيون مفتوحة على كل العالم وعقول متفتحة لاكتساب ما يخص اليمن من حقائق التغيرات في هذا القرن . وما اكثرها وما اجلها .

سبعون عاما على اتفاقية "دعان" قد مضت . وثلاثة وستون عاما الا قليلا قد مضت على استقلال صنعاء – اليمن .

وتسعة عشر عاما من العمل الشاق قد مرت على طريق استقرار يمن التاريخ والحضارة والانسانية .

وهذا العدد عبارة عن محاولة متواضعة نقدمه لاجيال اليمن ، على أمل أن يقبل كمشاركة ، بين مشاركات اكثر جدية واهمية ، الغرض منها تعبئة الاجيال بمواد التاريخ التي صنعت فجر السادس والعشرين ، وتكريس الايام الوطنية الفاصلة في ذاكرة شعب من اعرق الشعوب وأكثرها طاقة على مناجزة الطغاة ، اجانب مستعمرين وائمة محليين .

ان مؤرخي التاريخ ـ والحضارات على وجه الخصوص ـ مطالبون بأن يكتشفوا اسرار هذا النمو البطيء الذى طبع تاريخ اليمن في عصورها المختلفة ، والعصر الحديث بشكل خاص . هل هو نوع من " القلق " الحضارى الذى دفع المواطنين الى ابدال أدوات الزراعة بنماذج " الجنابي " ، واحلال الرغبة في الحصول على " القريب العاجل محل ما يتصف بالبعيد " الباقي " .

وعلى الرغم من كل عوامل التاريخ التي لعبت ادوارا اكيدة في نزع الثقة المتبادلة بين المواطن والدولة ، وبين الفرد والحلقات الاجتماعية التي ينتمي اليها ، ويقوى بدرجة اقترابه منها وحاجته اليها ، الا ان الانسان اليمني ، في مجموعه ، ما زال يتحلى بأبرز مميزة من مميزات تلك " الحكمة اليمنية" المقدسة ـ بكلام رسول الله في كوكب الارض .

وهذه المميزة الضرورية لكل حكمة هي :الصبر

ولقد تحمل المواطن اليمني صبر " ايوب " وشقاء " سيزيف " قبل ان يصل الى يومه

ووعده : ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ م .

هو الوعد الذى بعده الاستقرار ، والابداع ، والحكمة الخلاقة . فلاجله رفع شعار " الحياة للجمهورية او الموت دونها " . اثناء الحصار الشهير لصنعاء الخالدة والذى دام سبعين يوما كحصار نابليون لعكا .

ولا يبالغ المتأمل في التاريخ اذا قال : لو نجح نابليون في اختراق "عكا" لسقط الشرق كله . وكذلك لو تراجع اليمنيون عن حقهم في حياة جمهوريتهم لانهارت القلعة التي ظلت عبر التاريخ مخزن وجدان العرب وثرواتهم وعمق شجاعتهم ، بدءا من حملة ايلياس جالوس الرومانية حتى العصر الحديث .

لهذا تبقى صنعاء الام والحنان والابداع والامن والاستقرار .. والحكمة المقدسة .

قوتها قوة لليمن ، وقوة لتاريخ الانسان العربى ٠

لهذا نؤكد على ضرورة مساهمة المفكرين والباحثين في العدد الخاص بصنعاء الذى نعد له منذ فترة غير قصيرة ، ونفتتح هذا العدد بدراسة القاضي اسماعيل الاكوع " لمحه تاريخية عن صنعاء " ونتمنى على كل باحث محب لصنعاء ان يستكمل دراسته قبل الشهر الاخير من هذا العام ٠ فله ولكل من ساهم ويساهم فى اغناء هذه المجلة فائق التقدير والاحترام ٠

رئيس التحرير

لمحة تاريخية عن صنعاء

القاضي اسماعيل الأكوع
الهيئة العامة للآثار ودور الكتب - صنعاء

تعتبر صنعاء من أعرق وأقدم المدن العربية بيد أن تاريخ انشائها وبداية عمرانها لا يعرف على وجه تطمئن اليه النفس ، والمصادر العربية التي بين ايدينا ترجع تاريخ ظهورها الى ما بعد الطوفان ، وان سام بن نوح هو اول من اختطها ولهذا فقد سميت (مدينة سام) نسبة اليه . وما تزال تحمل هذا الاسم الى اليوم .

وذكر الحسن بن احمد الهمداني ، وهو من اعلام المائة الرابعة - انّ صنعاء اقدم مدن الارض وانّ سام بن نوح هو أول من أسس قصر غمدان (١) ووصفها في كتابه " صفة جزيرة العرب " بقوله " هي أم اليمن وقطبها لانها في الوسط بينها وبين عدن كمثل ما بينها وبين حدود اليمن من ارض نجد والحجاز وان اسمها في الجاهلية (أزال) (٢) ثم ذكر أن أزال اسم احد أولاد قحطان وما تزال تعرف صنعاء بأزال الى اليوم " وبخاصة عند الشعراء في شعرهم ، ولعلها من الازل بمعنى القدم . وهناك مصدر آخر وهو النقوش او الكتابة الحميرية المزبورة على الاحجار ، فقد ورد فى بعضها ذكر صنعاء ويعود تاريخه الى أوائل القرن الاول الميلادى في عهد الملك نشاكرب يهنعم بن الى شرح يحضب الاول الذى بنى قصر غمدان .

وتقع صنعاء في السفح الغربي من جبل نقم عند ملتقى ثلاث قبائل وهي (بني الحارث) من الشمال و (سنجان) من الجنوب ، و (بني مطر) من الغرب . وكانت مقسمة الى احياء تعرف بالدروب منها درب السرار . وكان في الجانب الشمالي من صنعاء ، وهو المعروف الان بسوق البقر وداود وطلحة ودرب القطيع ، وكان في الجانب الجنوبي من المدينة وهو باب اليمن وما حوله شرقا وغربا وشمالا .. وتعرف احياء صنعاء الان باسماء المساجد الواقعة فيها . وكانت السائلة التي تنحدر من نقم عند نزول الامطار تشق صنعاء من الشرق الى الغرب ثم حول مجراها الى شمال المدينة كما هي عليه اليوم بعد أن خربت جامع صنعاء في المائة الثالثة الواقعة على عدوتي السائلة .

تتميز صنعاء بجمال مبانيها الفريدة الطراز الذى

ظلت محافظة عليه منذ عهود موغلة في القدم ، وكان من مبانيها الشهيرة غمدان ، وهو قصر كان بديع الصنعة شامخ البنيان ، فقد ذكر الهمداني في الجزء الثامن من الاكليل انه كان مكونا من عشرين سقفا ، وكان فيها بين كل سقفين عشرة أذرع ، وكانت غرفة الرأس العليا مجلس الملك اثني عشر ذراعا عليها حجر من رخام ، وكان في زواياه الاربع اربعة أسود من نحاس أصفر خارجة بدورها فاذا هبّت الريح في أجوافها زارت كما يزار الاسد . وقد بناه الى شرح يحضب وكانت حمير تنزله وتزيد فيه حتى أخرب في أيام الخليفة عثمان بن عفان (٣) رضي الله عنه . وذكر الهمداني انه بقي من حد غمدان القديم قطعة ذات جروب متلاحك عجيب فهي قبالة الباب الاول والثاني من ابواب الجامع الشرقية وباقي غمدان تل عظيم كالجبل ، وكثير مما حوله من منازل الصنعانيين فمنه بنيت ، وفي تله تحصن ابن الفضل القرمطي يوم دخل صنعاء ووافى المسجد وملك صنعاء وانقض على سلطانها وأهلها (٤) ولمكانة هذا القصر في نفوس أهل اليمن فقد بنوا قصرا آخر في أعلى مكان من صنعاء من جهة الشرق وكان يعرف بقصر غمدان أيضا وأحيانا كان يسمى قصر صنعاء ، وما يزال الى اليوم ، ولكن التسمية قد تغيرت وصار يعرف من بعد قيام الثورة بقصر السلاح مميزا له عن القصر الجمهوري ويوجد فيه عدد من المباني المتعددة الاغراض ، ففيه مخازن للاسلحة ، ومخازن للحبوب والطعام وطاحون وفرن ، ويوجد فيه مسجدان عدا القبة المرادية التي بناها مراد باشا أحد رجال الدولة العثمانية سنة ٩٨٤ هـ ويوجد فيه أيضا سجنان ، كما يوجد فيه بعض القصور ومنها (الدار الحمراء) وكان يعتقل فيها بعض الشخصيات الكبيرة من أمراء ورؤساء وزعماء البلاد ولكنها هدمت ، وبنى الامام يحيى مكانها المفرج الموجود الى اليوم كما بنى دارا عالية كان يعتقل فيها اولاده وقد هدمت منذ بضع سنوات حينما اعتصم بها الشيخ أحمد عبد ربه العواضي بعد ان قتل حراسه فأمر القاضي عبد الرحمن الارياني رئيس المجلس الجمهوري آنذاك بهدمها عليه مخافة أن يهرب منها .

وفي القصر أيضا جربة المدافع ، وقد بناها الفريق أحمد فيضي باشا أحد قادة الجيوش العثمانية في أوائل المائة الرابعة عشر .

ويبلغ ارتفاع بعض بيوت صنعاء في أيامنا ثمانية أدوار (طبقات) ويفصل بين كل دور وآخر زنّار (حزام) من الخارج ويبنى من مادة البناء نفسه بأشكال هندسية رائعة الزخرفة . وكل دور مستقل بمرافقه وله باب يدعى باب الحاجر ، ويبنى الدور الارضي وأحيانا الدور الاول من الحجر البيضاء والنوافذ والاركان بالحجر السوداء (الحبش) وكان يستعمل الدور الارضي مخازن للحب والحطب وحظائر للماشية وعلفها وحجرة للمطاحن كما تسمّى المساحة الممتدة من باب البيت الى الداخل بالدهليز ، ويوجد في بعض البيوت حجرات فوق الطابق الاول تسمى المحاكم (جمع محكمة) اذا كان صاحب البيت قاضيا شرعيا أو عاملا للنظر فيها في شؤون الشكاوى المرفوعة اليه من المتنازعين ، كما كان يخصص بعضها لنزول الشركاء الذين يأتون لصاحب البيت بنصيبه من غلة أرضه بعد الحصاد ويأتي فوقها الدور الاول (الحافة السفلى) وتسمى الحجر الموجودة فيه بالدواوين (جمع ديوان) لاتساعها فبعضها يكون بطول البيت ويخصص استعماله لاجتماع المناسبات عند صاحب البيت كالعرس أو الولادة أو الموت ، والدور الثاني (الحافة الوسطى) تكون خاصة بالنساء والاطفال للجلوس والاكل والنوم ولشؤونهن الخاصة وللاجتماعات وتدعى كل حجرة فيه بالمنظر ، وللتمييز بين تلك المناظر فان كل واحدة تعرف بالجهة مثل المنظر العدني (الجنوبي) والمنظر

القبلي (الشمالي) والمنظر الشرقي والمنظر الغربي. والادوار العليا ينفرد بها الرجال.

ويوجد في كثير من بيوت صنعاء حجرات في اعالي البيوت تسمى الواحدة منها مفرج. والجمع مفارج وهي مستطيلة الشكل ذات نوافذ واسعة منخفضة ليرى الجالسون فيها أثناء القيلولة حقول صنعاء وضواحيها وارباضها ويبنى المفرج عادة فوق قطب الدار ومن تحته طابق حتى يرتفع المفرج عن مستوى التجواب (٥). ويوجد في كل بيت من بيوت صنعاء بئر وفي بعضها بئران وتستعمل مياهها للغسل والتنظيف فقط.

وكانت شوارع صنعاء مفروشة بالحجارة كما حكى ابن رسته في الاعلاق النفيسة وابن بطوطة في رحلته حينما جاء الى اليمن فى ايام الملك المجاهد الرسولي في المائة الثامنة الهجرية فاذا نزل مطر غسل جميع ازقتها وانقاها.

وتمتاز صنعاء بمساجدها الكثيرة ومآذنها السامقة وقبابها الساطعة، ففيها من المساجد ما ينيف على المائة، منها واحد وعشرون مسجدا بمآذن وخمسة بقباب، وأهم تلك المساجد هو المسجد الجامع (الجامع الكبير) فهو أشهر وأعظم مساجد اليمن على الاطلاق. وقد بناه وبر بن يحنس الانصارى في السنة السادسة بامر من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبلي بناه فروة بن مسيك المرادى وتم توسيعه في زمن الوليد بن عبد الملك. ولما ولي داود بن علي بن عبد الله العباسي على الحجاز واليمن اناب على اليمن عمر بن عبد المجيد بن عبد الرحمن بن الخطاب فكان اول من بوّب الجامع .. اما الباب الذى كان يدخل منه الولاة والائمة والملوك المجاور للمحراب فهو من الابواب القديمة وعليه كتابات حميرية مزبورة على صفائحه الحديدية ويقال انه من ابواب قصر غمدان، ثم جدد بناء الجامع الامير علي بن الربيع المداني الحارثي احد ولاة بني العباس سنة ١٣٦ كما يفيد النص المزبور بالخط الكوفي على حجرة بيضا من البلق المثبتة حديثا في جدار مدخل المكتبة الشرقية وكان لا يعرف موقعها في الجامع من قبل. ثم عمّره محمد بن يعفر الحوالى سنة ٢٦٥ وقيل سنة ٢٦٦ بعد ان خرّبه السيل وقد ذكر الجندى في كتابه (السلوك) نقلا عن القاضي سرى الدين بن ابراهيم العرشاني المتوفي بصنعاء سنة ٦٢٦ قاضي صنعاء ان تاريخ التجديد وجد مكتوبا في اللوح بالقرب من سقف الجامع وان بعض الولاة حسد ابن يعفر على ذلك واراد محوه واعتنى به فلم يقدر على ذلك لصلابة الخشب الذى نقر فيه الكتاب (٦) وقد اضاف اليه اسعد بن ابي يعفر ابراهيم بن محمد بن يعفر المجنب الشرقي والغربي (الجناح الشرقي والجناح الغربي) كما افاد المؤرخ احمد بن صالح بن ابي الرجال في (مطلع البدور) في ترجمة ابراهيم بن محمد بن ابراهيم ابن محمد الاكوع، وبلغ ما انفق بنو يعفر في عمارة الجامع – كما روى المؤرخ عبد الرحمن بن محمد الحبيشي – في كتابه " الاعتبار في التواريخ والاخبار" خمسة وعشرين الف خزانة في كل خزانة اربع عشر الف مثقال يعفرى. وجملة ذلك ثلاثمائة الف وخمسون الف دينار، والدينار اليعفرى يومئذ ثلاثة دنانير ملكية. والجامع منذ ذلك التاريخ على ذلك البناء كما افاد عبد الرحمن بن علي الديبع المتوفي سنة ٩٤٤ فقد قال: (ولما رجع – اى محمد ابن يعفر – من الحج بنى جامع صنعاء على الحال التى هو عليه الان (٧)

وقد بني الجامع من احجار ودعائم قصر غمدان التى كان موقعه بحذاء مكان الجامع من جهة الشرق والشمال ومعظم دعائمه قطعة واحدة من حجر البلق

وقد نحتت نحتا فنيا بعضها عليه كتابات حميرية.

ويعتبر سقف الجامع الكبير آية فنية في جمال الزخرفة البنيانية المتنوعة والاشكال الهندسية المختلفة ويحيط به من كل مكان حاشية من الخشب محفور عليها سور من القرآن الكريم بالخط الكوفي . وقد تعرض سقف مقدم الجامع للتلف في بعض أخشابه بطريقة شوهت جماله وافسدت روعته وهو يحتاج الى عناية خاصة لترميمه واصلاح ما فسد منه ودهن السقف كله بمادة خاصة تحفظ عليه بهاءه وتطيل عمره .

ومن المساجد الاثرية المشهد (الجبانة) لصلاة العيدين ويقع في الشمال الشرقي من صنعاء . وقد بناه الصحابي الجليل فروة بن مسيك في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وقد رات وزارة الاوقاف أن تهدمه بعد أن بني مشهد آخر أوسع ويقام الان مسجد في مكان المشهد القديم .

وكان يتبع كل مسجد بئر لتوفير الماء للمسجد وبجوارها قبة لاغتراف الماء منها وحوض لسقي الماشية من خيل وجمال وبغال وحمير وبقر وكانت مياه كل مسجد تخرج الى المقشامة (البستان) الخاصة بالمسجد لريّ البقول والخضروات والاشجار الموجودة فيه والتي يستثمرها قشام المسجد (المنظف).

*** الاســـواق :**

يوجد في صنعاء سوق خاصة لكل حرفة . فهناك سوق البزّ ، سوق البقر ، سوق الحبّ ، سوق الحرير سوق الحلقة ، سوق الزبيب ، سوق العلف ، سوق العنب ، سوق الفتلة ، سوق الفضة ، سوق القشر ، سوق القصب ، سوق الكوافي ، سوق المبساطة ، سوق المخياطة ، سوق الملح ، سوق النحاس ، ويوجد في معظم هذه الاسواق سقايات للشرب .

حمامات صنعاء :

يوجد في صنعاء عدد من الحمامات . وقد ذهب كثير منها وبقي منها أربعة عشر حماما ، منها حمام سبا وحمام شكر وهما من أقدم الحمامات بصنعاء وبعضهم يذكر انها من قبل الاسلام .

وكان لصنعاء سور ذكر الهمداني في الجزء الثامن من الاكليل (٨) أن شعرم اوتر هو الذى أوصل بنيان القصور وأحاط على صنعاء بحائط (٩). وقد تعرض للخراب مرارا ولا نعرف تفاصيل ذلك الا انه جاء في شرح "الدامغة" بأن الامام الداعى يوسف بن يحيى بن أحمد بن الناصر بن الامام الهادى أخرب درب صنعاء وأنّ فيما الهمداني قد عمّره كما أنّ السلطان حاتم بن أحمد اليامي مّن أعيان المائة السادسة أمر بهدمه أثناء حروبه مع الامام أحمد بن سليمان فلما جاء السلطان طغتكين بن أيوب الى اليمن أعاده وادخل في الحي الذى استحدثه لنفسه وأهله وخاصته وجنوده من الجانب الغربي الجنوبي من المدينة وقد وصفه يحيى بن الحسين بقوله : "وادخل في صنعاء البستان المعروف ببستان السلطان نسبة اليه – وبنى الدور واجرى اليه غيل البرمكي وبنى الدار السلطانية في صنعاء وبالغ في بنائها وزخرف غرفها بالذهب والوان الصناعات وجعل فيها صنوف الاشجار وانواع الرياحين والازهار . وقد أخربها الامام عبد الله بن حمزة المتوفي سنة ٦١٤ (١٠) ولسور صنعاء ستة ابواب ثلاثة جنوبية وهي باب ستران وباب اليمن (١١) وباب خزيمة وبابان شمالية وهي باب شعوب (١٢) وباب الشقاديف وباب غربي وهو باب السبحة (١٣) . وكان في هذا السور عدد كبير من الابراج وبين كل برج وآخر من المسافة ما بين الابراج الاخرى . وكان في وسط السور ممر لفارسين يمشيان معا ثم كان يستعمل هذا الممر

لعربات المدافع عند الحاجة لحماية العاصمة.

وقد استحدث في العهد العثماني الاول في المائة العاشرة حي جديد في الجانب الغربي من صنعاء يدعى (بئر العرب) نسبة الى رجل من بيت العرب اذ أن الحيّ أول ما ظهر بجوار بئر العرب ثم توسع فتغلب هذا الاسم على الحيّ كله ، وكان معظم من يسكنه من موظفي الدولة العثمانية ، وكان طابع البناء فيه يختلف عن بناء بيوت صنعاء اذ ان الطابع الغالب عليه هو الطابع التركي وكان اجمل احياء صنعاء من حيث اتساع شوارعه ونظافتها وكثرة حدائقها فكل بيت له حديقة وفي كثير من بيوته توجد مفارج في البستان وأمامها فسقية تتصاعد منها نوافير المياه وتظللها أشجار مثمرة وحولها عرائش الاعناب .

الهوامش

(١) الاكليل ٣٤/٨

(٢) "صفة جزيرة العرب"

(٣) يقال ان سبب هدمه لهذا القصر الاية (لايزال بنيانهم الذى بنو ريبة في قلوبهم) .

(٤) ص (٤٧ — ٦٣) .

(٥) التجواب : جدار طوله متران يحيط بالجبا (سطح الدار) من جميع جهاته ليسمح لنساء البيت بالصعود اليه دون ان يراهم احد من الخارج .

(٦) مساجد صنعاء للقاضي محمد الحجرى .

(٧) ذكر المؤرخ القاضي محمد بن احمد الحجرى في كتابه مساجد صنعاء ص ٢٧ ان الباني للجناح الشرقي هي السيدة ابنة احمد الصليحي في سنة ٥٢٥ نقلا عن المؤرخ يحيى ابن الحسين في تاريخه "انباء الزمن" وهو مردود عليه بانه لم يات لذلك ذكر في اعمال السيدة مع ان مؤرخي الدعوة الاسماعيلية لم يتركوا اثرا حسنا من آثارها الا واشادوا به واذا وجد ذكر لذلك في مصدر لم نطلع عليه فانه لايعدوا ان يكون ترميما او اصلاحا هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فان ثلاثة مؤرخين هم الحبشي والدبيع وابن ابي الرجال متفقون على ان الجامع بشكله الحالي هو من عمل بني يعفر يضاف الى ذلك شاهد آخر وهو مشابهة الجناح الشرقي لجامع شبام الذى هو من بناء بني يعفر بالاجماع ثم ليس من المنطق ان يكون جامع السيدة في ذى جبلة وهو كله من بنائها اقل مستوى من الجناح الشرقي بجامع صنعاء لو كان من بنائها فقد كان المنطق ان يكون مماثلا له ان لم يكن طراز جامعها في ذى جبلة احسن واكثر روعة وجمالا .

(٨) الجزء الثامن ص ٦٠

(٩) وكان يسمى درب صنعاء .

(١٠) باب قصر صنعاء الى خارج السور .

(١١) كان باب اليمن ملتويا فلا يرى من الخارج وقد هدمه الفريق احمد فيضي باشا القائد العثماني سنة ١٣١٦ وبناه بناء متقنا على ما هو عليه اليوم وكان ياخذ من موظفي الدولة جعلا معينا لينفقه على عمارة الباب .

(١٢) باب شعوب كان ملتويا ثم هدم وبناه العثمانيون بناء قريبا من بناء اليمن وقد هدم ولم يبق الا موقعه .

(١٣) كان ملتويا ثم هدمه واعاد بناءه المشير عبد الله باشا القائد العثماني وكان بابا جميلا له سقيفة انيقة وقد هدمه بعض الحمقى سنة ١٢٨٦ (١٩٦٦) .

التنظيم الاجتماعي في اليمن

بقلم : البروفيسور يوسف شلحود

تعريب : سلطان ناجي

البرفيسور يوسف شلحود عالم اتنولوجي سورى من حلب الشهباء مقيم في باريس حيث يعمل هناك استاذ ابحاث في المركز الوطني الفرنسي للابحاث العلمية . وخلال فترة العشر سنوات الاخيرة تردد على اليمن مرات بغرض دراستها ميدانيا في هذا المجال وقد نشر عددا من الابحاث الاجتماعية عن اليمن منها ما يلي :

١ ـ التنظيم الاجتماعي في اليمن .
٢ ـ المجتمع اليمني والقانون .
٣ ـ احتفالات الزواج في اليمن .
٤ ـ المجتمع اليمني والقات .

وقد نشر دراسته الاولى بالفرنسية في بداية السبعينات ثم قام بترجمتها الى الانكليزية بول درويش ونشرت الترجمة المختصرة في مجلة دراسات يمنية . وكما سنرى فان هذه الدراسة الميدانية اجريت في المرتفعات العليا شمال صنعاء في منطقة حاشد بالذات مدينة (خمر) منها . ان دراسة الاستاذ شلحود هذه قد اجريت مباشرة بعد انتهاء الحرب الجمهورية ـ الملكية . ولربما ان صورة التنظيم الاجتماعي قد تختلف الان بعض الشيء هناك بسبب الانشطة الاقتصادية وبالذات تدفق الاموال من الهجرة والسلع المهربة وغيرها . فمثل هذه الانشطة لابد ان تحدث نوعا من الحراك الاجتماعي بين الفئات الاجتماعية التي درسها . وهذه هي الترجمة المختصرة لصلب دراسة البرفيسور شلحود .

يقول احد الاخصائيين في الشؤون اليمنية ان معرفتنا لليمن امر لايستغني عنه من اجل دراسة بدايات الاسلام وتطور المجتمع الاسلامي . وهذه الدراسة تحصر نفسها بالمرتفعات العليا شمال صنعاء (حاشد وبكيل) .وبالذات مدينة (خمر) كعينة منها . وتظهر الدراسة ان النظام الاجتماعي هناك يحمل الطابع العميق للبداوة . فهم اثناء فض منازعاتهم يحتكمون الى القانون العرفي الذى في مظهره الكثير يشبه العرف السائد عند عرب الصحراء

من البديهي ان الحياة الريفية لاتستطيع ان تقوم دون ان تطور نظاما اجتماعيا مناسبا لها . ومثل

هذا النظام موجود في المرتفعات العليا هذه الا انه تنظيم اجتماعي نصفه قروى ونصفه الاخر قبلي . ويبدو ان العنصر البدوى يخدم كقاعدة ثقافية ان لم تكن تاريخية .

وقبل الدخول في التفاصيل لهذا التنظيم يجد الواحد انه يستطيع ان يميز ست فئات اجتماعية مرتبة من اعلى الى اسفل على النحو التالي :

(١) ممثلو العلوم الدينية .
(٢) الفلاحون .
(٣) التجار .
(٤) الحرفيون .
(٥) العنادل .
(٦) الاخدام .

وانه من حيث المبدأ فالتبادل الزوجي لايمكن ان يحدث سوى بين افراد المهنة الواحدة ، الا ان تسامحا يمكن ان يحدث بين الشاغلين لنفس المركز الاجتماعي اى مثلا القضاة والفلاحين والتجار والحرفيين .

اذا فحصنا قوائم علماء الانساب الخاصة بمختلف اجزاء البناء الاجتماعي سنجد الفاظا تنطبق على جماعات اكبر من القبيلة مثل (جذم) ، و(شعب) ، و(جمهور) . فالجذم يشير على وجه الحصر الى اصل الجماعة ان كانت من شمال الجزيرة ام جنوبها . اما الشعب والجمهور فيشيران الى حجم الجماعة دون اعتبار الوحدة السياسية التي هي مفقودة على اية حال في كل المستويات الثلاثة . واللفظة العربية المناسبة الدالة على الكونفدش هي (حلف) . ولكن ككل فانها تدل على الحلف القضائي ولا تدخل في الحسبان القرابة العصبية حقيقة تلك كانت ام خيالا. ان الحلف بالبداهة ينطوى على معاهدة دائمة بين كيانات دائمة . وهذا ليس موجودا في الحالة اليمنية . وينشا الحلف من فكرة التضامن مع جماعات معينة ضد جماعات اخرى وليس من اجل الرغبة في عمل جماعي متفق عليه . ان الحلف هو تجمع سياسي غير مستقر ، يشعر به الواحد اكثر مما يعيشه ولا يؤكد نفسه الا في وجه الخطر . واذا وجدت سلطة فهي على مستوى القبيلة فقط . وفي الحقيقة فان القبلية فقط تعي وحدتها العصبية ـ السياسية عندما تكون معارضة لاخرى . ان النزعة الى الثنائية واضحة على مستوى القبيلة والعشيرة : عصيمات العليا مقابل عصيمات السفلى ، حجور اليمن مقابل حجور الشام .

ان المصطلحات التي تستخدم في تحديد الاجزاء المختلفة للبناء الاجتماعي لتدل ايضا على تاثير الصحراء . وهذه القائمة التي حصلنا عليها في اليمن تسير تماما على نفس المنوال المحبب الى قلوب علماء الانساب . فالقبيلة تحتوى على الاقسام التالية : (البطن) ،و(الفخذ) ،و(اللحمة) ، و(الحبل) ، و(البدنة) ،او(العصبة) ،و(الاسرة) . وفي اليمن فان (اللحمة) تقوم مقام (العشيرة) في شمال الجزيرة .وهي مكونة من مجموعة(بدنه) او (عصبة) اما الاسرة في اليمن فهي من نوع العائلة (البطريكية) .

وكما نعلم فان الزواج عند العربي هو زواج لحمي يتم بين افراد القبيلة الواحدة . والبنوة تعتبر النسيب من ناحية الاب فقط جزءا من العائلة . فالاقرباء من ناحية الام ، مهما كانت درجة الحب التي يتمتعون بها ، يعتبرون غرباء ، بحيث انه يستطاع الثار من نسيب من ناحية الام لجريمة ارتكبها بحق نسيب من ناحية الاب .

وكما قلنا فان العائلة في المرتفعات الشمالية العليا

هي بطريكية في نوعها . فليس ان الوحدة العائلية المكونة من رجل وزوجته او زوجاته واطفاله غير موجود فحسب ، ولكنها تشكل جزءا من جماعة ارثية اكبر تسمى (الاسرة) . وهي تجمع من عدد من العائلات المستمدة نسبها من جد واحد والتي لا يسمح باخذ الثأر بين أفرادها . وعندما يتقدم السن بزعيم الاسرة فان توجيه العائلة ينتقل الى ابنه الاكبر ، او الى احد اخوته ، او الى اجدر شخص في الجماعة حتى لو كان اصغر سنا . وهنا نلمس اهم تناقض يوجد في المجتمع القبلي او الذى هو في الوقت ذاته يقرر الى درجة كبيرة او صغيرة اساس البناء الاجتماعي نفسه فهذا المجتمع شبه الديمقراطي القائم اساسا على القرابة العصبية وقوة التقاليد ليس لديه مبدأ سياسي يمكن ان يكفل استمرارية السلطة . وبسبب هذا التناقض فان الانشقاق عادة ما يحدث على نحو متكرر داخل الاسرة ذاتها تقريبا على مستوى كل نسب جديد . وهكذا يتطور الانشقاق داخل الاسرة الواحدة عبر اتجاهين مختلفين يمثل قسم منها الشرعية ، او اذا حبذنا ان نقول الاستمرارية . بينما القسم الاخر يقوم ان لم نقل على اساس الجدارة الشخصية ، فعلى الطموح المعقول لتكوين عصبة جديدة .

ان الجماعة المكونة من الاسرة تسمى (عصبة) أو (بدنة) . وعلى الرغم من التماسك بين افرادها ، الا ان الجريمة المرتكبة داخل الجماعة تقريبا على وجه الحصر ترتد الى مرتكبها . ويأتي على راس (العصبة) اليمنية (العاقل) – والذى في بعض الاحيان يسمى (العين) . ويتم انتخابه من قبل الجماعة ثم يثبت منصبه من قبل العاقل الاكبر في التدرج القبلي الهرمي الذى هو عاقل (اللحمة) او (العشيرة) . ويساعد العاقل (امين) او امينان لتسجيل وحفظ وقائع الاجتماعات .

ان العشيرة البدوية المكونة من عدة عصبات المنحدرة من جد معين تكون وحدة محلية – سياسية واسعة وتتمتع باستقلالية ذاتية كبيرة . وعلى رأس العشيرة يأتي الرئيس والذى بعمله يثبت تماسك مختلف اقسام هذه الهيئة الاجتماعية . اما العشيرة اليمنية عن ذلك . فبحكم تكيفهم مع الحياة الزراعية فان العصبات اليمنية توجد وتثبت نفسها حول منابع المياه ، ثم تحافظ على ما فيه الكفاية من الارض فيما بينها البين لكي تعول افراد عصبتها فالمنطقة تصبح هنا اذن رمز الحياة الجماعية وتستبدل القرابة العصبية كعامل تماسك بالرغم من ان العملية قابلة ان تعكس مثلا عندما يهدد خطر خارجي احدى القرى ، فعندما تعود العشيرة الى الظهور كشاهد لماض كاد ان ينسى تقريبا .

دعونا نمسك بجوهر القضية ونفحص حالة بعينها . فمثلا بنو صريم هم جزء من حاشد وهم قبيلة قوية كرست حياتها للزراعة منذ امد بعيد . وهم مكونون من تسعة اقسام ، كل واحد منها يتألف من اقسام فرعية تشير في الحقيقة الى مناطق فحسب . فقسم (الزاهر) مثلا ينقسم الى ثلاث أقسام هي : ثلث الوادى ، وثلث الواسط ، وثلث الأعلى . واذا ما اخذنا المثال نفسه ، فثلث الواسط مقسم الى (خمر) ونواحيها من جانب ومنطقة (العريانه) من الجهة الثانية .

فماذا حدث للتنظيم الاجتماعي الموروث من البداوة ؟

ان الحياة الريفية تأتي بأقسام فرعية تعرقل العمل المعتاد للمؤسسات السياسية وتعجل في تدمير السلطة القبلية . ان قسم (الزاهر) وحده يحكم من قبل ثمانية مشائخ كل يعمل مستقلا عن الاخر . فبينما صحيح ان الشيخ المحلي يمكنه ان

يأمل بالدعم الاكبر من عصبته ، الا ان العشيرة موزعة كثيرا ووجودها الفعلي ككيان سياسي فحسب . ونفس الشيء يمكن ان يقال اكثر بالنسبة للقبيلة ، اما وضع الحلف فهو اكثر اهتزازا .

التنظيم الاجتماعي في خمر :

في نقاشنا للمؤسسات والتنظيمات الاجتماعية الاخرى ، ومن اجل ان نتجنب التعميمات المبتسرة سنحصر ملاحظاتنا على منطقة (خمر) وذلك على الرغم من اشعارنا انها تطبق ايضا في المناطق الاخرى من المرتفعات العليا . ويبلغ سكان خمر الواقعة فوق تل صغير برتفع حوالي ٢٤٠٠ متر فوق سطح البحر الى شمال صنعاء حوالي ٢٠٠٠ نسمة وبحكم القرابة العصبية او التحالف فهم يتبعون قسم الزاهر . ويقوم بضبط الامر في المدينة مثل الحكومه هو العاقل ، اما السلطة القبلية فيمثلها الشيخ .

وكممثل للسلطة القبلية فان شيخ خمر بالكثير لايسيطر سوى على مقاطعة واحدة . وتساعد الشيخ في اعماله مجموعة من العقال : فلكل قرية عاقل يمثلها الا ان كل مدينة سوق او اية منطقة اكثر اهمية فانها تمثل من قبل اكثر من عاقل واحد . فمثلا لمدينة خمر وحدها اربعة عقال . فمن حيث المبدأ فان العاقل ينبغي له ان يرتبط برئيس العصبة ، التي يمثل جماعتها اللحمية ، بحكم ارتباطها بالارض ، الى المحافظة على شكلها التقليدى . والواقع فان هذا هو الحال في المزارع والقرى الصغيرة فقط . وفي خمر فان العاقل بجانب الشيخ ، يعني في الاساس ممثلا لنوع من النقابة الحرفية .

وينقسم سكان خمر الى جماعتين متمايزتين ليس لهما نفس المرتبة الاجتماعية او الاهمية العددية الواحدة . وهاتان الجماعتان هما جماعة الفلاحين وجماعه البياعين . وبسبب احتقار التجارة فان الجماعة الاولى تعتبر نفسها افضل ولذا تعامل الاخرى بنوع من التفوق .

ويذهب التمييز الى مدى ابعد من هذا البديل الواضح المتمثل بمالك الارض مقابل التاجر . ففي داخل كل من هاتين الفئتين يجد الواحد جماعات حرفية واخرى مهنية . فالفلاحون يشملون مزارعين حقيقيين وقضاة ايضا . ويتعامل افراد هذه الجماعة المهمة مع الشيخ عن طريق ثلاثة من العقال اثنان منهم يمثلان الفلاحين والثالث يمثل القضاة ويشمل البياعون المدكنين واصحاب المطاعم والقهوات الصغيرة ، والحرفيين ، والجزارين . ويمثلهم جميعا عاقل واحد فقط هو في هذه الحالة رئيس الجزارين والذى يقوم ايضا بمهام رئيس المجلس البلدي . واي مسح سكاني لخمر سيظهر حارات مخصصة للمقهويين واصحاب المطاعم الصغيرة ، واخرى للفلاحين ، وثالثة للقضاة .

والعقال في خمر ليسوا كلهم رؤساء عصبات ، فبينما مثلا يكون (بنوعمران) عصبة بعاقلها الخاص بها ، نجد (بيت مهدى) والفقهاء انهم اكثر من اسرة برغم انهم جميعا يمثلون من قبل عاقل واحد . والقضاة في الاساس لايكونون عصبة واحدة ، فمعظمهم غرباء يتمتعون بحق الجوار في (خمر) ويسمون (هجرة) ومع ذلك فيمثلون من قبل المناطق باسم كل من التجار والشغيلة .

ويخصص اسفل السلم الاجتماعي لما يسمونه (بالعنادل) ومفرده (عنديل) . وهذا المصطلح تتجاهل المعاجم العربية معناه . وبدرجة اساسية

فهو يطلق على الجزار والمزين الذى يعمل ايضا كحلاق وايضا كختان ، ومقدم الاضاحي ، والطبال والحجام ، والخدام ، اثناء الاعراس والاحتفالات . كما يطلق المصطلح ايضا على (القشام) — الذى يبيع كرثه وبقله في السوق وعلى الصانع الذى يمكن ان يكون حائكا ايضا . ثم الحمامي — الذى يدلك ابدان الناس بالماء والصابون في الحمامات العامة — والدوشان ، والمقوت .

وكانت توجد مناطق معينة بكل حرفة من العنادل ، ولم يكن في مقدورهم الالتحاق بالجيش وكانوا يمنعون من حمل السيف او البندقية . وعلى الرغم من السماح لهم بلبس الجنبية ، رمز الحرية والتحرر ، الا انها ينبغي ان توضع الى اليسار على عكس غالبية المواطنين الذين يلبسونها في الوسط . وللسادة والقضاة والاعيان الحق فقط في لبسها على اليمين . ولايسمح لشخص من طبقة اعلى ان يعايب على عنديل او يسيء اليه . فاذا حدث مثل هذا الامر فكل المجتمع يقف الى جانبه حتى يحصل على حقه . واخيرا فعلى هامش هذا المجتمع المقسم الى فئات مختلفة ، تعيش فئات الاخدام دون ان تعتبر جزءا منه . انهم حثالة السكان والذين لايرضى اى يمني ولو كان من المعوزين ان يزوجهم . ويعمل الاخدام كمكنسين ومنظفين ومغنيين وراقصين . ولن نذكر الانشطة الاقل سماحا بها التي تقوم نساؤهم بعض الاحيان بها .

ومن بين العنادل اثنان منهما يستحقان اهتماما بالذات وذلك بسبب مدى وتنوع اعمالها ، واعني بهذين (المزين) و(الدوشان) . فبجانب عمله كحلاق ، يقوم المزين بالختانة وذبح الاضاحي عندما لايستطيع مقدمها ذبحها بنفسه . كما يقوم المزين ايضا بحمل الرسائل او مصاحبة العروس من بيت ابيها الى بيت زوجها عندما يكون الزوج يعيش بقرية اخرى . ومقابل هذه الخدمات التي يقدمها للمجتمع يحصل المزين على مقادير من القمح والشعير والدخن اوقات الصراب او الحصاد وفى حالات الزواج يمنح مبلغا من المال ،كما يعطى رقبة كل ذبيحة يذبحها .

الدوشـــــان :

ومهمة الدوشان الرئيسية هي الكلمة . فلكونه شاعرا ذرب اللسان وان كان مملا ، فهو دائما موجود في كل مناسبة سعيدة لتقديم المديح لصاحب المناسبة ولضيوفه الذين يتوقع منهم مبلغا من المال . ويبدومصطلح (دوشان) غريبا عن العربية . وكما يعتقد بعض اليمنيين فمن المحتمل انه لفظة مركبة اصبحت مع الاستخدام معكوسة الترتيب . وهي واضحة بشكلها القديم . فلربما تعني (ذو شأن) .

وكيفما كان الامر فالدوشان يعتبر الان من بين اكثر الفئات المحتقرة في المجتمع . فهو اساسا يعتبر خادما للقبيلة يقوم بنقل الرسائل واشعار افراد القبيلة بقرارات رئيسهم . وفي اوقات الصراع العشائرى او عند القتل يتم ارساله من اجل اشعار العصبات لكي يدافعوا عن انفسهم او من اجل الاستعداد لاخذ الثار . فالعادة هو ان يذهب الى السوق او الى اى مكان عام ثم يزف لهم الخبر بطريقة خطابية . وعند اندلاع الحرب يقوم بنقل الرسائل بين المتحاربين . ويتجهون بانظارهم اليه من اجل عقد السلم او الحصول على هدنة . وفي الحقيقة فالدوشان يتمتع بحصانة كاملة تسمح له ان يتحرك بين المعسكرين المتحاربين بأمان كامل وبكلام آخر ففي اثناء الاشتباكات يصبح بالفعل (ذوشأن) وهو الافتراض الذى سبق ان طرحناه . وهذه الميزة تسمح له كزميله المزين في القيام

بالمهمة الحساسة لمرافقة المرأة التي تتزوج الى قرية خارج قريتها من بيت ابيها الى بيت الزوجية.

بالاضافة الى الدور الثنائي الذى يقوم به الدوشان كرسول وكمفاوض ، فانه يقوم ايضا بدور التزو بودور قراه يتجول بين العشائر يغنى المدائح للمشائخ والاعيان واولئك المحتفلين باحداث سريعة . كما يقوم ايضا بنفس الشيء عند عودة الحجاج او التجار وتنصيب الرؤساء الجدد ، ووصول الضيوف الكبار وفي اوقات الزواج ، والميلاد ، والختان . وعندما تكون العشيرة مشتبكة في حرب يقوم الدوشان بحث وتحريض الرجال على الهجوم ماشدا حميتهم ومثيرا هممهم . ان السلاح الاوحد للدوشان هو لسانه ، ولا يستطيع احد ان يرفع اصبعه عليه . فان هو فعل ذلك سوّد وجهه الى الابد . وامتيازاته هي تلك المحصصة عادة للاشخاص الممنوحي الهجرة والتي سنعود الى ذكرهم .

ويبقى الدوشان دائما خارج دائرة المسئولية الجماعية ، واية جريمة ترتكب ضد احد حماته لاترتد عليه البته . وعلاوة على ذلك فليست هناك امكانية للزواج بينه وبين اولئك الذين يستخدمونه . انه يستطيع ان يتزوج فقط ابنة زميل له من نفس فئته الاجتماعية . وما لم يتجه اولاده لاسباب اقتصادية الى الاعمال اليدوية ، ستبقى لهم نفس مكانته .

وبينما يعيش الدوشان على هامش العشيرة ، الا انه مرتبط بها بعلاقات قضائية . فهم يعطونه وثيقة تسمى (قاعدة) . وفيها يذكر بان فلان الفلاني ابن فلان الفلاني سيقوم بوظيفة الدوشان . ومقابل ذلك فقد تم الاتفاق ان تقضى له حاجاته وهو لايعطى مرتبا محددا ، وانما يدفع له كل واحد حسب مقدرته ونخوته . اما صاحب الاحتفال فيدفع له هدايا عينية . وفي اوقات الحصاد يستلم من الفلاحين قمحا وشعيرا وذرة وكثيرا بعض الاحيان يكفي لتغطية حاجاته طيلة العام .

ويتحرك بين العصبيات باحثا عن حادث سعيد يستطيع ان يستفيد منه او ظرف خطر يتطلب تدخله فهو اذن بالاساس يعيش وجودا بدويا . فمن كل ناحية فهو انسان يوجد في كل مكان ولا يوجد في اى مكان . والتذكير البعيد لحياة البداوة هي الخيمة السوداء التي هي بيته . والاسم المعطى لها ينم عن حالة العزلة المفروضة عليه . فهي تسمى (خدر) وهي نفس اللفظه العربية الفصحى التي تطلق على حجاب الفتاة .

وكما يحافظ الشيخ على شعور التماسك فالدوشان يعيد الى الاذهان شعور الوحدة كواصلة بين مختلف اقسام العشيرة وكرمز حي لطراز من الحياة كاد ان ينسى ، الا وهو التجوال والذى ابرز بقاياه هو التوزيع الاقليمي في قاعدة العشيرة اليمنية . وهذا كما سبق ان اوضحناه ، يحافظ بتكلف على بنيان اجتماعي هو بصراحة قبلي الثابت والاصول .

ويميل الدوشان الى الاستقرار والعيش في بيوت والاتجاه نحو الزراعة . ومع ذلك فالرغم من التغيرات الاقتصادية فان العادات الموغلة في القدم تقاوم بعنف كل ما من شانه تذويب الفوارق بين الطبقات الاجتماعية . لقد قررت ابنة فلاح ارملة وام لعائلة ان تعيد بناء حياتها مع مزين . ولكن الذى حدث هو ان كل اقاربها اعرضوا عنها بما فيهم ابنها الوحيد الذى توقف عن زيارتها . لقد كان زواجها اكثر من زواج غير موفق . لقد كان انهيارا حقيقيا .

وكما نعرف فقد حكم اليمن اكثر من الف عام

ائمة الزيود الذين كانوا يختارون من قبل طبقة السادة الذين كانوا يشكلون الارستقراطية الدينية ويأتون بعد العائلة الحاكمة من حيث الهرم الاجتماعي . واي رجل من فئة اجتماعية اخرى بغض النظر عن مكانته العالية كان لايمكن ان يتزوج بهاشمية .

هجـرة :

من وجهة نظر عالم الاجتماع وبالذات فيما يتعلق بتأثير المقدسات على الترتيب الاجتماعي . فان اكثر الامور ابداعا هو وجود هذه المؤسسة الغريبة في اليمن المسماة (هجرة) . والتي يبدوانها قلما حدثت اهتمام علماء الاجتماع بها . ومن الصعوبة تحديد المعنى الدقيق لهذا المصطلح المشحون كثيرا بالتاريخية .

فأولا هناك بعض المدن المسماة (هجرة) او (هجر) . ويفيدنا المؤرخ اليمني الهمداني (القرن العاشر الميلادى) ان اللفظة الثانية بالحميرية تعني مدينة او مجموعة حصون (محافد) . اذن فهي مؤسسة من قبل الاسلام كما تؤكد ذلك اسماء المدن القديمة في اليمن . وبين اوساط اليمنيين المعاصرين فكلا اللفظين لها معنى مدينة سوق كبيرة تخدم كنقطة تجمع للقبيلة والتي تعتبرها بوجه من الوجوه مكانا مقدسا ففي الهجرة فان هدر الدم الانساني ممنوع فيها تماما . كما يمنع فيها القتال او حتى مجرد الشجار . فيها يستطيع القاتل ان يقابل ابن او اخ ضحيته دون اى خوف على نفسه . وكل من يقوم بارتكاب مخالفة فيها سيدفع عقوبة اكبر بكثير مما سيدفعه لمخالفة مشابهة يرتكبها في مكان آخر . ولن يكون معرضا للملاحقة من قبل ضحيته فحسب ، بل من قبل كل المشائخ الرئيسيين للقبيلة الذين يضمنون الامن في المنطقة .

وتعتبر خمر هجرة لكل الحاشديين . ويتمتع سوقها الاسبوعي بحقوق اللجوء . ويحمى نوع من الصلح المقدس المجرم الذى يأتي هناك يوم السوق واليوم الذى قبله وبعده وذلك من اجل ان يقوم بالرحلة من والى المدينة بسلام .

وهناك اشخاص ايضا يدعون هجرة ، وهم عادة مهاجرون من طبقة (الفقهاء) او (السادة) الذين استقروا في مكان معين ، والذين بمجرد قبولهم يصبحون متمتعين بمكانة خاصة . ولكونهم محميين بسبب مكانتهم فبامكانهم ان يتدخلوا بين المتحاربين لعقد السلم في اى وقت حتى اثناء احتدام المعركة . وبمجرد ان تضفى على الشخص صفة (الهجرة) تبقى كافة في شخصه حتى وقت وفاته ، بل انها ايضا قابلة للتوارث بين ذريته ولكنها تبقى صالحة وشرعية في محل بعينه . ويفقدها الشخص عندما يترك المنطقة ويستعيدها بعد عودته .

ويتمتع رجال (الهجرة) تقريبا بحصانة شاملة بسبب مكانتهم . وأى شخص لايظهر لهم الاحترام وينتهك حرمة حقوقهم او يقوم بمحاولة اعتداء على اشخاصهم يعاقب بشدة . ويفرض عليه التعويض من قبل الجماعة الحامية ككل بحيث يساوى قيمته احدى عشرة مرة قيمة نفس المخالفة في الاحوال العادية . ولاهمية التعويض فانه يسمى (تهجير) في هذه الحالة . ومن المفيد ان نتذكر بان الامتيازات المعترف بها لاولئك الذين هم (هجرة) تمنح ايضا للعنادل وبالذات منهم (الدوشان) و (المزين) .

ان التنظيم الاجتماعي الذى رأيناه يشبه الى

حد معين نظام المنبوذين – كاست سيستم – الا ان النشاط الاقتصادي في الواقع هو الذى يحدد مكانة الشخص الاجتماعية ويحيطه بفرضيات ثابتة تجعله دائما يقوم بنفس العمل ويحافظ على نفس المكانة .

ومع ذلك فهناك اختلافات هامة بين النظام ونظام المنبوذين – كاست سيستم – فمهما كانت مكانتهووضعيته فلا يمكن لليمني ان يعتبر منبوذا من قبل افراد طبقهاجتماعية عليا . ان هذا النظام الاجتماعي فريد النوع تقريبا في الشرق العربي يثير المشكلة المعقدة بحقيقة اصله . لقد لاحظ ابن بطوطة عندما كان يتكلم عن آداب الاكل عند سلطان اليمن . شبها كبيرا بها رآه في بلاط الهند وقد تساءل عن حق : ترى اي النظامين قد أثر على الاخر ؟ بل ومن المحتمل ان التنظيم الاجتماعي الذى شرحناه في هذه الدراسة يعكس الى مدى معين النظام الاجتماعي للسبئيين الذى لانعرف عنه حتى الان الا قليلا .

فاذا كانت دراستنا هذه قد فتحت مشكلة من الصعب حلها على ضوء معرفتنا القليلة الراهنة عن اليمن ، فانها ترينا على الاقل خصوصية المجتمع اليمني وثراءه الاثنولوجي . واهميته في فهمنا للتاريخ العربي الاسلامي . ان موءسسة مثل موءسسة الهجرة يبدو انها تلقي بعض الضوء على سلوك الرسول في المدينة حيث؟استقباله ليس كمهاجر يطلب اللجوء ولكن كمنتصر متوج باكاليل المجد وبكافة الحقوق التي لازال اليمنيون في المرتفعات الشمالية العليا يمنحونها لممثلي العلوم المقدسة الذين يختارون العيش في حماهم وبين ظهرانيهم .

اليَمَن في الشعْر غير اليَمَني حَتى أواخر العَصْر العبّاسيّ

د. محمّد عَبْده غانم
جامعة صنعاء

ساحاول في هذا البحث أن أتتبع ما ورد عن اليمن وأهلها في شعر الشعراء غير اليمنيين ابتداء بالعصر الجاهلي وانتهاء بأواخر العصر العباسي . واقصد بالشعراء غير اليمنيين أولئك الذين لا ينتمون الى قبائل ما تزال مقيمة في اليمن وكذلك الذين لا ينتمون الى أصول يمنية لا خلاف في يمنيتها . وهو عكس ما صنعته في حديثي عن نصيب اليمن من الشعر في العصرين القديم والوسيط حين استبعدت مثلا البحترى لانتمائه الى طيىء التي لم تعد تقيم في اليمن ، وحين استبعدت دعبل الخزاعي لاختلاف النسابين في يمنية خزاعة وحين استبعدت أبا نواس لانه يمنيّ بالولاء . وسأتبع هنا أيضا التسلسل الزمني بين العصور الادبية وان كنت لن أتقيد بالتسلسل الزمني بين شعراء العصر الواحد .

وسأبدأ بما أجده عن اليمن في شعر طرفة بن العبد البكري وذلك حين يقول في معلقته يصف ناقته :

وخد كقرطاس الشآمي ومشفر
كسبت اليماني قدّه لم يجرّد

والسبت كما يقول الزوزني في شرحه للمعلقة هو جلد البقر المدبوغ بالقرظ ، والتجريد هو اضطراب القطع .. وفي ذكر السبت المستقيم القطع دلالة واضحة على ما كان لليمن من مكانة في صناعة الجلود . ويحدثنا النابغة الذبياني عن صناعة أخرى اشتهرت بها اليمن وهي **صناعة النسيج** وذلك حين يقول :

وناجية عدّيت في متن لاحب
كسحل اليماني قاصد للمناهل

والسحل ثوب كانوا يفاخرون بلبسه كما يبدو من قول طرفة نفسه في موضع آخر من معلقته :

فذالت كما ذالت وليدة مجلس
ترى ربها أذيال سحل ممدّد

وفي شعر النابغة اشارة الى صناعة يمنية أخرى هي صناعة **دروع القتال** وذلك حين يقول في الكلام عن الدروع السلوقية :

تقدّ السلوقيّ المضاعف نسجه
وتوقد بالصفاح نار الحباحب

و "سلوق" بلدة باليمن كانت تنسب اليها الدروع

والكلاب السلوقية . أما السيوف اليمانية فيرد ذكرها في كثير من أبيات الشعر الجاهلي بحيث لا نحتاج الى الاتيان بالشواهد على ذلك .

وكان فنّ البناء من الصناعات اليمنية الكبرى ، فقد أقام اليمنيون السدود وشادوا الحصون وكانوا يسمّون الحصن مصنعة . وفي شعر عنترة العبسي اشارة الى ذلك في قوله :

وفي أرض المصانع قد تركنا لنا بفعالنا خبرا مشاعا

ويبدو أنه يشير هنا الى معركة أو معارك وقعت بين قومه عبس وبعض القبائل اليمنية في أرض حيث الحصون والمصانع الكثيرة . ومما يؤيد ذلك أن عنترة يحدثنا في قصيدة أخرى عن معركة وقعت بين عبس وقبيلة زبيد المذحجية التي منها عمرو بن معدى كرب الزبيدي ، وذلك حين يقول :

فقد وجدنا زبيدا غير صابرة

يوم التقينا وخيل الموت تستبق

ولا يخلو الشعر الجاهلي من اشارة الى ما كان من تفاعل بين اللغتين اليمنية والعدنانية كما نجد في قول المتلمس اليشكري :

وأطرق اطراق الشجاع ولو رأى

مساقا لناباه الشجاع لصمما

فقد أورد محمد بن جرير الطبرى هذا البيت في تفسيره للقرآن الكريم شاهدا على نصب المثنى بالالف في قراءة " ان هذان لساحران " بتشديد نون ان ، وقد قيل ان هذه لغة بلحارث وزبيد ومن والاهم من قبائل اليمن .

وننتقل من الشعراء الجاهليين الى المخضرمين فنجد أعشى قيس يحدثنا عن زياراته لليمن فيذكر فيما رآه منها نجران وسرو حمير وحضرموت .

وقد طفت للمال آفاقه

عمان فحمص فاوريشلم

أتيت النجاشي في أرضه

وأرض النبيط وأرض العجم

فنجران فالسرو من حمير

وأى مرام له لم ارم

ومن بعد ذاك الى حضرموت

فاوفيت همي وحينا أهم

ويبدو ان الاعشى زار مأرب ايضا وشاهد بقايا سدها العظيم بعد ان خرّبه سيل العرم فوصف ما رآه من أعمدة الرخام ومما كانت عليه مأرب قبل خراب السد ، وذلك حين يقول :

وللموت خير لمن ناله

اذا المرء أمته لم تدم

وفي ذاك للمؤتسي أسوة

ومأرب عفى عليها العرم

رخام بنته لهم حمير

اذا جاءه ماؤهم لم يرم

فأروى الزروع وأعنابها

على سعة ماؤهم اذ قسم

فعاشوا بذلك في غبطة

فجار بهم جارف منهزم

فطار القيول وقيلاتها

ببهماء فيها سراب يهم

فطاروا سراعا وما يقدرون منه لشرب صبي فطم

أما نجران فانه يصف كعبتها والقائمين عليها بقوله :

وكعبة نجران حتم عليك حتى تناخى بأبوابها

نزور يزيد وعبد المسيح وقيسا وهم خير أربابها

اذا الحبرات تلوّت بهم وجرّوا أسافل أهدابها

لهم مشربات لها بهجة تروق العيون بتعجابها

وشاهدنا الجلّ والياسمين والمسمعات بقصّابها

ويربطنا دائما معمل فأى الثلاثة أزرى بها

تنازعني اذ خلت بردها معطرة خير جلبابها

فالاعشى يذكر أسماء القائمين على كعبة نجران التى كان يحج اليها النصارى من العرب . وهو يصف هؤلاء القائمين وما كانوا يرتدون من الحبرات وهى برود يمنية كانوا "يجرون أسافل هدابها" علامة على الخيلاء . وهو يصف ما كان لهم من مجالس للشرب تروق العيون بما بها من البهجة . وهو يصف أيضا أزهار الجل وهو الورد باللغة الفارسية والياسمين ويصف النافخات من القيان في القصب والمزامير والعازفات على البرابط وهي العيدان . ويذكر من بين الغواني اللواتي حضرن المجلس غانية قد خلت اليه وخلا اليها واذا بها تنازعه رداءها المعطر.

وفي قصيدة أخرى يتغنى الاعشى بزيارته لحضرموت وأميرها الكندى قيس بن معدى كرب الذى يشير اليه في قوله :

ونبئت قيسا ولم أبلـه

كما زعموا خير أهل اليمـن

وهو يذكر في هذه القصيدة ذا يزن وزوال ملكه وأذينة صاحب تدمر في قوله :

ازال أذينة عن ملكـه

وأخرج من حصنه ذا يزن

وفي قصيدة أخرى يشير الاعشى الى العصب وهو ضرب من البرود اليمنية ، فيقول :

انّ محلا وانّ مرتحلا وان في الشعر ما مضى مهلا

استأثر الله بالوفاء وبالعدل وولى الملامة الرجلا

والارض حمّالة لما حمّل الله وما ان تردّ ما فعـلا

يوما تراها كمثل أردية العصب ويوما أديمها نغلا

فهو يشبه الارض حين تتألق بالزهر ببرود العصب اليمنية . وكانت برود العصب اليمنية في الغالب صفراء بل كان اللون الاصفر العلامة المميزة لليمنيين في الاردية والرايات بينما كانت العلامة المميزة للمضريين اللون الاحمر والى ذلك يشير أبو تمام يصف الارض وقد كساها الربيع بالازهار الصفراء والحمراء :

مصفرّة محمرّة فكأنّها عصب تيمّن في الوغى وتمضّر

وكانت هذه البرود الصفراء كما يبدو تصبغ بالورس وهو نبات يماني يستعمل الى يومنا هذا للصباغ وقد ذكره البحتري في شعره حين قال يصف صورة رآها في ايوان كسرى عند زيارته له :

واذا ما رأيت صورة انطاكية ارتعت بين روم وفـرس

والمنايا مواثل وأنو شروان

يزجي الصفوف تحت الدرفس

في اختيال من اللباس على أصـ

ـفر يختال في صبيغة ورس

واليمنيون الى يومنا هذا يسمّون بعض الثياب المصبوغة صبيغة وان كانت الثياب التي تسمّى بهذا الاسم تكون في الغالب مصبوغة بالنيل الازرق .

ويطالعنا شاعر مخضرم آخر له شعر في اليمن قاله بمناسبة زيارته لصنعاء مع الوفد الذى جاء اليها من مكة برئاسة عبد المطلب بن هاشم مهنئا لسيف بن ذى يزن على انتصاره على الاحباش وهو أمية بن أبي الصلت ، قال بهذه المناسبة :

لن يطلب الثأر أمثال بن ذى يزن

لجّج في البحرللاعداءأحوالا

وقال :

أتى هرقل وقد شالت نعامتـه

فلم يجد عنده القول الذى قالا

ثم انتحى نحو كسرى بعد تاسعة

من السنين لقد أبعدت ايغالا

حتى أتى ببني الاحرار يحملهم

انك عمرى لقد أسرفت قلقالا

من مثل كسرى وباذان الجنود فتى

ومثل وهرز يوم الجيش اذ صالا

لله درهم من عصبة خرجـوا

ما ان ترى لهم في الناس أمثالا

غلبا جحاجحة بيضا مرازبـــة
أسد تربّب في الغيضات أشبالا
يرمون من عتل كأنهـا غبـط
مزمجو يعجل المرميّ اعجالا
أرسلت أسدا على سود الكلاب فقد
أضحى شريدهم في الدار افلالا
فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفقا
في رأس غمدان دار منك محلالا
ثم أطل المسك اذ شالت نعامتهم
وأسبل اليوم في برديك اسبالا
تلك المكارم لا قعبان من لبـن
شيبا بماء فعادا بعد أبـوالا

ومن الشعراء المخضرمين الذين ذكروا اليمن في شعرهم النابغة الجعدي ، وذلك حين يقول :

يا أيها الناس هل ترون الـــى
فارس بادت وخدّها رغما
أمسوا عبيدا يرعون شاءكـم
كأنما كان ملكهم حلما
أو سبأ الحاضرين مـأرب اذ
يبنون من دون سيله العرما
فمزّقوا في البلاد واحترفوا الهون وذاقوا البأساء والعدما
وبدلوا السدر والاراك به الخمط وأضحى البنيان منهدما

هذا وقد ورد ذكر المواضع والبلدان اليمنية في كثير من ابيات الشعر الجاهلي ومن ذلك على سبيل المثال قول المشمرج اليشكرى :

لما رأوا راية النعمان مقبلة
قالوا الاليت ادنى دارنا عدن

فعدن كما يبدو من هذا البيت تمثل اقصى المدن اليمنية بالنسبة الى سكان الشمال ، فالشاعر يقول لنا ان الذين رأوا جيش النعمان قادما لحربهم تمنوا ان لو كانوا في اقصى البلاد العربية . ويذكرنا هذا البيت ببيتين ينسبان الى اعشى قيس يقول فيهما :

تقول عيسي وقد أمّت ركائبها
لحجا وبانت ذرى الاعلام من عدن
امنتهى الارض ياهذا تريد بنا
فقلت ـ كلا ولكن منتهى اليمـــن

فاذا صحت نسبة هذين البيتين الى الاعشى ، فهو قد زار لحج وعدن الى جانب ما زاره من البلاد اليمنية الاخرى .

وقد جاء في قصيدة لعبدة بن الطبيب قوله :

اذا تجاهد سير القوم في شرك
كأنه شطب بالسرور مر مول

والمراد بالسرو هنا سرو اليمن وهو اعلاه .
وفي قصيدة لطفيل بن عوف الغنوى ورد قوله :

اسيلة مجرى الدمع خمصانة الحشا
برود الثنايا ذات خلق مشرعب

والمشرعب كل خلق طويل . وشرعب ناحية باليمن معروفة الى يومنا هذا وتقع على بعد ١٥ ميلا الى الشمال من تعز ،ويقال للرجل من اهلها شرعبي ـ وربما كانت شرعب في الزمن القديم موضعا لصناعة البرود ذات الخطوط الطويلة فنسبت اليها فقيل برود شرعبية كما نسبت الدروع السلوقية الى سلوق التي مرّ بنا ذكرها.

وفي قصيدة لعلقمة بن عبدة التميمي صاحب امرىء القيس ورد قوله :

ردّ الاماء جمال الحي فاحتملوا
فكلها بالتزيديّات معكوم

والتزيديات ثياب منسوبة الى تزيد ، وكانت كما يبدو - حيًّا من احياء اليمن وقد اشار الى ذلك ابو تمام في احدى قصائده حين قال :

خذها مثقفة القوافي ربّها
لسوابغ النعماء غير كنود
حذاء تطلاء كل فرد حكمة
وبلاغة وتدر كل وريد
كالدر والمرجان الف نظمه
بالشذ في عنق الكعاب الرود
كشقيقة البرد المنمم وشية
من ارض مهرة او بلاد تزيد

اما ارض مهرة التي جاء ذكرها ايضا في البيت الاخير فموضع بذاته يسمّى بهذا الاسم الى اليوم ، ويقع في الشطر الجنوبي من اليمن وكانت مشهورة بالابل السريعة ولذلك نجد ذكرها في قول المتنبي عندما عوّل على الفرار من مصر :

ويلمّها خطة ويلمّ قابلها
لمثلها خلق المهريّة الفود

وكأسماء الاماكن يرد الكثير من اسماء القبائل والاشخاص اليمنيين في الشعر الجاهلي ففي قصيدة للمخبّل بن ربيعة بن عوف من بني انف الناقة ، وهم بطن من تميم ، يرد قوله مفاخرا بانتصارات قومه على اليمنيين :

ويوم الرحى سدنا وجيش محرق
ضربناه حتى انكأته شمائله
ويوم ابي يكسوم والناس حضر
على جلبان اذ تقضى مفاصله

والمحرق وابو يكسوم من ملوك اليمن ، وجلبان مدينة كانت باليمن ذكرها ياقوت في معجم البلدان وفي قصيدة للعباس بن مرداس السلمي وردقوله :

لاسماء رسم اصبح اليوم دارسا
واقفر الا رحرحان فراكسا
بجمع يزيد ابنى صحار كليهما
وآل زبيد مخطئا اوملامسا

وصحار زبيد من قبائل اليمن . والى حسان بن ثابت ينسب قوله في بني عبد المدان الحارثيين :

وقد كنا نقول اذا التقينا
بذى جسم يعدّ وذى بيان
كأنك ايها المعطي لسانا
وجسما من بني عبد المدان

ويدخل عصر النبوة والراشدين ، ويشارك اليمنيون في حروب الفتوح ثم في القتال الدائر بين الامام علي بن ابي طالب رضي الله عنه ومعاوية وتؤيد همدان القبيلة اليمنية الكبرى جانب الامام علي الذى ينسب اليه قوله فيها :

فلو كنت بوّابا على باب جنّة
لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

ويؤكد هذه الشهادة لهمدان من حيث نصرتها قول المختار بن عبيد الله الثقفي الداعي الى محمد بن الحنفية -

تسربلت من همدان درعا حصينة
تردّ العوالي بالانوف الرواغم

وكان عبد الله بن ابي ربيعة المخزومي قد تولى

اماره اليمن لعثمان بن عفان رضي الله عنه وتزوج اثناء امارته بامرأة يمنية من لحج ، المنطقة القريبة من عدن بحيث لا تزيد المسافة بينهما عن ١٥ ميلا فولدت اللحجية لعبد الله ابنه عمر بن ابي ربيعة فكان عمر فيما بعد يتردد على اليمن لزيارة اخواله بلحج . وكان يطيل الاقامة بينهم احيانا كما تدلنا قصيدته التي يقول فيها :

هيهات من أمة الوهاب منزلنا
اذا حللنا بسيف البحر من عدن
وحل أهلك أجيادا فليس لنا
الا التذكر أو حظ من الحزن
لا داركم دارنا يا وهب ان نزحت
نوال عنا ولا أوطانكم وطني
فلست أملك الا أن أقول اذا
ذكرت لا يبعدنك الله يا سكني
يا وهب ان يك قد شط البعاد بكم
وفرّق الشمل منا صرف ذا الزمن
فكم وكم من حديث قد خلوت به
في مسمع منكم أو منظر حسن
بل ما نسيت ببطن الخيف موقفها
وموقفي وكلانا ثم ذو شجن
وقولها للثريا يوم ذي خشب
والدمع منها على الخدين ذو سنن
بالله قولي له في غير متعبة
ماذا أردت بطول المكث في اليمن

ويتولى اليمن لعبد الله بن الزبير عبد الله بن عبد الرحمن الازرق فلا يلبث أن يعزل حتى يقول فيه أبو دهبل الجمحي :

ما زلت في دفعات الخير تفعلها
لما اعترى الناس لاواء ومجهود
حتى الذى بين عسفان الى عدن
لحب لمن يطلب المعروف أخدود

وبين عسفان في اقصى الشمال وعدن في اقصى الجنوب اليمني تقع اليمن كلها . اما ابو حراش الهذلي فيتخذ من صنعاء الحد الجنوبي للمسافة التي يحدثنا عنها في قوله :

فما تركت عدوا بين بصرى الى صنعاء يطلبه بذحل

ويعيد ذو الرمة الى الاذهان صناعة النسيج في اليمن حين يقول لنا :

به ملعب من معصفات نسجنه
كنسج اليماني برده بالوشائع

ويعكس الشعر الاموى فيما يعكسه من الاثار اليمنية ما قاله الشعراء غير اليمنيين وعلى راسهم الكميت الاسدى في مثالب اليمن ، وكان يغذى هذه المعركة الكلامية ما كان يدور في الساحة السياسية من معارك طاحنة بين الامويين وأعدائهم .

ويدخل العصر العباسي فينتصر دعبل والبحترى لليمنيين ودخل في المعركة ابو نواس منحازا في أغلب الاحيان الى الجانب اليمني بدعوى انتمائه الى اليمن بالولاء .

ويعيد ابو نواس في شعره الصناعة اليمنية الى الاذهان في قوله يمدح الفضل بن يحيى البرمكي :

اليك أبا العباس من دون من مشى
عليها امتطينا الحضرمي الملسنا

والحضرمي الملسّن كما يقول احمد عبد المجيد الغزالي في شرحه للديوان هو النعل الذى له طول ولطافة كهيئة اللسان واذا لم يفسر الشارح لماذا وصف النعل بالحضرمي فلان الكلمة لا تحتاج الى تفسير فاما ان النعل كان يجلب الى بغداد من حضرموت أو ان صناعته بتلك الهيئة بدأت في حضرموت ثم قلدت في بقية الدول العربية .

ويعيد أبو تمام الى الاذهان صناعة البرود اليمنية

ولكنه يهتم في هذه الحالة بالبرود الموشاة وذلك حين يقول :

فسقاه ماء الطل كافور الندى
وانحل فيه خيط كل سماء
غنى الربيع بروضه فكأنما
أهدى اليه الوشي من صنعاء

فهو يشبه الرياض في فصل الربيع وقد طرزتها الازهار بالبرود اليمنية الموشاة .

أما الشاعر أبو الشيص ابن عم دعبل فيلتفت الى ناحية المتانة في النسيج اليمني حين يقول :

لقد صدع الشيب ما بيننا
وبينك صدع الرداء اليماني

فشبه قدرة الشيب على [illegible] الاحباب بما يحتاج اليه صدع الرداء اليماني من قوة لمتانة نسجه .

وأما عبد الله بن المعتز فيعود بنا الى المعركة بين العدنانية والقحطانية حين ينتقص من اليمنيين في أرجوزته التي امتدح بها الخليفة المعتضد ، فهو يعيّرهم فيها بدباغة الجلود وحياكة البرود وان كان يصدر في هجومه عن استيائه مما بلغه من طغيان حركة القرامطة في اليمن بقيادة زعيمهم علي بن الفضل ، فهو يقول :

ثم بدا للشر من آل علي
مجانب أفعال ذى الرشد التقي
صاحب أجناد بصنعاء اليمن
دباغ أجلاد وقينا ذا درن
وناسجا للبرد والحبير
وآكلا للمال في الهجير
اتباع امرأة وأسرى هدهد
ان حضروا لم يكرموا في المشهد
وحقروا لما عتوا وأشركوا
ففرّقوا مفازة وأهلكوا
زاغوا عن الارشاد والتسديد
واقتبسوا خلائق القرود
وسمعوا نعقة غاو جاهل
واتبعوه رغبة في الحاصل
فسلطوا ابن يعفر عليهم
وسار في عسكره اليهم
فأصبحوا كأنهم ما كانوا
جزاء ما قد فجروا وخانوا

ولو رجع ابن المعتز الى نفسه لوجد أنه ممن تجرى في عروقهم الدماء اليمنية ولو بمقدار يسير لانه من أحفاد المهدى ولان أم المهدى كانت يمنية من حمير أخوها يزيد بن منصور الحميرى الذى أشاد بذكره أبو نواس في مدحه للامين . ولكن ابن المعتز كان ينظر الى اليمن وما يجرى فيها من الاحداث من وجهة نظر الدولة العباسية وحقها في السيطرة عليها كولاية للخلافة كما نظر الى اليمن من زاوية نقمته على ثورات العلويين أيا كانت .

ويعيدنا مهيار الى أمجاد اليمن القديمة حين يقول :

وما كنت الا واحدا من عشيرة
ولا باقيا في الناس الا ابن ذاهب
فهل أنا أحمى من مقاول حمير
وأمنع ظهرا من مشيّد مأرب

وعلى ذكر مأرب فقد أخبرني صديقي الكريم الدكتور عبد العزيز المقالح أنه قرأ لشاعر ينسب الى أسوان اسمه عبد الرحمن قوله :

لئن قحطت أرض الصعيد وأجدبت
فلست أخاف القحط في أرض قحطان
وان كفلت لي مأرب بمآربي
فلست على أسوان يوما بأسوان
وان جهلت قدرى زعانف خندف
فقد عرفت فضلي غطارف همدان

فالشاعر هنا يقارن بين جدب صعيد مصر وخصب اليمن وبين الوفر في مأرب والحرمان في أسوان كما يقارن بين قبائل خندف العدنانية وقبائل همدان القحطانية . ويبدو أن هذا الشاعر قد قصد اليمن من أرض مصر كما فعل ابن قلاقس حين زار اليمن في العصر الايوبي قاصدا وزير الحاكم الزريعي بعدن ولما انكسر به المركب الذى كان يحمله عائدا الى مصر ومعه هدايا الوزير العدني بالقرب من جزيرة دهلك ، اضطر الى العودة الى عدن في أواخر عام ٥٦٣ هـ . وما ان عاد الى عدن حتى دخل على الوزير وأنشده قصيدة جاء في مطلعها :

صدرنا وقد نادى السماح بنا ردوا
فعدنا الى مغناك والعود أحمد

ثم أنشده قصيدة أخرى أشار فيها الى حادث الغرق فكان مما قاله فيها :

وغلطت في تشبيهه بالبحر فاللهم غفرا
أو ليس نلت بذا غنى جما ونلت بذاك فقرا

وقد عوّضه الوزير كما قيل عن كل ما فقده بل زاد عليه .

هذا ولم أحاول أن أستقصي هنا ما جاء في الشعر غير اليمني عن اليمن في الفترة التي حددتها بل عرضت ما أعتقد أنه نماذج صالحة لتكوين صورة متكاملة عن انطباعات الشعراء غير اليمنيين عن اليمن سواء أكانوا ممن زاروها أم ممن عرفوها من بعيد . وسوف أتناول في فرصة قادمة نماذج من الشعر الذى قاله في اليمن شعراء غير يمنيين في العصر الحديث .

المسكوكات في الحضارة العربية الإسلامية

د. محمد أبو الفرج العش

* علم المسكوكات Numismatics

منذ أن تطوّر الانسان وخرج من نطاق الاسرة ، الى القبلية ، الى الاستقرار في الريف ثم في المدينة ، توسّعت آفاق عمله ، وشعر بحاجته الى المجتمع المتعاون : يعمل ليعطي ، ويعطي ليأخذ ، ولم يعد يستطيع ان يكفي نفسه بنفسه ، بل عرف أنه عضوٌ فعّال في الجماعة الانسانية.

كانت الوسيلة البدائية للتعامل بين الناس هي التبادل ، ينتج سلعة ويبحث عمن تلزمه هذه السلعة ، فيبادله بها ليحصل على حاجته ، هذه الطريقة كانت صعبة جدا ، لان المنتج قد لا يجد ما يلزمه عند من يحتاج الى بضاعته ، فيقوم بعدة صفقات ليحصل على ما يريد ، وهو أمر متعب للغاية . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان التبادل لا يقوم على أساس عادل ، وخاصة اذا كان المبادل مضطرا ، والمبادل معه زاهدا . وقد تنشأ مشكلة يصعب حلها لمن يريد أن يبادل ببقرة ، وهي ذات قيمة عالية ، وتلزمه حاجات صغيرة وكثيرة عندئذ يمكن أن نتصوّر المتاعب التي يواجهها المنتج المحتاج .

لذا فكر الانسان القديم بايجاد وحدة (١) للتبادل ، مثلا براس الغنم راس البقر ، حجم معيّن من الحبوب ٠٠٠٠ ومع ذلك ظلت الصعوبات قائمة .

لجأ القدماء ، وخاصة في بلاد الرافدين الى أن يجعلوا وحدة التبادل سبيكة معدنية ذات وزن معين ، فهي أسهل في التعامل والنقل ، وثمنها يكاد يكون ثابتا ، ثم جعلوا لهذه السبائك أضعافا واجزاء وأجزاء الاجزاء لتسهيل عملية البيع والشراء .

راحت هذه الفكرة في جميع بلاد العالم القديم . جعل اليونانيون وحدتهم من الذهب الفضيّ (٢) على شكل فولة ، ثم حملوها علامة كرسم سلحفاة أو نبات أو حيوان ، ثم اصطلح ملك ليديا (٣) كريروس على قرص معين بوزن محدد ، وضع عليه شارته ، وأخذت الدويلات اليونانية تقلده ، وتضع كل منها شارتها الخاصة بها .

نشأت المسكوكات في البلاد الايونية منذ القرن السابع قبل الميلاد وأخذت تنتشر بسرعة في العالم المتمدن عبر العصور ، وأصبح للدولة القوية نقودها الكثيرة المتنوعة من الذهب والفضة والبرونز أو النحاس أو بعض الخلائط وكلما كان للدولة نفوذ قوي ، كان لمسكوكاتها شأن وسعة انتشار .

النقود اليونانية ثم الرومانية ثم الايرانية القديمة ثم البيزنطية والساسانية كانت من الوفرة والتنوع مما يصعب حصره .

كان العرب قبل الاسلام يتعاملون بالتبادل والمقايضة فيما بينهم ، الا انهم بتجاربهم الخارجية كانوا يتعاملون بالنقود الساسانية والبيزنطية ، وهم يعرفونها حق المعرفة ، وكان من بين العرب نقاد ، يميزون الصحيح من الزائف ، والثقيل من الخفيف عيارا ووزنا .

استعمل العرب المسلمون الدراهم الساسانية والدنانير والفلوس البيزنطية كما هي في بادىء الامر ، ثم سكوها بأنفسهم مدخلين عليها بعض الامور المستجدة التي سنشير اليها ، ثم عرّبوا النقود تعريبا كاملا وانتشر استعمالها انتشارا عظيما في جميع أرجاء الارض تقريبا ، وهي كثيرة التنوع فاقت جميع المسكوكات المعروفة في العصور الوسطى .

تنبه العلماء في العصر الحديث الى أهمية النقود كوثائق تاريخية ، لذا اهتموا بدراستها وتصنيفها تصنيفا دقيقا ، وألفوا بها كتبا ، ووضعوا قواعد لدراستها ، وطرقا لاستنتاج المعلومات الاثرية والتاريخية ، فغدت هذه الدراسات علما واسع الانتشار في البلاد المتمدنة ، لا بد لكل أثري أو مؤرخ أو باحث اقتصادي أو مالي من أن يطلع عليه ، ويستقي المعلومات الصحيحة منه .

المسكوكات العربية الاسلامية كثيرة العدد ، وكثيرة التنوع بالنسبة الى المعدن المسكوكة منه ، وبالنسبة الى ضاربها ، ومكان الضرب ، ولان هذه المسكوكات تحمل التاريخ الهجري المتسلسل ، وهذه ميّزة عظيمة جدا للمسكوكات الاسلامية ، ذلك لان النقود الساسانية مؤرخة بعدد سنوات حكم كل عاهل فقط ، وكذا النقود البيزنطية ، لذا لايعرف تاريخ النقد الا بمقارنة حكم العاهل بالجداول المنظمة من قبل علماء النقود

لتحديد مدة حكم كل ملك ومقارنته بالتاريخ الميلادى ، ولما كانت النقود العربية الاسلامية أغنى النقود المعروفة بالمعلومات ، فان اهتمام العلماء بها كان عظيما جدا منذ القرن الثامن عشر ، وظل علم المسكوكات العربية الاسلامية في تقدم مستمر حتى يومنا هذا ، وما زلنا حتى الان نكتشف نتيجة التنقيبات واللقى الاثرية معلومات جديدة ونقودا نادرة .

*** نشأة النقــود العــربية الاســلامية (٤) :**

عرف العرب قبل الاسلام الدراهم الساسانية وهي من الفضة ، وعرفوا الدنانير البيزنطية وهي من الذهب ، والفلوس البيزنطية وهي من النحاس أو البرونز ، وذلك نتيجة للتجارة الخارجية التي كان يمارسها العرب بين بلاد الشام والعراق .

* الدراهــم العــربية الســاســانية :

الدرهم كلمة محرّفة عن اليونانية (دراخما) ، انتقلت الى ايران ، فحورت الى (درم) وأطلق عليها العرب (الدرهم) .

كان الساسانيون يسكون نوعين من الدراهم ، النوع الاول وهي **البغــلي** ووزنه بالميزان الحديث حوالي أربعة غرامات ، والنوع الثاني **الطبرى** ووزنه غرامان تقريبا .

استعمل العرب المسلمون هذه الدراهم كما هي ، وقد كثرت بين أيديهم بعد الفتوح ، فوجد الخليفة الثاني أن هذين النوعين سيخلقان مشكلة في تحديد أموال الزكاة ، لذا أمر أن تسك الدراهم العربية الساسانية بوزن وسط ، قدره حوالي ثلاثة غرامات . ولقد مرّ تعريب هذه النقود بمراحل اليكم أهمها :

١ ـ هذه الدراهم أسماها علماء النقود (العربية الساسانية) ، ذلك لانها احتفظت بجميع الدراهم الساسانية ، لكنها تتميز بكلمة عربية أو كلمتين أو أكثر : لله ، جيد ، بسم الله ، بسم الله ربي ... كتبت في هامش الوجه .

وفي تصنيف هذه النقود التي تحمل أسماء الملوك الايرانيين المتأخرين جعلت تحت اسم الدراهــم العربية الساسانية **المغفلة** ، ذلك لانها لا تحمــل أسماء الحكام العرب .

أقدم درهم من هذا النوع مؤرخ من سنة (عشرين) وقد اعتبر علماء المسكوكات هذا التاريخ من حكم يزدجرد الثالث أى من سنة ٦٥١ م الموافقة لسنـة ٣١ هـ . لقد جاريت العلماء في اعتبار التاريخ ٢٠ بالتقويم اليزدجردى وكذا التاريخ ٢١ فيما كتبت سابقا (٥) ، لكني الان أرى جازما أن هذا التاريخ ٢٠ ، ٢١ هو بالتقويم الهجرى ، وقد وقع في عهد عمر بن الخطاب لان بعض هذه النقود تحوم أوزانها حول الثلاثة الغرامات حسب الاصطلاح الجديد .

لماذا لا تكون بالتقويم الهجرى وقد ضربها المسلمون ؟ هل لانها تحمل اسم يزدجرد الثالث ؟ ليس هذا مبررا ، ذلك لان النقود العربية الساسانية المغفلة باسم خسرو الثاني هي أيضا تحمل التاريخين ٢٠ ، ٢١ (٦) واعتبرها أيضا العلماء بالتقويم اليزدجردى ، أما النقد المؤرخ من سنة ٢٥ (٧) فانهم لم يعتبروه يزدجرديا أى أنه بالتقويم الهجرى ، وهذا تناقض واضح . استمرت

هذه النقود المغفلة حتى سنة ٦٤ هـ (٨) ، وهو تاريخ متقدم .

٢ – النقود العربية الساسانية بأسماء الخلفاء والحكماء والثوار: وضع معاوية بن أبي سفيان اسمه بالفهلوية عوضا عن اسم العاهل الساساني وكذا فعل ولاته على الدراهم التي سكوها في ولاياتهم ، والخليفة عبد الملك بن مروان ومدّعو الخلافة عبد الله بن الزبير والخارجي قطريّ بن الفجاءة ، أما الحجاج فقد كتب اسمه على الاغلب بالعربية .

٣ – النقود العربية الساسانية المؤرخة بالتقويم الهجرى من السنوات ٧٢ – ٧٤ هـ : جميع الكتابات باللغة العربية ما عدا اسم العاهل الايراني وهي مضروبة بدمشق .

٤ – الدرهمان المضروبان سنة ٧٤ – ٧٥ هـ وقد كتبا باللغة العربية ووضع عليهما عبد الملك صورته واقفا ممسكا بقبضة سيفه (٩)، وقد خلا هذان النقدان من ذكر مدينة الضرب دمشق ، لكنهما يعتبران من ضرب دمشق .

*** الدنانير العربية البيزنطية :**

الدينار من كلمة لاتينية استعملت في اسبانيا في العهد الروماني ، وربما كلمة dernier الفرنسية استعملت منذ العهد الروماني مشتقة منها ، واستعملت أيضا في البلقان ، لكنها لم تستعمل من قبل البيزنطيين ، فهم كانوا يطلقون على النقد الذهبي كلمة Solidus ، فكيف اذا وصلت الى العرب ؟ لا بدّ من أن يكون الايرانيون قد استعملوها وانتقلت منهم الى العرب على أغلب الظن .

السوليدوس البيزنطي يزن ٥، ٤ غرامات تقريبا ، وعندما بدأ تعريب الدنانير حافظ العرب على الوزن نفسه ، ولكن بعد أن عرّب عبد الملك بن مروان الدنانير نهائيا جعل وزن الدينار العربي الاسلامي يحوم حول ٤،٢٥ غ .

ومرّت حركة التعريب بمراحل عديدة ، نجملها فيما يلي (١٠) :

١ – قلد العرب سوليدوس فوكاس (٦٠٢ – ٦١٠م) ولم يغيروا معالم الدنانير ، وانما حذفوا عارضة الصليب لابطال معناه الديني .

٢ – قلدوا سوليدوس هيراكليوس وابنه (٦١٠ – ٦٤١ م) ، وحذفوا أيضا عارضات الصليب ، كما حذفوا الصليب بين العاهل وابنه .

٣ – قلدوا سوليدوس هيراكليوس وولديه بالطريقة نفسها .

٤ – قلدوا سوليدوس هيراكليوس وولديه ، لكنهم حذفوا جميع الصلبان ، وجعلوا فوق قائمة الصليب الماثل في الظهر كرة صغيرة ، وكتبوا حوله بالعربية مأثورة المدار باتجاه عقرب الساعة :

"بسم الله لا اله الا الله وحده محمد رسول الله"

٥ – في هذه المرحلة أصبح الدينار عربيا متأثرا بالنمط البيزنطي .

الوجه : مثل شخص عبد الملك واقفا ، يضع يده اليمنى على مقبض سيفه ، وهو يرتدي الثياب المزركشة ، كتب في المدار حوله حسب اتجاه عقرب الساعة :

"بسم الله لا اله الا الله وحده محمد رسول الله"

الظهر : ظلت قاعدة الصليب البيزنطي المبطل ماثلة ، وكتب حولها باتجاه عقرب الساعة :

"بسم الله ضرب هذا الدميز سنة أربع وسبعين" (١١)

وجدت عدة دنانير من هذا النمط المضروبة في السنوات ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ هـ وهي محفوظة في متاحف باريس ونيويورك ولندن .

* الفلـوس العـربية البيزنطيـة :

كلمة الفلس مأخوذة من كلمة Follis اليونانية وقد أصبحت عربية ، وهو يصنع من النحاس أو البرونز .

مرّت الفلوس بمراحل تطورية أكثر تنوعا ، ولكنها شبيهة بتطور الدنانير العربية البيزنطية ، نجملها فيما يلي :

١ – لما كانت الفلوس البيزنطية تضرب في بلاد الشام قبل الاسلام ما عدا انطاكية ، نرى ظهور أسماء المدن الشامية على هذه الفلوس في العهد الاموى ، كتبت أسماء المدن باليونانية ، أو اللاتينية ، اليكم بعض الامثلة :

SCYTOPOLIS وهى بيسان .

ΔΑΜ وهي مختصر ΔΑΜΑCΚΟC وهي دمشق .

HLIOPOLE = HΛΙΟΠΟΛΕ وهي بعلبك .

معالم هذه الفلوس ظلت بيزنطية صرفة .

٢ – ظهور اسم المدينة الشامية باللغة العربية الى جانب اسمها باليونانية ، مثل ΔΑΜΑCΚ باليونانية الى يسار M والى اليمين (ضرب) ، وتحتها (دمشق) وكذلك ظهر اسم EMECIC باليونانية و (حمص) ، وكذا THBEPIAΔO باليونانية و (طبرية) . . . .

٣ – ظهرت أسماء المدن بالعربية فقط مع أن الفلوس ظلت محتفظة بمعالم الفلوس البيزنطية = دمشق .

٤ – وضع الخليفة الاموى شخصه واقفا متقلدا سيفا ، ويظن أن الشخص يمثل معاوية ابن ابي سفيان (١٢)

وهو على اى حال قبل الملك ابن مروان وكتب حول شخصه يسارا (محمد ر) والى اليمين (سول الله) ، وذكر على الظهر عبارات متنوعة منها : "بسم الله لا اله الا الله وحده" حول قائمة الصليب المبطل.

٥ – سك عبد الملك بن مروان فلوسا متقنة ، بدا على الوجه شخصه واضحا ، ورقم حوله : "لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين" .

ظلت قائمة الصليب المبطل بادية على الظهر ، وكتب حوله : " لا اله الا الله وحده محمد رسـول الله" . ونقش الى أحد جانبي الصليب المبطـل مكان الضرب بالعربية .

* النقـود العـربية الاسـلامية في العهـد الاموى :

ربما تساءل المرء لماذا مرّت النقود التي استعملها العرب والتي ضربوها بمراحل تطورية لمدة طويلة : ما داموا هم الذين سكوها ، فلماذا لم يعربوها مباشرة ؟

الجواب على ذلك هو أن للنقود حرمة قائمة على العرف والتقليد والاعتياد على استعمالها والوثوق بها ، فليس من السهل أن تبدل النقود الجديدة بالقديمة دون أن تحصل قناعة واعتياد على استعمالها ، هذا التطور الطبيعي المقبول يلاحظ في جميع مظاهر نشوء فروع الحضارة العربية الاسلامية ، والمسكوكات أخص هذه الفروع في هذا التطور.

تجد في المراجع القديمة نتفا عن بحث النقود العربية الاسلامية وتعريبها ، ذكرها البلاذرى والطبرى وابن الاثير وابن خلدون والمقريزى . . ولا بد لنا من أن نراجع كتب الخراج والاموال التي

وضعها القاضي ابو يوسف وقدامة بن جعفر وابن سلام .

ولنستكمل معلوماتنا يجدر بنا أن نطلع أيضا على كتب القوانين ونظام السك ومعرفة المعادن للماوردي والخرجي وابن مماتي وابن بعرة وعلي بن يوسف الحكيم ومصطفى الذهبي الشافعي والبيروني ، وان كثيرا من المعلومات الهامة نجدها في كتب الادب ، كما نجدها في الوثائق القديمة كاوراق البردى وسجلات المحاكم الشرعية في كل بلد من العالم الاسلامي .

اذا اطلعنا على هذه المعلومات المثبتة بمراجعنا القديمة ، واقبلنا على دراسة كتب النقود الاختصاصية التي وضعها المستشرقون وعلماء المسكوكات الاجانب والعرب ، استطعنا أن نفهم الاسباب التي أدت الى أن تكون مدة التطوّر طويلة وبالرغم مما حدث من التأني في حركة التطور ، فان النقود الامويّة العربية الخالصة لاقت معارضة من الفقهاء ، وسميت مكروهة لانها تحمل آيات قرآنية ، لا يجوز للجنب والحائض أن يمسوها .

وقبل أن أصف النقود الاموية ، لا بد لي من ان أشير الى أهمية تعريب النقود والدواوين والطراز في استكمال أسس الدولة العربية الاسلامية ، وتخليص مظاهر الحضارة العربية الاسلامية من رواسب الماضي ، كل أمة حية تأخذ وتعطي ، ولا ضير في أن تستكمل جميع أسباب الحياة والقوة الادارية والسياسية والمالية والاقتصادية والعسكرية .. وفي سنّة التطور الجريء والسليم في أمة قادرة . انها اذا وصلت الى مرحلة النضوج ان تتحرر من رواسب الماضي وهذا ما فعلته الامة العربية الاسلامية .

ان النقود العربية الاسلامية اصبحت خالية تماما من اى اثر قديم ما خلا التقيد ببعض الاعراف المالية كالوزن وعيار المعدن ، ومع ذلك فان عبد الملك بن مروان عندما سك الدينار العربي الذى لا زال متاثرا بالنمط البيزنطي (لانه يحمل صورته) جعل وزنه مثل وزن السوليدوس البيزنطي ٤٫٥غ ، ولكن عندما عرب الدينار التعريب النهائي جعل وزنه ٤٫٢٥غ من اجل معادلته مع عدد الدراهم الذى يساويه ، وكان في الاصل عشرة دراهم ، وذلك حرصا على التوازن من أجل دفع أموال الزكاة .

لكن بالرغم من هذا الحرص فان سعر الفضة انخفض في العالم فاصبح عدد الدراهم المساوى للدينار ١٤ ، ثم طرأ تخفيض آخر في العصور التالية .

اليكم الان وصف الدينار الاموى :

	الظهر	الوجه
ماثورة الوسط:	الله احد الله	لا اله الا
	الصمد لم يلد	الله وحده
	ولم يولد	لا شريك له
ماثورة المدار:	بسم الله ضرب هذا	محمد رسول الله
	الدينر ــ سنة ...	أرسله بالهدى
		ودين الحق ليظهره ــ
		على الدين كله .

يحيط بالمدار في كل من الوجه والظهر طوق (١٢) دائرى مؤلف من حبيبات متلاصقة حتى لتبدو وكأنها خط دائرى .

قطر الدينار يتراوح بين ١٩ و ٢٢ مم ووزن الدينار حوالي ٤٫٢٥ غ .

* نصف الدينـــار الامـوى : (١٤)

بسم الله	لا اله ا
الرحمن	لا الله
الرحيم	وحده
ضرب هذا النصف سنة	محمد رسول الله
	ارسله بالهدى ودين
	الحق .

القطر حوالي ١٥ مم ، الوزن الحالي ٢ غ .

* ثلـث الدينـار الامـوى (١٤) :

بسم الله	لا اله ا
الرحمن	لا الله
الرحيم	
ضرب هذا الثلث سنة	محمد رسول الله
	ارسله بالهدى ودين
	الحق .

القطر حوالي ١٣ مم ، الوزن ١،٠٤غ .

يلاحظ أن مكان الضرب لم يذكر على الدينار وأجزائه ، وهذا يعني أن الدينار ضربت بدمشق . ولكن مع ذلك ظهر مكان الضرب على دنانير افريقية والاندلس ومعدن أمير المؤمنين بالحجاز .

* الدنانير الاموية المضروبة في افريقيا :

الدنانير المضروبة في افريقيا والاندلس مرت بمراحل تطورية شبيهة بما حصل في المشرق ، الا أن أقدم دينار عربي صرف ضرب بافريقية كان من سنة ١٠٠ هـ . هذا الدينار كان في حوزة المرحوم حسن حسني عبد الوهاب بتونس (١٥) ولم يعرف مصيره حتى الان . اما الدينار المضروب سنة ١٠١ هوسنة ١٠٢هـ فهما نادران في العالم (١٦) وكذلك الدينار المضروب سنة ١٠٣ هـ (١٧) .

هذه الدنانير المضروبة في السنوات ١٠٠-١٠٣ هـ تتميز عن الدنانير المضروبة في المشرق بمأثورة الوسط في الظهر فهي كما جاءت على نصف الدينار بسم الله ـ الرحمن ـ الرحيم (ثلاثة اسطر) .

تظهر نقود نادرة بعد هذه التواريخ ضربت سنة ١٠٥هـ(١٨) و١٠٨هـ (١٩) و١١٠هـ(٢٠) ، منذ سنة ١٠٨ هـ ضربت الدنانير حسب النمط المشرقي .

أما الدنانير المضروبة في الاندلس فهي أيضا نادرة جدا ، نشر منها ووكر الدنانير المؤرخة سنة ١٠٢هـ و١٠٣هـ و١٠٤هـ و١٠٦هـ (٢١)ضربت حسب النمط المغربي .

الدينار المضروب في معدن أمير المؤمنين مؤرخ من سنة ٩١هـ (٢٢) هذه الكلمة(المعدن) تعني المنجم ، وتعني دار السك ، ومن غريب المصادفة أن تكون هذه الكلمة العربية مطابقة للمصطلح الانكليزى Mint ومن المعتقد أن هذا المعدن بالحجاز .

الدينار المضروب في معدن أمير المؤمنين بالحجاز مؤرخ من سنة ١٠٥هـ(٢٣) .

* الـدرهم الامـــوى :

الظهر	الوجه
الله أحد الله	لا اله الا
الصمد لم يلد و	الله وحده
لم يولد ولم يكن	لاشريك له
له كفوا أحد	

محمد رسول الله أرسله بالهدى ... بسم الله ضرب المشركون (السورة ٩ ،الاية ٣٣) هذا الدرهم ب.. في سنة

القطر حوالي ٨ ٢ مم ، الوزن حوالي ٢،٩٠غ .

١) كان أقدم تاريخ ظهر على الدرهم الاموى سنة ٧٩هـ وقد ظهر على درهم وحيد خال من مكان الصرب (٢٤) ولكن ظهر درهم أموى ضرب بأرمينية سنة ٧٨هـ اقتناه المتحف العراقي (٢٥) .

في متحف الاوسمة بباريس Cabinet des Medialles de Paris

درهم ضرب بالبصرة سنة ٤٠ هـ (٢٦) أى انه من عهد علي بن أبي طالب – ر – يشك العلماء ان التاريخ قد كتب صحيحا ، ويعتقدون أن النقاش كان يريد أن يكتب ٩٤ (٢٧) ، فكتبها مدموجة (أربعين) ، أنا لست مقتنعا بهذا التفسير . من يدرى ؟ لعل الخليفة الرابع فكر بتعريب الدراهم ، ووضع هذه المأثورات العربية القرآنية في ذلك الوقت المبكر ، ثم أتى معاوية ، فطمس هذا الابداع .

الاسباب التي تدعو الباحث الى جواز ضرب هذا الدرهم سنة أربعين يمكن تلخيصها فيما يلي :

أ – مظهر الدرهم وخطة ترتيبه يختلف عن الدراهم المضروبة في البصرة في التاريخ المقترح ، ويحسّ الفاحص أن الدرهم أقدم وأقل اتقانا .

ب – مكان الضرب (البصرة) وهو مكان نفوذ الخليفة الرابع .

ج – القصة التي أوردها البيهقي (٢٨) ، وابن الاثير (٢٩) بروايتين متشابهتين بعض الشيء .

هذه القصة تدور حول الخلاف الذى حصل بين عبد الملك بن مروان والامبراطور البيزنطي بسبب تعريب الطراز وقد هدد الامبراطور بأن يكتب على النقود ما يهين رسول الله – جزع عبد الملك من هذا ، وطلب المشورة من أصحاب الراى ، فأشار عليه روح بن زنباع ان يحضر محمد بن علي بن الحسين ليستشيره في هذا الموضوع ، فدعاه عبد الملك وطرح امامه المشكلة ، فأجاب محمد بن على ابن الحسين مشيرا ان يسك عبدالملك نقودا عربية خالصة يذكر عليها شيئا من آى الذكر الحكيم ويذكر مكان الضرب والسنة التي ضرب فيها النقد .

يبدو في جواب محمد بن علي بن الحسين على البداهة ،وهو يتضمن ما ذكر على النقود العربية الخالصة ، وما يدعونا الى الظن ان محمد بن علي مطلع على النقود التي ضربها جدّه سابقا .

اذا ثبت ان حصل هذا الحدث العظيم في عهد علي بن ابي طالب (ر) فانا لااستغرب ان يلغي معاوية بن ابي سفيان هذا الحدث الذى وقع في سنة ٤٠ هـ (اى قبيل وصوله الى الخلافة) . هذا وقد رأينا ان معاوية وضع اسمه بالفهلوية على الدراهم المضروبة حسب النمط الكسروى سنة ٤١هـ (٣٠)

٢ – يلاحظ ان الدرهم الاموى يتضمن مكان الضرب (المعدن) ٣١ ،وفي هذا فائدة عظيمة ، لاننا نستطيع ان نتعرف على مدى اتساع الدولة العربية الاسلامية في كل عصر من العصور . ويمكن بناء على ذلك رسم خريطة تمثل حدود الدولة الاسلامية عبر العصور .

٣ – يلاحظ ان كلمة (في) قبل ذكر السنة ظهرت على نقود دمشق في سنة ٧٩ هـ وبعض شهور سنة ٨٠ هـ ، ثم زالت في سنة ٨٠ هـ (٣٢) ، ولكن تأخر زوالها عن الدراهم المضروبة في الملحقات في اوقات مختلفة .

الفلوس الاموية :

. هناك تنوع كبير في الفلوس الاموية العربية الخالصة ، كما هو الامر في تنوع الفلوس العربية البيزنطية .. يمكن ان نجمل هذه الانواع فيما يلي

١ ـ الفلوس المغفلة : وهي تحوى فقط عبارات دينية :

محمد	لااله
رسول	الاالله
الله	وحده

٢ ـ الفلوس المصورة المغفلة : تبدو في وسط الظهر صور خيال او حصان او فيل او زهرة .. وحول الصورة محمد ـ رسول ـ الله .

٣ ـ الفلوس المؤرخة : وهي تحمل تاريخ الضرب

٤ ـ الفلوس التي تحمل مكان الضرب .

٥ ـ الفلوس المؤرخة والحاوية لمكان الضرب .

٦ ـ الفلوس المؤرخة والحاوية لمكان الضرب والتي تحمل اسم امير المؤمنين او اسم الوالي او اسم الامير والوالي معا .. هذه الفلوس من الناحية الاثرية والتاريخية تعتبر في نظرنا اهم من الدراهم والدنانير لكثرة المعلومات الواردة عنها .

النقود العباسية :

لم تختلف النقود العباسية عن النقود الاموية في الدور الاول من حيث الوزن والقياس والمأثورات ولكن حذفت سورة الصمد ووضع عوضا عنها محمد ـ رسول الله (كل كلمة في سطر) . اضيفت تحت مأثورة الوسط على الدينار العباسي اسم شخص مثل علي ، داود ، جعفر .. هذا الاسم يخص المشرف على ضرب النقد او الوزير او الوالي ..

زيدت مأثورة الوسط على ظهر الدرهم العباسي منذ عهد ابي جعفر المنصور فقد ذكر اسم ولي العهد واستمر هذا التقليد .

يلاحظ كلمة (الله) في اعلى الكتابة الوسطى على ظهر الدينار والدرهم ، هذه الكلمة تعني ان هذه النقود ضربت من اجل تأدية الزكات . احيانا نرى ـ كلمة (للخليفة) وخاصة في عهد هارون الرشيد هذه الكلمة تعني ان النقود سكت من اجل دفع الخراج او لتسوية الروابط المالية بين الاقاليم ومركز الخلافة .

لقد طرأ على النقود العباسية في ادوار الضعف كثير من التبديل والزيادات واخصها وجود اسم المتنفذ الى جانب اسم الخليفة ، ويذكر احيانا اسم ولي العهد .

وفي آخر عهد الخلافة العباسية اى في القرن السابع الهجرى انفصلت اكثر الاقاليم ، وترك للخليفة العراق الاوسط اى بغداد وما حولها فضربت دنانير عباسية صرفة كبيرة الحجم ثقيلة الوزن جميلة المظهر . اما الدراهم فقد صدر منها ما هو اقل وزنا من الدراهم المعتادة وضرب منها اجزاء .

النقود الاموية بالاندلس :

لم تختلف في بادىء الامر عن النقود الاموية الشامية الاصلية ، ولكن اخذت المأثورات تزيد فيما بعد بذكر اسم الخليفة ولقبه ، ثم بدأ يظهر اسم المتنفذ الى جانب اسم الخليفة . اما نقود ملوك الطوائف في الاندلس فقد اختلفت اختلافا كبيرا بمأثوراتها الطويلة وبوزنها وحجمها ، وظهر منها انواع عديدة جدا .

نقود الدولة الادريسية في المغرب :

لقد فرّ ادريس بن عبد الله من آل علي من سطوة العباسيين بعد ان فشل بحركته ، ولجأ الى المغرب واستطاع ان ينشىء دولة مستقلة ، وضرب فيها الدراهم حسب النمط العباسي تقريبا ، ولكن باسماء الامراء الادارسة .

نقود الدولة الفاطمية :

نجحت الدعوة الاسماعيلية الفاطمية في المغرب ، وانتصر الفاطميون على دولة بني الاغلب المرتبطة بالدولة العباسية ، واستولوا على شماليّ افريقية وصقلية وبعض جزر البحر المتوسط . ثم استطاعوا فتح مصر سنة ٣٥٨هـ ومدّوا نفوذهم الى بلاد الشام والحجاز .

النقود الفاطمية في اول ظهورها في افريقية لم تكن تختلف كثيرا عن النقود العباسية الا بذكر اسم الخليفة وتمجيده وذكر الشعار "علي وليّ العهد" بالاضافة الى " محمد رسول الله " ثم زادت المأثورات واختلف تصميم شكل النقود ، فقد وضعت المأثورات المدارية المتعددة ضمن حزوز فاصلة مثل" وعلى افضل الوصيين ووزير خير المرسلين " ..

* * * *

هذه الدولة التي قامت في الاندلس وشماليّ افريقية منفصلة عن الدولة العباسية (٣٣) ومناوئة لها (٣٤) .. ولما دبّ الضعف في الدولة العباسية وتقلص نفوذ الخليفة بسبب سيطرة الاعاجم على مقاليد الحكم اخذ المتنفذون في الاقاليم يستقلون استقلالا ذاتيا ، لكنهم ظلوا موالين للخلافة الى ان سقطت الدولة بسبب هجوم المغول واستيلائهم على بغداد مدينة السلام .

لكل من هذه الدول الاسلامية الموالية نقود ، ذكر الحاكم فيها اسمه بعد اسم الخليفة العباسي . ولكن شذّ بعض الحكام عن هذا الامر فلم يذكروا اسم الخليفة (٣٥) كأمراء بني الاغلب في افريقية وأول الامراء الصفاريين .

من الدول التي ظلت على ولائها للخلافة الدولة الطاهرية في خراسان والدولة السامانية فيما وراء النهر ، ثم الدولة الغزنوية في افغانستان ، وقد مدت نفوذها شمالا وشرقا وتوغلت في الهند . وهناك دويلات صغيرة اصدرت نقودا مثل بني بانيجور وبني حسنوية وبني كاكوية .

وعندما سيطر بنو بوية على الدولة ظهرت اسماؤهم مع اسم الخليفة على النقود وفيها كثير من التمجيد لانفسهم وكذلك فعل بنو سلجوق في دولهم القائمة في العراق وايران والشام والاناضول .

اما الملوك الذين ظلوا على ولائهم للخليفة واحترامهم له فهم اتابكة الموصل والشام ، واشهرهم الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي ، والملوك الايوبيون وأولهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب ، وقد تجزأت الدولة الايوبية بعد وفاة صلاح الدين فأصبحت عدة ممالك : مصر دمشق ، حماة ، حلب ، اليمن ..

دالت دولة بني العباس بعد غزو المغول واستطاع المماليك في مصر والشام ان يصدوهم وما ان استقر الامر الى الملك الظاهر بيبرس وعلم ان اميرا عباسيا قد نجا من مذبحة المغول حتى سارع الى استدعائه ،وبعد التحقق من نسبه اقامه خليفة على المسلمين. وكان هذا الامير ابو القاسم احمد ابن الخليفة الظاهر ، ولقبه الامام المستنصر بالله امير المؤمنين وذكر اسمه والقابه كاملة على النقود .

من السهل ان ندرك لماذا قام بيبرس بهذا التدبير ؟ - نعلم ان بيبرس (٣٦) قتل سلفه قطز ، وحل محله ، فاراد ان يجعل حكمه شرعيا مستقرا ثابتا ، وكان يطمع ان يمد نفوذ دولته الى سائر الاقاليم ، وفعلا استولى على الحجاز ، فكان مركزه السياسي عاليا في العالم الاسلامي .

ظل الخلفاء العباسيون في مصر يتوارثون الخلافة حتى آخر العهد المملوكي ، ولكن لم يكن لهم من الامر شيء الا في فترة واحدة حين اختلف الزعماء المماليك على الحكم سنة ٨١٥هـ ، فكان لابد من آمر يدبر البلاد ، فكان الخليفة المستعين بالله ابو الفضل عباس (٣٧) .

اخيرا عندما سقطت دولة المماليك امام المد العثماني ، يقال ان الخليفة العباسي الاخير في مصر قد تنازل عن الخلافة الى السلطان سليم الاول لكنا لانجد ان السلاطين العثمانيين ذكروا لقب الخليفة او امير المؤمنين على نقودهم حتى آخر عهدهم وانما اكتفوا بذكر لقب يعتزون به "خادم الحرمين الشريفين" .

* * * * *

هذه لمحة سريعة عن نقود الدولة العباسية وما انفصل عنها من دول - وما تبعها من دول ، فماذا عن الغزاة الذين احتلوا ارض الاسلام من الشرق والغرب ؟ وماذا كانت مسكوكاتهم ؟

الصليبيون الذين عاشوا في بلاد الشام اكثر من مئتي سنة ، كان لابد لهم من نقود ، فقد قلدوا النقود الفاطمية والنقود الايوبية تقليدا اعمى لاتقرا كتابتها الا بصعوبة ، وضربوا دنانيرهم من ذهب عيار متدنّ كثيرا ثم ضربوا لانفسهم نقودا صليبية تحمل معتقدهم باللغة العربية .

اليكم مثالا مضروبا حسب النمط الفاطمي : المأثورتان المداريتان بين الحرور ، وفي الوسط ضمن دائرة صغيرة (الاه واحد) على الوجه ، والصليب على الظهر .

الظهر	الوجه
١- نفتخر بصليب ربنا يسوع المسيح الذى به سلامتنا وتحيتنا (٣٧)	١ - ضرب بعكاسة الف ومايتين احد وخمسين للتجسد
٢- وقيامتنا وبه تخلصنا وعفينا	٢ - الاب والابن والروح القدس
في المركز ✚	في المركز الاه واحد

اما المغول الذين استولوا على تركستان ثم ايران منذ مفتتح القرن السابع الهجرى ، وقبل سقوط بغداد فقد ضربوا نقودا ، بعضها يحمل المأثورات الاسلامية بالرغم من انهم لم يدخلوا الاسلام بعد .

اما الاسر الايلخانية التي استقرت بعد الفتح في العراق وايران ، وكان اول ملوكها هولاكو ايلخان المعظم (٦٥٤-٦٦٣هـ) فقد ضربت نقودا ذات مأثورات اسلامية باللغة العربية بالرغم من انهم لم يسلموا ايضا ، اكثر هذه النقود تحمل مأثورات مغولية بالكتابة الاغورية على الظهر .

ارغون (٦٨٣-٦٩٠هـ) قبل الدين المسيحي ، وضرب نقودا تحمل الشعارات المسيحية : بسم الاب - والابن وروح - القدس اله - واحد+ ، ثم عاد فضربها بشعارات اسلامية : ولو انه لم يثبت انه دخل في الاسلام .

اما محمود غازان اول سلطان ابلخاني مسلم حكم بين (٦٩٤-٧٠٣هـ) ، وظلت النقود الابلخانية الجميلة المتقنة تصدر بوفرة حتى نهاية عهد هذه الاسرة في سنة (٧٤٤هـ - ١٣٤٤ م) تحمل شعارات اسلامية احيانا شيعية واحيانا سنية .

في السند والهند قامت دولة اسلامية بعد الدولتين الغزنوية والغورية ، انها دولة سلاطين دهلي وحكام بنغالة وغيرهم .. واخيرا سيطر اباطرة المغول في القرن العاشر الهجرى ، واستمروا حتى القرن الثالث عشر الهجرى ، وضربوا النقود الاسلامية .

* * * *

في شماليّ افريقية قامت دول بعد اهتمام الدولة الفاطمية في مصر والمشرق : اهمها دولة بني زيدى ودولة بني حمّاد ، ثم دولة المرابطين ، ثم دولة الموحدين ، ثم الدولة الحفصية ودولة بني مرين والدولة السعدية ..

* * * *

النقود العربية الاسلامية المضروبة في اليمن (٣٨)

النقود العباسية :

لانعرف حتى الان اى نقد ضرب في اليمن في العهد الاموى ، ويعتبر اقدم نقد عرف حتى الان ضرب في اليمن هو الفلس العباسي المضروب سنة ١٥٧ هـ في عهد ابي جعفر المنصور يحمل اسم وليّ عهده المهدى هذا وصفه :

محمد رسول الله	لااله الا
المهدى محمد	الله وحده
ابن امير المؤمنين	لاشريك له
محمد رسول الله ارسله .	ضرب هذا الفلس باليمن سنة
	سبع وخمسين ومئة .

هذا الفلس محفوظ في متحف الاوسمة (٣٩) بباريس

يعرف في المتاحف العالمية عدة فلوس عباسية ضربت في السنتين ١٠٧و١٠٨ هـ

* * * *

اما الدراهم العباسية المضروبة في اليمن فهي اكثر من الفلوس . اقدم درهم عباسي انشره هنا لاول مرة وهو نصف درهم مضروب في صنعاء سنة ١٦٩ هـ ، وهو محفوظ في متحف قطر الوطني (٤٠) اليكم وصفه

الظهر	الوجه
العباسي	لااله الا
محمد	الله وحده
رسول	لاشريك له
الله	
بن محمد	

(القطر ١٩مم ، الوزن ٣٣ر١غ)

يلي هذا الدرهم النصف نصف درهم عباسي مضروب سنة ١٧٢ هـ في صنعاء ثم درهم مضروب بصنعاء سنة ١٧٣ هـ يحمل اسم هرون (الرشيد) والغطريف (بن عطاء الكندى) الذى حكم اليمن (١٧٠ - ١٧٣ هـ) .

تلا ذلك انصاف الدراهم العباسية المضروبة في صنعاء في السنتين ١٧٦ هـ (متحف قطر الوطني) ١٨٥ ، ١٨٦ (في بيشة = متحف قطر الوطني) صنعاء ، ١٩٣ (٤١) ، ١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ (هذه الاخيرة ارباع دراهم) .

اما الدنانير العباسية المضروبة في صنعاء ، فان اقدمها سك في عهد المعتصم بالله (٢١٨ – ٢٢٧) ضرب سنة ٢٢١ هـ ، وهي دنانير سوية ووزنها حوالي ٤ غ ، ولكن اخذ ينقص وزنها بعد المعتصم حتى وصل الى وزن النصف دينار اليكم احصاء بها :
٢٢١ . ٢٢٣ . ٢٢٤ . ٢٢٨ . ٢٣٢ . ٢٣٧ . ٢٣٨
٢٣٣ . ٢٤٩ . ٢٥٢ . ٢٥٦ . ٢٥٩ . ٢٦٥ . ٢٦٧
٢٧٣ . ٢٧٥ . ٢٧٧ . ٢٧٩ . ٢٨٠ . ٢٨٢ . ٢٨٣
٢٨٥ . ٢٨٧ . ٢٨٩ . ٢٩٠ . ٢٩٢ . (متحف قطر)
٢٩٥ . ٢٩٨ . ٢٩٩ . ٣٠٤ . ٣٠٦ . ٣٠٧ . ٣١٠
٣١١ . ٣١٣ . ٣١٥ . ٣٢٠ . ٣٢١ . ٣٢٣ . ٣٢٥
٣٣٥ . ٣٤٠ . ٣٤٣ . ٣٤٤ . هـ

اما الدنانير العباسية المضروبة في بيش فهي مؤرخة :
٣٣١ . ٣٣٦ . ٣٣٨ . ٣٤٠ . ٣٤٣ . هـ .

والدنانير العباسية المضروبة في بيشة اثنان معروفان حتى الان :
٣٣٩ . ٣٤٠ هـ .

والدنانير العباسية المضروبة في ذمار والمعروف منها اثنان حتى الان :
٣٣٧ . (او ٣٣٩) و٣٣٩ هـ .

والدنانير العباسية المضروبة في عدن المعروف منها تسعة دنانير :
٣٣٧ . ٣٣٨ . ٣٤٠ . ٣٤٢ . ٣٤٣ . ٣٤٥ . ٣٤٧ . ٣٤٩ هـ .

والدنانير العباسية المضروبة في عثر فهي :
٣٤٢ . ٣٤٤ . ٣٤٦ . ٣٤٨ هـ . واخيرا عرف الدينار المحفوظ في متحف قطر الوطني ٤٥٢ هـ باسم المطيع لله وهو وحيد .

* * * *

سنعرض فيما يلي احصاء للدنانير العباسية التي حملت اسماء الحكام الموالين للعباسيين الذين شكلوا اسرا حكمت في مدينة او اكثر وهي :

١ – اسرة مجهولة لم يحقق فيها بعد ، اول حاكم فيها ظهر اسمه على النقود المضروبة بعدن هو ابو علي محمد بن القاسم مع اسم الخليفة المطيع لله اليكم بدنانيره احصاء :
٣٤٦ . ٣٤٧ . ٣٤٩ . ٣٥١ . ٣٥٣ . ٣٥٥ . ٣٥٧ . ٣٥٩ .

٢ – اسرة ابن زياد : وهي منحدرة من اسرة عبيد الله بن زياد الاموى فقد بقي لهذه الاسرة شأن : وقد سمح لها المأمون ان تحكم زبيد في اليمن . اهم امير زيادى هو اسحق بن ابراهيم الذى ظهر اسمه على الدنانير العباسية الزيادية المضروبة في زبيد . اليكم بها احصاء :
٣٤١ . ٣٤٢ . ٣٤٦ . ٣٤٧ . ٣٤٨ . ٣٤٩ . ٣٥٠ . ٣٥٢ . ٣٥٧ . ٣٥٩ . ٣٦٢ . هـ .

٣ – من الاسرة الصليحية : الاسرة الصليحية والت الاسماعيليين – كما سنرى – كما والت الفاطميين صراحة ، ولكن نرى من خلال الدنانير الصليحية اثنين باسم الامير المظفر بن علي الذى والى الخليفة العباسي القادر بالله ، وهما محفوظان في متحف قطر الوطني .

صنعاء ؟ ٤٣٥ هـ الخليفة القائم بامر الله ، المظفر بن علي .

جند (٨) ٤٣ هـ الخليفة القائم بامر الله ، المظفر بن علي .

ويوجد دينار ثالث محفوظ في متحف الاوسمة بباريس (٤٣) اعتبرته طليحيا زياديا ، ذلك لانه يحمل اسم المؤيد نجاح الذى كان عبدا للزياديين واستطاع ان يحكم في جند وزبيد فترة من الزمن ، كما يوجد دينار رابع محفوظ في المتحف البريطاني (٤٤) مضروب بزبيد اليكم وصفهما المختصر :

جند ٤٣٧ هـ (او ٤٣٩) الخليفة القائم بامر الله علي بن المظفر والمؤيد نجاح نصر الدين :

زبيد ٤٤(٤) هـ (٤٤) الخليفة القائم بامر الله على بن المظفر والمؤيد نجاح نصر الدين :

* * * *

نقود الائمة الزيديين في اليمن من بني الرسّ:

١ – دينار الهادى الى الحق امير المؤمنين بن رسول الله ضرب بصنعاء سنة ٢٩٣ هـ .

٢ – دينار الهادى الى الحق .. ضرب بصعدة سنة ٢٩٨ هـ .

٣ – دينار الداعي الى الحق امير المؤمنين يوسف بن رسول الله ضرب بصنعاء سنة ٣٧٠ هـ. هذاالدينار وحيد في العالم وهو محفوظ في متحف قطر الوطني .

نقود الصليحيين الموالين للفاطميين :

١ – دينار الداعي علي بن محمد وهو اسماعيلي ، لكنه لم يذكر اسم الخليفة الفاطمي ، ضرب بصنعاء سنة (٣٣) ٤ هـ ، يحمل الماثورة الفاطمية "على وليّ الله " هذا الدينار وحيد محفوظ في متحف قطر الوطني .

٢ – دينار الداعي علي بن محمد ضرب بزبيد سنة ٤٤٢ هـ لم يذكر اسم الخليفة الفاطمي ، لكنه اشار الى موالاته بقول "سيف المعدّ " والمعدّ هذا هو المستنصر بالله . دينار وحيد في مجموعة M . Gautier

٣ – دينار طيحي فاطمي ضرب بزبيد سنة ٤٤٥ نصفه لاهميته :

	المستنصر	**الامام معد**
الوسط	**بالله أمير المؤ منين**	**أبو تميم**
المدار	**١– محمد رسول الله أرسله .. كله**	**١– ضرب هذا الدينار بزبيد سنة خمس وأربعين وأربعمائة.**
	٢– أمر به الامير المظفر في الدين نظام المؤمنين	**٢–لا اله الا الله محمد رسول الله عليّ ولي الله.**

يوجد دنانير صليحية فاطمية لعلي بن محمد والمستنصر بالله متنوعة من حيث مضمون الماثورات وترتيبها . اليكم تواريخها وهي مضروبة بزبيد : ٤٤٥ . ٤٤٧ . ٤٥١ هـ .

اما الدنانير المضروبة في عدن فهي تحمل الى جانب اسم المستنصر بالله اسم " الملك السيد المكرم عظيم العرب سلطان امير المؤمنين " اقدم دينار معروف للمكرم مضروب سنة ٤٨٦ هـ. اما الدينار الثاني المعروف فهو مؤرخ عن سنة ٤٩٢ هـ ويحمل ايضا اسم المستنصر بالله الفاطمي بالرغم من ان المستنصر توفي سنة ٤٨٧ هـ. واستمر اصدار الدنانير الصليحية الفاطمية باسم المستنصر حتى غاية سنة ٥٠٨ هـ . ثم ظهر اسم الخليفة الفاطمي الامر بأحكام الله حتى غاية ٤٢٦ هـ . مع ان الامر

توفي سنة ٤٢٥ هـ . اليكم بيان السنوات التي ظهرت على النقود الصليحية الفاطمية :
٤٨٦ . ٤٩٢ . ٤٩٤ . ٤٩٥ . ٤٩٧ . ٥٠٤ . ٥٠٧
٥١٠ . ٥١٣ . ٥١٦ . ٥٢٢ . ٥٢٣ . ٥٢٥ . ٥٢٦هـ

اما النقد الصليحي الاخير والوحيد المعروف حتى الان فهو ربع دينار مضروب باسم المكرّم فقط (دون ذكر اسم الخليفة الفاطمي) بذى جبلة سنة ٥٣٠ هـ .

٤ـ نقود الزريعيين الفاطميين الموالين للصليحيين :

هذه النقود ضربت بعدن ، وكان الزريعيون تابعين للصليحين ، وظل اسم الملك المكرم يذكر على هذه النقود . وظل الزريعيون موالين للفاطميين حتى ان الحاكم الزريعي محمد (بن سبا) الذى ظهر اسمه على اقدم دينار زريعي معروف اعطى نفسه لقب "المتوج" تاكيدا لسلطانه ، كما ذكر لقب آخر منحه اياه الخليفة الفاطمي وهو " داعي امير المؤمنين " .

اليكم احصاء بهذه النقود التي ظلت تحمل اسم الخليفة الفاطمي "الامر باحكام الله " حتى سنة ٥٥٠ هـ مع ان الامر توفى سنة ٥٢٥ هـ :٩٨(٤) هذا التاريخ مشكوك به كتب على هذا الشكل خطا ، فقد ورد "ثمان وتسعين " ، من الطبيعي انه لايصح ان يكون سنة ٥٩٨ هـ كذلك نرى ان ـ ٤٩٨ هـ غير مناسبة لذا نقدّر جازمين ان التاريخ ٤٩(٥)هـ (٤٥) التواريخ الصحيحة : ٥٤١ ـ ٥٤٣ ـ ٥٤٦ ـ ٥٥٠ هـ .

خلف محمد بن سبا ابنه عمران بن محمد ، نعرف له دينارا واحدا ضرب بعدن سنة ٥٥٦ هـ وهو خال من اسم الخليفة الفاطمي ، لكن الموالاة لهم تبدو بمأثورة "علي ولي الله " لقد فخم عمران نفسه كثيرا ، فذكر لقبا عظيما منحه لنفسه " اوحد ملوك الزمن ملك العرب واليمن .. " .

هناك اسر حاكمة كثيرة حكمت مدينة او اكثر في اليمن ، لكن لانعرف لها حتى الان نقودا مثل بني يعفر (٢٤٧ ـ ٣٨٧ هـ) وبني نجاح (٤١٢ ـ ٥٥١) ذكرنا اسم المؤيد نجاح مع علي بن المظفر الصليحي على دينارين مؤرخين ٤٣٧ (او٤٣٩) و٤٤(٤) هـ .

بنو مهدى الخوارج حكموا زبيد (٥٥٣ـ٥٦٩ هـ) الهمدانيون حكموا صنعاء (٤٩٢ـ٥٦٩ هـ) وغيرهم

* نقود بني رسول في اليمن (٦٢٦ـ ٨٥٤ هـ)

جدّ هذه الاسرة محمد بن هارون كان في خدمة توران شاه مؤسس الدولة الايوبية في اليمن . ظل هذا الرجل مواليا ومخلصا للايوبيين في اليمن ، وكذا فعل بنوه وأحفاده .

اما كلمة رسول فقد اقترنت بمحمد بن هارون لان الخليفة العباسي كان قد كلفه القيام بعدة مهمات الى سورية ومصر فأصبحت له لقبا .

كان شمس الدين علي بن محمد بن هارون تقيا ، فعينه الملك المسعود آخر الملوك الايوبيين في اليمن واليا على مكة سنة ٦١٩ هـ ، وعيّن أولاد عليّ ولاة في عدة مدن يمنية . فلما توفي الملك المسعود سنة ٦٢٦ هـ ، أعلن احد أولاد علي وهو المنصور نور الدين عمر بن عليّ الاستقلال عن الدولة الايوبية واعتبر مؤسسا لدولة بني رسول .

تعاقب على الحكم ثلاثة عشر ملكا ، ضرب سبعة منهم نقودا نحاسية وفضية ذكروا اسم الخليفة العباسي ، ضربوا هذه النقود في زبيد وعدن والمهجم وثبات وتعز .

:::::::::::

أخيرا خلف بني رسول بنو طاهر وحكم بعدهم المماليك الشراكسة ثم الولاة العثمانيون ثم أئمة صنعاء منذ سنة ١٠٠٨ هـ تقريبا ، وهم ينحدرون من الائمة الزيديين الذين حكموا اليمن قديما ، ولما دالت دولتهم اعتصموا بالجبال ، وعندما عجز الولاة العثمانيون عن ضبط اليمن ظهر القاسم المنصور بالله فجمع حوله زعماء القبائل ، وملأ في بادىء الامر العثمانيين ، وعقد معهم اتفاقا سنة ١٠٢٨ هـ ، ثم ما لبث الولاة العثمانيون يجدون الصعوبات حتى حوصر آخرهم فانصوه باشا في القلعة واضطر الى الخروج من اليمن دون رجعة . ضرب بعض هؤلاء الائمة النقود .

:::::::::::

عرضت في هذا البحث المسكوكات العربية الاسلامية ، وأبنت بقدر ما تسمح لي طبيعة البحث تطوّر هذه النقود عبر العصور ، وأحببت أن أعطي احصاء سريعا لمسكوكات اليمن التي ضربتها عدة أسر حاكمة ، ليكون محركا للباحثين في اليمن أن يعنوا بجمع تراثهم والعناية به ، وخاصة فان النقود مظهر هام من مظاهر الحضارة ، وهي وثائق ثابتة تنير كثيرا من جوانب تاريخ البلد الغامضة ، وتصحح بعض المعلومات التاريخية وتكمل النواقص وتملاء الثغرات ، ولا بد من أن تظهر نقود أخرى تضيف الى معلوماتنا الشيء الكثير .

لقد رأينا أن العرب المسلمين استعملوا في بادىء الامر نقود الدول المجاورة ثم طوروها ثم عربوا النقود نهائيا ورأينا أن الخلفاء الامويين بعد العمل البناء العظيم الذى قام به عبد الملك لم يذكروا أسماءهم على الدنانير والدراهم بل ذكروا التاريخ الهجرى ، وأضافوا اسم المدينة على الدراهم . أليس لهذا مدلول هام في الحضارة العربية الاسلامية ؟ ألا يعني أن هذا المال هو مال الله والشعب لا مال الخليفة ؟ . أخذ الخلفاء العباسيون في الدور الثاني والملوك السلاطين يذكرون أسماءهم بكثير من التفخيم . وهذا يعني استعلاء ، وهو تشويه للمبادىء الشرعية ، الامر الذى ينذر بتدهور الحضارة العربية الاسلامية .

نجد على النقود العربية الاسلامية معلومات كثيرة تاريخية وجغرافية عرفنا بالاضافة الى أسماء الحكام في العالم الاسلامي أسماء الثوار وشعاراتهم وشعارات الفرق الدينية ومبادئهم وشارات السلاطين وخاصة المماليك في مصر والشام .

كان للنقود العربية الاسلامية رواج عظيم في العالم ، ولا أدل على ذلك من الكنوز الكثيرة التي وجدت في كثير من أنحاء أوروبا الشرقية والشمالية ، فهي تدل على مدى اتساع التجارة الاسلامية وحرص الشعوب الاوروبية على الاحتفاظ بهذه النقود الثمينة والجميلة .

الهوامش

(١) لا تزال اسماء وحدات النقود حاليا مستقاة من الوحدة القديمة مثل الروبية الهندية وغيرها.

(٢) يوجد في آسيا الصغرى معدن فيه نسبة من الفضة يدعى (البكتروم)، وهو أصفر فاتح، يختلف عياره من منجم الى آخر.

(٣) من الممالك اليونية في آسيا الصغرى.

(٤) لا بد من مراجعة كتب النقود العربية الاسلامية ومقدماتها للاستزادة، اليكم اهمها:

Lavoix, H.; Catalogue des monnaies musulmanes,Paris , Vol.I,I887 .

Lane - Poole,S. ; Catalogue of Oriental Coins in the British Museum, Vol. I,I875.

Walker J.; A Catalogue of the Muhammadan Coins in the British Museum, Vol.I (I94I)+ and Vol.II (I956).

عبد الرحمن فهمي محمد: موسوعة النقود العربية وعلم النميات (فجر السكة العربية) القاهرة.

ناصر السيد محمود النقشبندى: الدينار الاسلامي في المتحف العراقي ـ بغداد ١٩٥٣.

محمد ابو الفرج العش: ١ ـ نشأة السكة العربية الاسلامية (قافلة الزيت في الظهران)

المقال الاول في المجلد الخامس عشر، العدد ١٠ (شوال ١٣٨٧ = يناير ١٩٦٨)

المقال الثاني في المجلد السادس عشر، العدد ١٠ (شوال ١٣٨٨ = ديسمبر ١٩٦٩)

٢ ـ النقود العربية الاسلامية مصدر وثائقي للتاريخ والفن (مؤتمر بلاد الشام في عمان ١٩٧٤).

(٥) انظر كتابي: كنز ام حجرة الفضي، دمشق ١٩٧٦، وكتابي:

Al-' Ush; Sliver Hoard of Damascus , I972, P.I60 , No I.

Walker,J.; Catalogue of Muhammadan Coins,Vol.I, (ARAB - SASANIAN)

Ibid , P.6, No II.

(٧) المرجع السابق.

(٨) هذا التاريخ نادر وجد على درهم وحيد مضروب في سجستان نشرته في كتابي المشار اليه في الحاشية (٥).

(٩) سنرى الصورة نفسها على الدينار العربي المضروب حسب النمط البيزنطي وهو مؤرخ من سنة ٧٤ هـ نشرت درهما عربيا من النمط الساساني وهو مؤرخ من سنة ٧٤ هـ في مجلة الحوليات الاثرية العربية السورية ج ٢١ (سنة ١٩٧٢) .

Al-'Ush;Traces du Classicisme dans la Numismatique Arabe-Islamique , p.304, fig.II.

ونشر ووكر الدرهم العربي من النمط نفسه وهو مؤرخ من سنة ٧٥ هـ . Walker,I., p.25,fig.2.

(١٠) يحسن مراجعة بحثي الذى اشرت اليه في الحاشية (٩) الصور (٢—١٩) .

(١١) هذا الدينار لا يزال وحيدا في العالم ، وهو محفوظ في متحف كراتشي ، نشره :

Miles, G.C; The Earliest Arab Gold Coinage (MN.I3/I967,p.2I2,No I4)

(١٢) اعتمادا على النص الذى ذكره المقريزى في " شذور العقود في ذكر النقود" ، نشر ماير سنة ١٩٣٣ ، ص ٤ . وهو : " وضرب معاوية ايضا دنانير عليها تمثاله متقلدا سيفا .." في الواقع لم نجد حتى الان دينارا لمعاوية ، ولكن لا يمنع هذا ان يكون معاوية سك فلوسا على الغرار نفسه .

(١٣) يلاحظ القارئ اني استعمل مصطلحات في وصف النقود لا يستعملها سواى وقد توصلت لذلك بعد دراسة ، وهي :

المأثورة : تقابل كلمة Legend الانقليزية او Legende الافرنسية .

الطوق : وهو الدائرة التي تحيط بالماثورات خارجا .

الحرز : هو الدائرة التي تفصل بين الماثورات داخليا .

(١٤) لا تزال انصاف واثلاث الدنانير الاموية نادرة ، وقد نشرت النادر منها في دراسات على شرف الاستاذ الدكتور جورج مايلز (الجامعة الامريكية ببيروت سنة ١٩٧٤) .

Al'Ush, M.A.; Rare Islamic Coins; Additions,p.I99, Nos.9 and II et I2.

(١٥) اشار اليه ووكر Walker; op.cit., Vol.II,p.XLVII

(١٦) لقد نشرتهما في البحث الذى اشرت اليه في الحاشية (١٤) تحت الرقمين ١٠ او ١٣.

(١٧) نشر ووكر الدينارين المضروبين في افريقية في السنتين ١٠٢ و ١٠٣ هـ.

Walker;op.cit.,Vol.II,p.99: Nos. and p.53.

(١٨) من مجموعة الاستاذ سمير شمة في جدة .

(١٩) من مجموعة خاصة ببيروت .

(٢٠) متحف دمشق الوطني .

(٢١) Ibid .,pp .lol-lo2 ,USA lo-13 ,Mad . 3-4 and ox-2

(٢٢) نشره الدكتور مايلز ١٩٧٢

Miles : Revue Numismatique (Paris) , annee 1972)
Miles : Rarc Islamic Coins . N 66
Walker : op . cit .. p .103 ,N ANS .16a

(٢٣) نشره الدكتور مايلز أولا
وأعاد نشره ووكر

(٢٤) كان لين بول قد نشره في كتاب خاص عن مجموعة دار الكتب الخديوية . وقد أسميت فيما بعد المصرية) تحت الرقم ٦٦ . ثم نشره ووكر
Walker ,op .cit . , p .104 ,no .kh.4

(٢٥) نشرته السيدة مهاب البكري في مجلة المسكوكات العدد ٤ (١٩٧٣) ص ١٢ رقم ٢ .

(٢٦) نشره لافوا قديما
Lavoix: cit . , vol . 1 ,N 159

(٢٧)
Walker: op .cit. , Vol.11,p.LXI1
من العجب ان ووكر ناقش أمر هذا الدرهم لكنه لم يثبته في مصنفه (ج٢) لا تحت التاريخ أربعين ، ولا تحت التاريخ أربع وتسعين .

(٢٨) البيهقي : المحاسن والمساوئ (تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم) القاهرة ١٩٦١ ج ٢ ص ٢٣٢ — ٢٣٠ .

(٢٩) ابن الأثير : الكامل ....ج ٤ ص ١٦١ .

(٣٠)
Walker: op.cit. , Vol.1,pp.25-6 , Nos .35 ff...
Al - Ush : Silver Hoard of Damascus , p.248 , No.108 .

(٣١) المصطلح الامثل لمكان الضرب ودار السك فيه هو المعدن ، لكنا لا نصرّ على استعماله تجنبا للالتباس بين ما نقصده من المصطلح ونوع المعدن المستعمل في السك .

(٣٢) لم يكن الدرهم المضروب في دمشق سنة ٨٠ هـ الذى لا يحوى كلمة (في) معروفا قبل ان انشر الدرهم ذا الرقم ١٠٧ من كتابي :
Al - Ush : Silver Hoard of Damascus , p.170,Nos .14-16

(٣٣) للاستزادة من المعلومات المتعلقة بالدول الاسلامية المنفصلة والدول التي ظلت موالية للخلافة العباسية يمكن مراجعة :

زمباور : معجم الانساب والاسر الحاكمة (مترجم الى العربية) .

لين بول : الدول الاسلامية (مترجم الى العربية) .

(٣٤) من الدول المنفصلة المناوئة الدولة الزيدية العلوية في اليمن ثم طبرستان الواقعة في شمال ايران ، وهي مدينة جبلية حصينة تطل على بحر الخزر وأهلها من الديلم لم يدخل الاسلام الى هذه المنطقة الا في عهد هارون الرشيد على مقياس ضيق ، وقد ضربت فيها نقود عباسية ساسانية ، ولكن انتشر الاسلام انتشارا واسعا على يد الحسن بن زيد وأخيه محمد .

(٣٥) ذكر اسم المأمون فقط ، وكان وليا للعهد ، على دراهم مؤسس الدولة الاغلبية فقط وهو ابراهيم ابن الاغلب . ــ المرجع الشامل لنقود الاغالبة وضعته بالانكليزية وسينشر قريبا ان شاء الله .

(٣٦) يحسن مراجعة نقود السلاطين المماليك في مصر والشام في المرجع
Balog. , P.: The Coinage of the Mamluk Sultans of Egypt and Syria ,New York ,1964.

(٣٧) Ibid , pp.296-8.

٣٧ ب) ربما كانت هذه الكلمة (حياتنا) .

(٣٨) سأعطي فيما يلي احصاء سريعا بالنقود العربية الاسلامية المضروبة في اليمن بمناسبة انعقاد مؤتمر الاثار سنة ١٩٨٠ في هذا البلد الذى أسهم في الحضارات القديمة والاسلامية .

(٣٩) نشر النقود المضروبة في اليمن الاستاذ رمزى بخعازى ، وقد استطاع ان يدرس كثيرا من النقود غير المنشورة المودعة في المتاحف والمجموعات الكبرى .

Coins of Al-yaman(I32-569A.H)(AL-ABHATH,Beirut,I970,p.17,No.2).

وقد استفاد كثيرا من جميع المصنفات والبحوث المنشورة سابقا وخاصة البحوث الاسلامية

Lowick,N.M; Some Unpulished Dinars of the Sululayhids and the Zuray ids , (N.C. , 1964)

Shamma S: A Hoard or Fourth Century Dinars from Yemen ,(ANS;M.N.18,1971)

Idem:Ishaq b. Ibrahim's Reign in Yemen in the Light of Numismatic Evidence

(٤٠) في متحف قطر الوطني مجموعة كبيرة من النقود العربية الاسلامية ، من ضمنها عدد جيد من النقود المضروبة في اليمن ، اكثرها غير معروف وغير منشور ، سأنشر هذه المجموعة في كتاب خاص ـ اذا يسر الله .

(٤١) وهو نصف درهم غير منشور محفوظ في متحف قطر الوطني ، يحمل اسم الوالي حماد (البربرى) الذى حكم بين ١٨٤ ـ ١٩٦ هـ .

(٤٣) كنت نشرت هذا الدينار الوحيد في العالم

Al-'Ush ,M.A. : Rare Islamic Coins: Additions (Studies in Honour of George C .Miles , American University of Beirut ,1974,p.198 ,No7).

(٤٤) نشره قديما Lane-Poole:Unedited Coins III (Jras,N.S.IX/1877/p.51

(٤٥) لقد صحح لويك هذا التاريخ أيضا في بحث :

Lowick : Some Unpublwshed Dinars of the Sulahids and Zuray'Ids ,(NC ,1964)

Bates:Notes on Somc Isma'ili Coins from Yemen, (ANS,MN.18,1972)

(٤٦) Artuk ,I.and C:Islamic Sikkeler Katalogu ,vol.1 , N° 192

(٤٧) Ibid.,No .793.

اليمن من التفكّك السّياسي

إلى ثورة سبتمبر

عبدالرحمن الحضرمي - زبيد -

الحديث عن الشعوب ذات الحضارة العريقة خصب جدا تبرز تراثها العوامل التاريخية وعصورها المختلفة في عالم التاريخ . والاجيال ذات الفكر الحضارى المتطور تجعلها تؤمن بقضايا بلادها على أساس علمي خالد مسايرة الحياة المتجددة بعلم وفهم وجهود بناءة امتدادا لتلك الحضارة التليدة التي أثبتت جدارة الانسان منذ نشأته في الحياة بعقل وحكمة على هذه الارض وما أودع الله بها من كنوز سيّرها العلم في خدمة الانسان .

واليمن من أعرق الشعوب حضارة حيث وجد فيها الانسان اليمني صانع الحياة والابداع بفكرة الباحث وانسانيته الخيّرة التي صنعت الحضارة في دنيا التاريخ الذى جسده الحق عزّ وجل في كتابه العزيز في أكثر من آيات بينات أعطتنا الاصالة الانسانية المبدعة في دنيا الحياة .

والمؤرخون على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم ولغاتهم وصفوا لنا اليمن السعيد بما اتسم به في عهود حياته الغابرة وتعمقوا في البحث عن تسميته باليمن .

فالبعض من يثبت أن اليمن سمّي باسم ايمن بن يعرب بن قحطان . والبعض يقول سمّي اليمن ليمنه عن الكعبة .

ويقول النصوص لسبأ القديمة يمنات . ويمنت معناه الخير والبركة . كما ترجمه الرومانيون الى "أرابيا فيلكس" أى العربية الخيّرة ، أو العربية السعيدة دلالة على غنى هذه البلاد وحضارتها .

وسماها الرومان بالسعيدة ، وبلاد الخضراء . وعرفت في التورات بالعربية الغنية والبلاد المقدسة

كما ذكرها الفراعنة ، أو بلاد القصور كما سماها الاخباريّون ، أو بلاد الطيب كما سماها سترابون .

وتعرف أيضا لدى اليونان بالعربية السعيدة ، وهذه التسمية مطلقة لشبه الجزيرة العربية لما كانت تتمتع به من ازدهار وحضارة ابان أوج الحضارة العربية في شبه الجزيرة العربية .

وأثبت لنا التاريخ ما مرّ به اليمن في مراحله التاريخية حيث ازدهرت فيه الحضارة اليمنية في مراحل تاريخه لثلاث دول يمنية قبل الاسلام بلغت ذروتها في الحياة الانسانية علما وفنا واقتصادا وحكما اداريا شوريا نابعا من صميم الشعب اليمني . اثبت لنا القرآن الكريم على لسان ملكة سبأ بقوله لقومها **"يا أيها الملاء افتوني في أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون"** .

من هذا المنطلق التاريخي في الشورى يعطينا صورة واضحة المعالم عن اصالة الراى في المشورة والحكم الديموقراطي السليم للدولة اليمنية التي نهجت بحكمها الجمهورى الذى لم تطبقه اليونان في تجربتها .

فكان الحكم الشورى اليمني مثلا أعلى للانسانية حين أبرزه القرآن الكريم في الحكم الذى تبناه حكام اليمن . وان كان جاء على لسان امرأة يمنية كانت صانعة الحضارة والادارة اليمنية التي اثبتت الجدارة في الحكم . والامتداد التاريخي لمن سبقها في حكم الشعب الذى لا يقهر بحكم الفرد مهما تعاقبت عليه العصور . ومن بحكام تختلف نزعاتهم الفردية في فترات زمنية معينة يصعب عليها الاستمرار بأوضاع تغاير نفسيته ومنهجه في ادارة شؤونه .

اذ أنّ الحكم الذى توصّل اليه اليمن في عهد هذه الملكة لا لأنها امرأة ليست لها الجدارة في الحكم بوضعها هذا المنهج العلمي ، ولكن لقابلية الشعب ووجود العناصر الخيّرة التي لا تؤمن بالنزعات الفردية والاستبداد جعل من هذا الشعب أن يكون ذا علم بشؤون الحياة ادارة وسياسة واقتصادا .

فالشعوب مهما عرفت قيمتها وشعرت بمسؤليتها لا يهمها نوعية الحكم وتسلم زمام مقاليده مثل ما يهمها كيف تسوس دفة الحكم وتسيّر عجلة الحياة وتبني وطنها على أسس علمية وعقول منفتحة قابلة لتطور الحياة وتجددها لبناء الفكر الحضارى بعيدا عن النزوات الفردية والذاتية .

لقد شهد اليمن القديم ثلاث دول يمنية اتسمت كل دولة بطابع حضارى في منهج الحياة ودستورها وقوانينها . .

فالدولة المعينية : اتسمت بالنشاط التجارى والاقتصادى في تصدير منتجاتها الاقتصادية كالبخور

والمر واللبان والصمغ .. وغيرها من سلع ثمينة نادرة جعلتها الدولة الوحيدة التي سيطرت بنفوذها السياسي الى منافذ البحر الابيض المتوسط وشواطئ الخليج . والبحر العربي جنوبا . وأعالي الحجاز شمالا .

وذلك نتيجة ما توصلت اليه من حضارة اقتصادية وتجارية مكنتها من التحكم بطرق المواصلات التجاريه في شبه الجزيرة العربية وشواطئها .

أما الدولة السبأية : فقد أثبتت لنا جدارة الشعب اليمني في الابداع الفكري والتطور الحضاري في ناحيتين أساسيتين :

الاولى ـ الحكم الديمقراطي وما توصلت اليه من غايات أساسية في جدارة لادارة شؤون الدولة في أي اطار سواء كان مركزيا أو لامركزيا . دلل على ذلك انّ الفكر اليمني لا يؤمن بالسلطة الفردية رغم تشعب المقاطعات والمحافد والقبائل والاقيال وما نجم من حروب ، الا انّ أسس الحكم كانت ديمقراطية لا تقرّ الانفراد بالسلطة وتشعّب الاراء بايجاد مجالس ادارية مركزية ولامركزية يجمعها مجلس شعبي يضم كل المحافد والاقيال والقبائل يسيّر شؤون الدولة في اطار برلمان عام .

الثانية ـ من هذا المنطلق تمكن الشعب اليمني من بناء حياته الزراعية والاقتصادية والسياسية على أسس علمية وفنية ببناء السدود والقنوات والحواجز المائية والخزانات ونحت التماثيل وبناء القصور الفخمة والنشاط الزراعي الذي أحال اليمن الى جنة خضراء . وأعظم شاهد لهذا التراث العلمي سدّ مارب الشهير وسدود أخرى بلغت ثمانين سدا لحفظ المياه عند غزارة الامطار ليظل الري مستمرا ومصداق ذلك قوله تعالى :

"لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور" .

وقال الشاعر :

وفي اليمن الخضراء من ارض يحصب
ثمانون سدا تقذف الماء سائلا

كما نبغوا في علوم وفنون الزراعة وكيفية المحافظة على التربة واصول التسميد ومكافحة الافات الزراعية والعناية بها وما وصل اليه علم الزراعة من التلقيح وحفظ قواعد الزراعة وراثية .

وهذا يدلنا على ان اليمنيين لم يكونوا هواة حكم وانما كانوا بناة حياة علمية ونشاط زراعي وعمراني وتجاري لبناء حياة اجيالهم .

كما اتصف اليمنيون بعلم الفلك واستخدامه في الفصول الزراعية وغيره . والطب البدائي في استخدام الحشائش لمعالجة الامراض والتحام الجروح والتجبيم . والصناعة التي اثبتت لنا جدارة اليمنيين في استخراج الحديد والنحاس والذهب والفضة والفولاذ وصنعه في شتى المجالات ومنها صناعة التماثيل والسيوف والخناجر وغير ذلك .

واشتهر اليمني بالفن المعماري الرائع وضخامة القصور والتباهي بها مجسدا في قصر غمدان الشهير الذي كان ارتفاعه مئتي ذراع انشئ بالقرن الاول قبل الميلاد . وقال شاعر الحجاز عمر بن ابي ربيعة عند وفد علي سيف بن ذي يزن بعد انتصاره على الاحباش .

لايأخذ الثأر الا مثل ذي يزن
في البحر خيم للاحباش احوالا
فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفعا
في قصر غمدان دارامنك محلالا

فالدولة الحميرية : وهذه الدولة تعتبر الدولة التي وجدت في عهد حضاري شامخ غير ان الاحداث اليمنية وما صاحبها من نحروء فيي جعلها تدخل في غمرة الاحداث السياسية والاتكال والاهمال وكفران النعمة .وكان نتيجة ذلك خراب سد مأرب وتمزق الشعب اليمني بعد الحادث في شتى انحاء شبه الجزيرة العربية واصبحت الحضارة اليمنية اثرا بعد عين مصداقا لقوله تعالى :

((فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتان ذواتي اكل خمط واثل وشيء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي الا الكفور))

والاحداث اليمنية متشعبة المسالك ولسنا في حاجة الى الخوض فيها .غير ان ماضي اليمن قبل الاسلام كان مشتملا على عراقة المجد واصالة الشعب اليمني وذكائه الخارق ونشاطه الدؤوب وقدرته الفائقة في خلق الابداع . والى جانب ذلك كانت له اهتماماته بحياته الدينية والمحافظة على عقيدته وهذا دلنا في الصراع الديني الذي احدثه ذونواس عندما اراد ادخال الدين اليهودي بدلا عن المسيحية الامر الذي جعل حماة الكنيسة الحبشيين الى احتلال اليمن اربع مرات باسم الدفاع عن الدين المسيحي واستنجاد الملك سيف بن ذي يزن بالفرس لطرد الاحباش وما تم له من نصر حتى قتل ودخل اليمن في مراحله الاخيرة في اطار الحكم الفارسي :

غير ان هذا الصراع كان حافزا له على ان يبعث فيه روح الرجولة اليمنية المعهودة والتسابق الى الافضل والاحسن واستعداده لتحمل المسؤولية . فكان اول من بعث وفوده الى الرسول عليه الصلاة والسلام لتلبية الدعوة الاسلامية . وحمل اليمنيون على عاتقهم نشر الاسلام بشمال افريقيا . وجنوب غربي اوربا – بالاندلس ..

اليمن بعد الاسلام :

مر على الشعب اليمني قرنان كاملان في العهد الاسلامي في اطار الدولة الاسلامية الكبرى يحكمه عمال كانوا يرسلون من قبل الخلفاء الراشدين فالخلافة الاموية والعباسية . غير انه لم يستقر نفسيا ولم يطمئن الى الحكم المركزي الذي جعله يشعر انه غير جدير بحكم بلاده وطنيا . وكان الامر طبيعيا في المدن او بالاصح في عواصم المخاليف التي يستقر فيها العمال . اما الحالة السياسية في الشعب اليمني حيث الكتل البشرية في الريف فكانت تحكم عرفيا عن طريق رؤسائها رغم انتشار الاسلام . لان الحياة الاجتماعية لم تمحي تمسكها بتقاليدها واعرافها القبلية .

وفي هذين القرنين لم نجد تاريخا اضافيا يوضح لنا معالم الحياة السياسية باليمن . والحقيقة ان اليمن لم يكن مرتبطا ارتباطا مركزيا بعاصمة الخلافة الاموية او العباسية رغم الولاة المنتدبين من العواصم دلنا على ذلك قيام الثورات القبلية . ويثبت لنا التاريخ تعدد الثورات وتفاقمها في عهد المأمون بن هارون الرشيد . فكانت ثورة القيل الهيصم بن عبد الرحمن ضد يوسف بن عمر الثقفي عامل الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١١٠ ودعوة طالب الحق بحضر موت في عهد مروان بن محمد وثورة الاشاعرة وعك بوادي زبيد ورمع [illegible] ٢٠٣ للهجرة [illegible] المأمون محمد عبد الله بن زياد الى اليمن وأمره ان يختط له مدينة بوادي والزبيد

فكانت فرصة لليمنيين بنجاح الثورة .وكان فرصة لابن زياد في بناء الدولة التي كانت مستقلة ذاتيا

واسس دولته بزبيد سنة ٢٠٤ هـ ومن ثم وجد اليمنيون ان الكيان اليمني لابد ان يبرز في مجال الدولة اليمنية فبدأت القبائل تشعر بذاتها وتطمع الى السلطة السياسية فاسس يعفر بن عبد الرحمن بن يعفر الحوالي امارته بصنعاء سنة ٢٢٩هـ واتخذ سياسة المرونة لابن زياد، واظهار الولاء للعباسيين والعلويين على السواء .

وتدخل اليمن في معترك الصراع السياسي والروحي وتجد الارض الخصبة للزعامة الشيعة الامامية الاسماعيلية ودعاتها بانتداب المنصور ابن حوشب وعلى بن الفضل لنشر الدعوة سنة٢٦٤. وتجد الدعوة الامامية الزيدية الفرصة بزعامة الامام يحيى بن الحسين الرسي سنة ٢٨٠ موءسس المذهب الزيدى بصعدة واتخذها قاعدة لدعوته .

من هذا المنطق التاريخي اتيح لليمنيين بروز ذاتيتهم في شخصيات الزعامة القبلية والدعوات الامامية الزيدية والامامية الاثنى عشرية الشيعية والدويلات المجزأة المحب في الدولة النجاحية التي جاءت بديلا للدولة الزيادية بزبيد ، والدولة الصليحية بزعامة علي محمد الصليحي الشيعي مذهبا كانت بديلا لليعفريين والزعامة القبلية . والدولة الزريعية بعدن جاءت بديلا للدولة الصليحية . والدولة الحاتمية بصنعاء كانت خلف للدولة الصليحية . والدولة المهدية بزبيد بزعامة علي بن مهدى جاءت خلف للدولة النجاحية الى سنة ٥٦٩ هـ .

شهدت اليمن بعد هذا التجزوء والصراع السياسي ثلاث دول ثابتة اخذت زمنا كبيرا في الحكم تجسدت في الدولة الايوبية التي جاءت نتيجة لطموحات سياسية لصلاح الدين الايوبي وخلافات سياسية باليمن . فالدولة الرسولية بزعامة عمر بن علي بن رسول التي جاءت خلفا للدولة الايوبية وانهيار السلطة الايوبية بالقاهرة . فالدولة الطاهرية بزعامة الملك المجاهد علي بن معوض بن طاهر شيخ رداع . غير ان الاخرى شهدت صراعا سياسيا داخليا بـ الامام شرف الدين وثورات قبلية واسرية اثرت عليها اقتصاديا واداريا ، وفي الوقت نفسه كانت الكشوفات البرتغالية البحرية عن طريق رأس الرجاء الصالح تهز اركان الدولة المهيمنة باليمن وقانصوه الغورى بمصر الامر الذى جعل من (غورى) مصر ارسال جنوده على طول ساحل البحر الاحمر لصد النفوذ الاوربي الذى عطل الحركة التجارية بمصر لتحويله البرتغاليين الطريق الى رأس الرجاء الصالح فاتخذ من الخلاف السياسي باليمن ومساندة الامام شرف الدين وقبائل تهامة وامير الخلاف السليماني عز الدين بن احمد دريب سبيلا لانهاء الدولة الطاهرية سنة ٩٢٢ ودخل اليمن في حكم الجراكسه المصريين بعد مقاومة عنيفة قام بها الملك عامر عبد الوهاب بن طاهر واخوه عبد الملك استشهدا في خلالها واظهرا كل بطولة وبسالة وفداء . .

وكانت تركيا ترقب الاحداث وخطر تحول التجارة الاوربية الى رأس الرجاء الصالح يهدد مصالحها فامدت قانصوه الغورى بالعتاد الحربي وبالتالي احتلت مصر نفسها ومن ثم انطلق هذا الحكم الى اليمن سنة ٩٤٥ هـ .

في هذه المرحلة استطاع الامام شرف الدين ان يقضي على الدولة الطاهرية عن طريق المساعدة للغزو الخارجي ودخل هو في صراع مع الجراكسة اولا فالاتراك اللذين اتخذا زبيد عاصمة لهما ولم يعد باليمن دويلات وسلطنات سوى الحكم التركي

والدعوة الامامية الزيدية التي تحاول تحويلها الى دولة سمية . **فالتف الشعب اليمني حول الامام شرف الدين وابنه المطهر وخلفائهما من الائمة لحرب الاتراك الى سنة ١٠٤٥هـ تسلم الامام المتوكل على الله اسماعيل بن محمد القاسم اليمن خلف الاتراك الذين فضلوا ترك اليمن ان يحكم نفسه بنفسه بعد حروب مريرة وصفت بها اليمن انه مسبك كلما جاء جيش الا وذاب فيه ذوبان السكر .**

هذا عرض سريع من القرن الاول الهجرى الى القرن الحادى عشر الهجرى . وهنا نود ان نضع ايضاحا مقتضبا عن هذه المراحل التي شهدتها اليمن . **هل كان اليمن مشتغلا بالتجزوء السياسي ، ؟ ام انه شهد تطورا في الحياة والفكر . ؟**

الحقيقة ان الصراعات السياسية والدائية القبلية والدعوات الامامية الشعبية والامامة الزيدية جعلته ممزقا ، هدفا وغاية ومبدأ ووطنية ، وعزلت الشعب عزلا اجتماعيا وثقافيا وصناعيا . غير انه دخل في مرحلتين سياسيتين كان فيهما الاستقرار الذى جعله ينفتح فكريا وسياسيا وصناعيا حيث تبنت الدولة الايوبية بناء المدارس وادخال الانظمة الادارية والجمركية والنشاط الصناعي والزراعي وان كان في اطار محدود . غير ان مرحلة الايوبيين مكنت اليمن من الانفتاح دوليا وجاءت على اثرها الدولة الرسولية التي نهجت سياسة الدولة التي خلفتها فوسعت الرقعة الزراعية ونشط الفكر واحتضنت العلماء لما اتسم به العهد الرسولي من نشاط فكرى وابداع علمي في مجال الزراعة والطب وتطور الفكر الاسلامي في الانتاج مسايرة تطور الحياة وتجددها رغم ما صاحبها في آخر عهدها من ضعف ادارى مكنت الاسر القبلية والائمة خوض معترك الصراع السياسي ونجم عن ذلك حكم الدولة الطاهرية وتطور النفوذ الروحي بالشمال والصراع المرير ادى الى الحكم التركي بالدور الاول سنة ٩٤٥ هـ .

اليمن بين الدعوة والدولة

سبق ان عرضنا ان الدعوتين الشيعية الامامية الاثنى عشرية والدعوة الزيدية بدرتا باليمن فى النصف الاخير للقرن الثالث الهجرى وتنافستا على الزعامة باليمن غير ان الزعامة الشيعية اصيبت بالاضمحلال لانها كانت تستمد زعامتها من الدولة الفاطمية بمصر .

اما الدعوة الزيدية فقد كانت مرنة ومعتدلة سايرت الاوضاع باليمن سياسيا وقبليا الى ان اتيح القضاء على الدول السياسية بمساعدات خارجية تحملت مسؤولية صراع الغزو الخارجي فتجسدت فعالية الدعوة في شخصية الامام شرف الدين وابنه المطهر بالتفاف القبائل اليمنية ضد الاتراك الذين دام حكمهم قرنا كاملا في اليمن اضعفت قواهم المعنوية والسياسية والاقتصادية ودخل اليمن في حكم اسرة الامام القاسم باول امام استقل باليمن الامام المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم بن محمد عرفت بالدولة القاسمية . غير أن هذه الاسرة عمدت سياسيا الى نشر التفرقة وعزل الشعب ومحاربة الفكر وتجدده حيث برز رجال الفكر لمحاربة التفرق والظلم وتأله الائمة على الشعب وظل الصراع في اطار الائمة على السلطة وتقسيم اليمن الى مقاطعات مجزأة للامام المتوكل اسماعيل وابنائه واخوته . ومن ثم تحركت الاقلام مجسدة الواقع الامامي الاليم بعد الحكم التركي . وتجرأ الشعب في حكم الائمة مستندين على فتوى الامام المتوكل على الله اسماعيل في اخذ اموال الشعب دون ان يشعر . فقال العلامة الحسين بن عبد القادر الكوكباني المعاصر

للامام المنصور حسين .

قالوا امامهم اسماعيل عالمهم

افتاهم بمقال فيه برهان

يقول ان جنود الترك كافرة

دانت لهم من جميع القطر بلدان

وبعدهم قد ملكناها بقوتنا

صارت الينا حلالا بعد ما بانوا

وكل شخص من الزراع عاملنا

على الذى بيديه اينما كانوا

ابليس سول هذا والنفوس دعت

اليه رغبتها فيها لها شان

هذى الخيالات لاتجدى ليوم غد

اذا مضى بين اهل الارض ديان

الاسلام

وهذا شيخ الاسلام العلامة محمد بن اسماعيل الامير المناضل موضحا لنا ما اتسم به الائمة من اعمال والقاب وتجسيدها للشعب كشرف الدين . ونور الدين . وشمس الدين . والمتوكل على الله والمنصور بالله وغير ذلك من الالقاب البراقة ، والحال ان الاعمال تعاكس الالقاب . وحملة الاقلام والعلماء كانت عليهم تبعات ايضاح ذلك وكشف واقعهم المعاش لتنوير العامة فقال :

يسمى بنور الله وهو ظلامة

وهذا بشمس الدين وهو له خسف

وذا شرف الدين يدعوه قومه

وقد ناله من جوره كلهم عسف

رويدك يا مسكين سوف ترى غدا

اذا نصب الميزان وانتشر الصحف

بماذا تسمى هل سعيد فحبذا

او اسم شقي بئس ذا ذلك الوصف

وله من قصيدة مطولة مطلعها :

سماعا عباد الله اهل البصائر

بقول له ينفي منام النواظر

فيا عصبة من هاشم قاسمية

الى كم ترون الجور احدى المفاخر

واشنع خطب ما يقول خطيبكم

من الكذب المنشور فوق المنابر

منابر كانت للمواعظ والهدى

فما بالها عادت لسخرة ساخر

لعبتم بأوقاف المساجد كلها

فيا بئس مأمور ويا خزى آمر

ففى أنس كم هجرة قد تعطلت

مساجدها ما بين تال وذاكر

وكم في زبيد هدمت من مصالح

وأغلق فيها مسجد للاشاعر

* *

ويا علماء الدين ما لي أراكم

تغاضيتم عن منكرات الاوامر

أما الامر بالمعروف والنهي فرضكم

فأعرضتم عن ذاك اعراض هاجر

فان هم عصوكم فاهجروهم وهاجروا

تنالوا بنصر الدين أجر المهاجر

: : : : : : : : : : :

هذه صورة حية جسدتها الدولة القاسمية التي قسمت اليمن الى مقاطعات خراجية أدت الى صراعات دموية عنيفة بين الائمة أنفسهم بالوراثة وانتشار المظالم واغتنام أموال بيت المال والاوقاف حتى ازدادت الجراح في الشعب اليمني . بالاضافة الى أساليب التضليل على العامة واستغلالهم وقودا فى الحروب فى تجروء الشعب . وهذا الشاعر أحمد بن حسن الرقيحي مجسدا صراع أخوين من الائمة على الزعامة الروحية سالت الدماء أنها موريا بالمعنى فقال :

اخوان قد سقيا بماء واحد

والفضل خال من كلا الاخوين

جرحا قلوب العالمين فما لها
من مرهم الا دم الاخـــوين

والى ان قال :

اتيتم بأصناف الضلالات كلها
وجئتم بأنواع الامـور المناكر
ملاتم بلاد الله جورا وجئتـم
بما سودت منه وجوه الدفاتـر
ووليتم امر العباد شـراركم
وخولتم اعمالكم كـل ماكـر
نواجيه صيرتم الارض كلهـا
وضمنتم العمـال شر المعاشـر
لذاك الرعايا في البلاد تفرقـت
وفارقت الاوطان خوف العساكر
وقد رضيت بالعشر من مالـهالـها
وتسعة اعشار تصير لعاشــر
فلم تقنعوا حتى اخذتم جميع ما
حوته وماقد احرزته من ذخائـر
اذا سئلت عن جوركم وفعالكـم
اجابت علينا بالدموع البوادر

* * * *

وهكذا دخل اليمن في صراع الحروب ومرارة الحكم بعد أن كان يحلم أن يعيش في وطنه حرا كريما سئم هذا الحكم وأصبح متعطشا لاى حكم يكون خلفا ليستقر في حقله وتجارته ومسجده ، الامر الذى جعل عودة الاتراك ممهدا بالاضافة الى أسر أخرى كانت متناحرة على السلطة بالخلاف السليماني استدعت الاتراك وفتحت لهم العودة لحكم اليمن مرة ثانية.

* عاد الاتراك لحكم اليمن مرة ثانية غير أن هذه المرحلة كانت تختلف سياسيا لانفتاحهم عالميا وتأثرهم بمبادىء النهضة الاوروبية الحديثة وطموحاتهم في مدّ امبراطوريتهم الكبرى فنهجوا سياسة التتريك للوطن العربي في فرض تعليم اللغة التركية في المدارس والمصالح والمعاملات الرسمية.

وبالاضافة الى ما نسب اليهم من انحراف ديني وخلقي الامر الذى جعل الائمة مرة أخرى يأخذون بهذا الوتر الحساس لاذكاء مشاعر اليمنيين رغم أن بعض الولاة كانوا يسايرون الاوضاع اليمنية وعاداتهم وتقاليد اليمن وندواتهم الاجتماعية .

غير أن هذه المرحلة كان حظهم فيها سيئا باندلاع الحربين العالمية الاولى والثانية وتورطهم فيها . ومن جانب ثان يقظة القومية العربية في العالم العربي .

وتعمق ما نسب اليهم من انحراف عن التعاليم الاسلامية ما أصاب اليمن من جفاف ومجاعة وأمراض واستمر اندلاع الحرب الذى كان خلفها الامام المنصور محمد حميد الدين فابنه الامام يحيى بن محمد حميد الدين الذى بويع له سنة ١٣٢٢ هـ على أثر الجهاد الذى خاضه رجالات الشعب اليمني أملا في بناء اليمن الحديث وانفتاحه للعالم على أساس من العدل والمساواة وبناء الحياة الحرة الكريمة دينا ودنيا وانقاذ اليمن مما توصل اليه من فقر ومرض وجهل ومجاعة وتدهور اقتصادى .

غير أن الامام يحيى عمد بعد انتصاراته التي حققها في خلال حروبه على عاتق الشعب وتسلم قيادة البلاد الى الاسلوب الانتهازى واظهر التمسك

بمبادىء الدين الحنيف مظهرا والعادات اليمنية محافظة عليها. وانصرف كليا عن البناء والعمل في

سبيل تأسيس اليمن الحديث الذى هو المبدأ الاساسي للثورة . فلقد انتظر الشعب بديلا حسنا يجدد الحياة ويغيّر أنظمة الحكم العتيق الذى جاء به الحكم التركي ، ولكنه سار على سياسته المرسومة وترك وراءه رجال الثورة الذين وقفوا بجانبه على أساس الشورى والعدل والحياة المتطورة وتخلص منهم سجنا وقتلا ومضايقة واصبح الحكم فرديا سياسته التضليل والخرافات ، والجهل والظلم ، والفقر.

واعطانا الحكم المتوكلي للامام يحيى صورة حية في اقصاء العناصر الوطنية أى بما تسمى بالتصفية لاستقرار الاوضاع علنا وسرا بسياسة الغدر في قتل رجال الثورة والفكر بجواسيسه فقتل من جراء ذلك مشايخ وعلماء اليمن منهم شيخ غمدان ، وشيخ بني مطر ، وشيخ بني الحارث . ومن العلماء القاضي العلامة أحمد صبره ، والعلامة محمد حسين صبره ، والعلامة المفتي جغمان بحجة أنهم دعاة الاتراك وانصارهم .

كما شهدت هذه المرحلة مآسي مريرة في القتل والارهاب والخداع والمكر ومنها ماساة ابو دنيا واولاده السبعة . لقد كان أبو دنيا من رجال التجارة المتنقلين في نواحي حجة رفع بهم الى الامام يحيى أنهم جواسيس للاتراك وانهم يشربون الخمر ، فامر باعتقالهم فساقوهم مكبلين بالقيود مكتوفي الايدى مغلغلين بالحديد الى قفلة عذر بحاشد حيث كان مقيما فيها . وما ان اطل عليهم من النافذة حتى قال كبيرهم :

ــ نريد أن نتراجع معك يا مولانا .

فقال رادا :

ــ تراجعوا مع عزرائيل .

وأمر باعدامهم . فحاول عبده صمصام اقناع الامام لاستماع ما عندهم مذكرا بالاية الكريمة " يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين " .. فأصر الامام على اعدامهم وكانت مواقفهم مشرّفة أمام ضربات سيف الجلاد السيد عبد الله بن أحمد ابن القاسم حميد الدين الذى تولى اعدامهم الواحد تلو الاخر وهم يشاهدون بعضهم البعض ويتساقطون على الارض بدمائهم .

وبعد اعدامهم عثر في عمامة أبي دنيا على أوراق مطوية في صالح الامام تدل على اخلاصهم وسعيهم في منفعته . وانتشر الخبر في الاوساط الشعبية ، وبلغ الامام يحيى ذلك ، وسلمت اليه الاوراق ، وندم على ما فعل مصداقا للاية الكريمة السابقة ومصداقا لنصيحة الامير صمصام . وكان لسان حاله كما قال الشاعر :

ندم البغــاة ولات ســاعة مندم
والبغي مرتع مبتغيه وخيــــم

فازداد ألم الامام وأسفه بيد أن نشوة الانتصارات دفعته لارتكاب أمثالها وأمام تحديات الشعب وقهره تأتي امرأة تشكى الى باب قصر الامام يحيى ، وتقول للحاجب :

ــ بلغ الامام بأم أبي دنيا للدخول اليه ..

.. ومن ثم بدت ملامح البشر في وجه الامام لارضائها بالدية الشرعية ، وأذن لها . وما ان دخلتْ وقفت بجانبه وكشفت وجهها كأنما تتعرف الى شيء لم تعرفه . ثم قالت :

ــ من قاتل أولادى ؟

.. فقال لها الامام :

ــ ماذا جاء بك ؟ وماذا تريدين ؟ أتريدين أن نحول لك وللابناء بالدية ؟.

.. فارتسمت على وجهها علائم الاسى والحزن

والالم الدفين ، وقالت :

– لم أجيء يا يحيى لذلك ، وانما جئت لاتحقق وجه قاتل أولادى لاعرفه معرفة تامة يوم القيامة ، ورجعت على أعقابها وانصرفت .. فلم ترض أن تقبل ثمن زوجها وأولادها . وانما جاءت لتضرب لليمنيين المثل الاعلى في التحدى والتضحية والصبر والشجاعة والفداء .

الاحـــرار

بعد أن بتر الامام يحيى رجال الثورة ومشاعلها من مشائخ وعلماء ومفكرين ومضى باليمن في سياسته الفردية وأساليبه المضللة وتأثيراته الروحية ، في الوقت نفسه بدأت الحياة تقرع نوافذ العالم العربي فأحاط اليمن بسور حديدى ، ولم يعد يفكر في بناء اليمن كما تعهد لقادة الثورة الاوائل ، فبدأت البراعم الشابة المتمثلة في شخصية هذه البذرة .. أحمد عبد الوهاب الوريث .. عبد الله محسن العزب .. العزب. حمد السيدار .. على الشماحى .. أحمد المطاع .. حسين الدعيس .. محمد المحلوى .. ووراءهم مجموعة من العلماء الصالحين تشعر بمسؤوليتها ازاء الوطن بحس وطني في خروج اليمن من عزلته الرهيبة والحكم الفردى المطلق فكانت مجموعة من العناصر الخيّرة ، وبدأت بمحاولات اتصالية في اقناع الامام عن طريق وزيره الخاص عبد الله العمرى تارة وبتنوير الفكر بالقاء الخطب في المساجد على الجماهير الامر الذى جعله يطلب منهم مشروعا لما يريدون فقدم اليه نظام لاصلاح الجهاز الادارى والاجتماعي ملتمسين مطالعته وابداء رايه ، غير أن الامام جمع العلماء لمطالعته واتخاذ قرار حول بعض فقراته علق عليها الامام قائلا انها تعارض الشريعة وتدعو الى الفوضى والاخلال بالامن وفتح الباب للاستعمار .

وكان ما يطلبه الامام واضحا لاستخراج قرار من العلماء ، الا أن القرار لم ينفذ اذ أن بعض العلماء تغيبوا عن الحضور ، أى أن عدم حضورهم يعبر عن عدم الموافقة في الادانة . ومن ثم وجد الحس الوطني طريقه في تكوين جمعية الاصلاح سنة ١٣٥٤ وجمعية الامر بالمعروف .

والامر الثاني شعر الامام بمضايقة هذه العناصر وما حوله فدبر مؤامرة أن هذه الفئة لها صلة بجهة استعمارية وأنها تحارب الدين وتريد اختصار القرآن فنزلت الى العامة لتكون تبريرا للامام في أى اجراء الامر الذى جعل الامام يحيى أن يجمع العلماء ورجال الثورة على أثر ما قرأه في مقال نشرته جريدة الرابطة اليمنية في عدن عن أوضاع اليمن ،

فقال الامام لوزيره هذه من الديمه أى من الداخل . وطلب مامور البريد "ريحان" وامره أن يقدم اليه البريد الداخلي والخارجي وفضه فعثر على رسالة دون توقيع غير أنه عرف الخط أنه لعبد الله محسن العزب ، وصاح في وجوههم :

– ماذا تريدون بعد القرآن واختصاره من ثلاثين جزءا الى ستة أجزاء ؟

وامر بسجنهم سنة ١٣٥٥ وظل سجنهم عامين ثم أفرج عنهم وفرقهم في وظائف .

غير أن أحمد عبد الوهاب الوريث فكر في بناء الفكر اليمني عن طريق تأسيس مجلة الحكمة اليمنية سنة ١٣٥٧ بكتابات هادفة معالجة لتنوير الفكر . ومن ثم تجدد نشاط الحركة الوطنية بدعوات اصلاحية من عناصر وطنية مؤمنة بالنضال فكونت بعد ذلك بوقت الجمعية اليمنية الكبرى وحزب الاحرار بعدن ١٣٦٣ (١٩٤٢م) برئاسة الاستاذ أحمد محمد نعمان والقاضي محمد محمود الزبيرى .

ويعطينا الادب صورة حية في اذكاء المشاعر والروح الوطنية بصراحة ووضوح في قصائد القاضي محمد

محمود الزبيري بأدبه الرائع وأحاسيسه الوطنية بقوله :

ناشدتك الاحساس يا أقلام
أتزلزل الدنيا ونحن نيام
قم يا يراع الى بلادك نادها
ان كان عندك للشعوب كلام
فلطالما أشعلت شعرك حولها
ومن القوافي شعلة وضرام
لما أهبت بها تطارد نومها
ضحكت عليك تحفها الاحلام
وصرخت في أسماعهم فتحركت
لكن كما تتحرك النوّام
تخشى سيوف الظلم وهي كليلة
وتقدس الاصنام وهي حطام
أتذل أمتنا لفرد واحد
لا تستقاد لمثله الانعام
نهدى له أموالنا ونفوسنا
ويرى بأنا خائنون لئام
نبني له عرشا يسود فيبتني
سجنا نهان بظله ونضام

*

ما لليمانيين في لحظاتهم
بؤس وفي كلماتهم آلام
جهل وأمراض وظلم فادح
ومجاعة ومخافة وامام
والمرء بين مكبّل في رجله
قيد وفي فمه البليغ لجام
أو خائف لم يدر كيف يصيبه
فهم أسجن الدهر أم اعدام
والمرء ينبذ من أبيه وأمه
وكأن وصلهما له اجرام

*

والجيش يحتل البلاد وما له
في غير أكواخ الضعيف مقام
يسطوا وينهب ما يشاء كأنما
هو للخليفة معول هدّام

والشعب في ظل السيوف ممزق الاوصال مضطرب الجنان مظام

وعليه اما أن يغادر أرضه
هربا والا فالحياة حرام

*

نشروا بأنحاء البلاد ودمروا
عمرانها فكأنهم ألغام
أكلوا لباب الارض واختصوا بها
وذوو الخصائص واقفون صيام
فكأنما هم أوجدوا الدنيا وفي
أيديهم تتحرك الاجرام
هب انهم خلقوا البلاد فهل لمن
خلقوه عطف عندهم وذمام ؟

وتزداد الحركة اشتعالا برجال الثورة الاوائل ومفكريها علما وأدبا وسياسة . وهذا زيد الموشكي يكشف واقع الحكم وما كان الشعب يطلبه من الحكم الامامي ، ولكنه كان عكسيا جاء بمردود سيئ على الشعب بشتى التناقضات التي تسحب نفسها في اطار الحكم الامامي مخاطبا اليمن بقوله :

أأحسنتم بالمستبدين ظنكم
وهم داؤكم لو تعلمون الذى يشفي
أقمتم اماما للتقدم في الدنى
فكان اماما للتقدم في النسف
وأخرجتموه ينظر الكون مشرقا
فرج بكم مستحسنا ظلمة السقف
وحاولتم المجد الحقيقي بنصبه
فكان ولكن في التخيل والطيف

وبايعتموه أول الامر بيعـــة
أحاطت بكم يا قوم صفا الى صف
وتاجرتموه بالنفوس ومالكـم
ولكنكم ما عدتموه بسوى الخسـف
تخيرتموه عن غفول لتهلكوا
فكنتم كشاد تطلب الحتف بالظلف
أما آن أن تبذلـوا له من ابائكم
زئيرا كأسد الغاب في منتهى الزحف
وتأتوا اليه شاهرين مقالكـم
ليقنع أو يهوى الى اليأس بالقحف

ومن ثم صمد الاحرار في نضالهم لتصعيد الحركة الوطنية من الاطار الداخلي الى الصعيد العربي حيث عمد رجال الفكر الى الاستعانة برجال الفكر العربي والاسلامي متخذين من عدن والقاهـرة الانطلاق لفضح أساليب الحكم المتوكلي .

وكانت الحركة الوطنية تؤمن بأن أسرة حميد الدين لم تكن جادة في تغيير واقع اليمن لما عرف عنها من جمود فكرى وحب للسلطة واستغلال عقلية الشعب باسم الدين والمحافظة عليه من الاستعمار وتيار العصر الحديث . فالامام أحمد محارب لاستبداده وطغيانه . والحسن غير مرغوب فيه لتحجره الفكرى ، وعبد الله لميله السياسي لامريكا .

فاجتمع الرأى على مبايعة عبد الله بن أحمد الوزير اماما خلفا للامام يحيى ، الامر الذى هز أركان الحكم بصنعاء ، فاستدعى الامام الوزير عن صحة ذلك ، فأنكر ، ومن ثم رأى رجال الحركة أن الامر اذا ظل في اطار الانتظار سوف يأكلهم الامام أكلا ، فقرروا الاسراع في تنفيذ المخطط واعلان الميثاق الوطني المقدس واختيار عناصر وطنية من مشايخ القبائل لاغتيال الامام يحيى . ودبرت الخطة اثر خروج الامام يحيى مع وزيره عبد الله بن حسين العمرى الى قرية حزيز مع أحفاده ، وتأهب قادة الجيش في الاحاطة بقصر غمدان بقيادة الضابط الوزير لما له من عطف شعبي ، وتقرر الرأى على ذلك ونشط الفكر على شرط أن يكون ذلك بعد موت الامام يحيى ، وأجرى رجال الحركة الوطنية اتصالاتهم بالملك عبد العزيز حول تأييد الحركة بعد وفاة الامام يحيى .

وكان الاستعمار البريطاني بالجنوب يرقب الاحداث ويخشى أن تتحول الاوضاع الى الجنوب اليمني ، فبذل مساعداته للاحرار غير أنهم رفضوا أى مساعدة أجنبية يصبحون بها مقيدين لسياسة خارجية ، فعمد الى كشف أسرار الحركة بتولي عبد الله بن أحمد حمل جمال ، ونفذ الاغتيال في ٧ ربيع الثاني ١٣٦٧ هـ الموافق ١٩٤٨/٢/١٧ ، وأعلنت الحكومة الدستورية ، وتوافد رجال الثورة الى صنعاء لاستلام مقاليد الحكم .

وكانت الحركة قد وضعت لنفسها برنامجا في القضاء على الامام يحيى وولي العهد أحمد في آن واحد في كل من صنعاء وتعز والحديدة . غير أن المرحلة نفذت في الامام يحيى ووجد الامام أحمد الطريق ممهدا له في السير الى حجة عن طريق الحديدة واحتواء بعض عناصر الحركة الى جانبه الامر الذى جعله يتمركز بحجة .

والعامل الثاني : أن الحركة الوطنية كانت ذات اطار محدود في عناصر رجالها ، والشعب لا يزال متأثرا بالامام ، وعدم استيعابه للتغيير في اطار الدستور والشورى ، بالاضافة الى قتل الامام الذى زاد القضية تعقيدا جعل من تمركز الامام أحمد أن يمسك بوتر حساس هو قتل خليفة المسلمين ، وتغيير

شريعة الاسلام بالدستور والشورى . وادخال قوانين النصارى ، فأثار حفيظة القبائل نثرا وشعرا . والعامل الثالث : اثارة القبائل للانتقام من الصنعانيين بالنهب والسلب بأسلوب التفرقة لضرب فئة بفئة : مدني بقبلي التي تبناها الحكم الامامي في جميع مراحله القبلية ضد المدنية امتدادا لدعوة الامام القاسم وحكمه في المراحل الاولى .

ومن ثم وجد رجال الحركة الوطنية انهم في قبضة الاسد ووحوش الغاب ، وصمدوا في بناء الدولة اليمنية ، ولكن الحصار على صنعاء كان يزداد يوما بعد يوم .بالاضافة الى ان الملك عبد العزيز غيّر رأيه في رجال الثورة بحجة قتل الامام فأوقف وفد الجامعة العربية المنتدب لدراسة أوضاع اليمن واجراء انتخاب شعبي للحكم لديه بالرياض وبذل المساعدات للامام احمد . وكان رجال الحركة ينتظرون المساعدة في تدعيمهم من الجامعة العربية في فك الحصار من القبائل المتوحشة التي سموها في برقيتهم التي رفعت للجامعة العربية من أن القبائل لم تؤيد اى فئة ولا همّ لها سوى النهب والسلب .

وما هي الا ثلاثة أسابيع حتى سقطت صنعاء في قبضة زحوف القبائل اليمنية ونهبت نهبا لا مثيل له وسيق رجال الحركة الى السجون والمشانق وتربع الامام أحمد على العرش سنة ١٩٤٨ .

٢٦ سبتمبر ١٩٦٢

كانت الدماء التي سالت من أعناق وشرايين عظماء اليمن علماء وشبابا ومشائخ غذاء لشجرة الحرية التي أحيت ثوار اليمن فيما بعد ١٩٤٨ ، وكان ثمة أمل لدى رجال الحركة الذين نجوا من القتل أن الامام احمد سوف يعدل عن سياسة والده .

غير أن نشوة النصر زادته عنفوانا وتسلطا رغم أن المرحلة التي كان يعايشها تختلف عن عصر والده حيث اندلعت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التي كانت العامل الاهم لايقاظ الشعوب وما صاحبها من تفتح سياسي وتصاعد ثوري ضد الاستعمار والاستبداد والجمود الفكري .

في هذا الجو وجد رجال الحركة الوطنية أن القاهرة المنطلق لمواصلة النضال وتصاعده في بناء الفكر اليمني الحديث في استيعاب شباب اليمن في مدارس وجامعة القاهرة للدراسة وفضح أساليب الحكم الامامي من راديو صوت العرب والصحف والمجلات ، وهم على أمل في أن يكون الامام أحمد قابلا للاصلاح .

ومن ثم وجد الامام أحمد نفسه محرجا أمام تصاعد الحركة وتفتح البراعم الشابة باليمن . وتطور الصراع بين القديم والجديد أدى الى حركة ٧ شعبان ١٣٧٤ (ابريل ١٩٥٥) وان كانت في بداية أمرها ان اعتدى الجيش على املاك القبائل بالحوبان بتعز للاحتطاب نتيجة قلة المعاش ، غير أن قائد الحركة احمد الثلايا حول غضب الجيش من الشعب الى الامام الذى هو السبب في الجهل والفقر والمرض والتشرد لجموده ، واندلعت الثورة على الامام احمد وارغامه على التنازل لاخيه سيف الاسلام عبد الله لهدفين أساسيين :

الهدف الاول ، أن القادة السياسيين شجعوا هذه الحركة على حذر بغية قص أجنحة هذه الاسرة المجسدة في الحسن والعباس وعبد الله ، واقنعوا عبد الله بقبول الحكم لتنازل الامام تلبية لرغبة الجيش .

الهدف الثاني ، بعد التنازل استغل رجال الحركة الامير البدر محمد المقيم بالحديدة آنذاك لضرب الامير الجديد لمطالبة القبائل لفك الحصار عن الامام أحمد وترشح نفسه لولاية العهد وانتدب وفد من تعز الى الحديدة بحجة اقناع البدر لمبايعة عمه غير أن البدر اتجه الى حجة لحشد القبائل برفقة الوفد .

وكان الامام احمد في حصار شديد ولهب الرصاص تشعل القصر الملكي ، وكان الثلايا يؤمن بضرورة مغادرة الامام أحمد اليمن او قتله غير أن الامام الجديد وقف أمام ذلك مكتفيا بالتنازل ، وما هي الا سبعة أيام كان الامام في اتصال دائم برجال الجيش والقبائل لاحباط الانقلاب . وفعلا ما ان جاء عصر اليوم السابع حتى خرج شاهرا سيفه على فرسه وقد تحولت ضربات الرصاص من على القصر الى ثكنات الجيش المعارض ، ومن ثم فرّ قائد الانقلاب واسر وتلاه الامام الجديد وأخوه العباس مؤيد الحركة وارسلا الى حجة لاعدامهما. وتم اعدام زعماء الانقلاب العسكريين .

ولعل هذه الاحداث جعلت الامام احمد يغيّر سياسته ، فعقد حلفا ثلاثيا بجدة مع الملك سعود ابن عبد العزيز والرئيس جمال عبد الناصر هادفا من وراء ذلك تكميم حركة الاحرار .

غير أن هذه السياسة لم تكن الا مغالطة ظلت حبرا على ورق ، وظل الامام ينتظر أحداثا جديدة ليغير لعبة سياسية أخرى ، فكان قيام الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا سنة ١٩٥٨ م فيسارع الامام أحمد بارسال برقية يطلب من جمال عبد الناصر وشكري القوتلي انضمام اليمن في اتحاد الدول العربية . وأدرك الاحرار هذه اللعبة غير انه كان لهم بارقة أمل ، ولكنه ظل اتحادا صوريا .

وازدادت الاوضاع سوءا وتتصاعد الحركة وتتدهور صحة الامام ، ويستسلم لامراضه النفسية ، ويشعر الشعب بمسؤوليته وتتحول العقلية القبلية التي ناصرته ، فاندلعت ثورة قبيلة حولان سنة ١٩٥٧ . وازداد الامام الما يدعوه للخروج الى روما للتداوى سنة ١٩٦٠ ، وأسند الامر بالنيابة لابنه البدر الذى كشف سياسة أبيه وحكم عليه بالتخلف والجمود اثر

حركة قبيلة حاشد بزعامة حميد بن حسين الاحمر ووالده ومشائخ اليمن وحركة الجيش في كل من صنعاء وتعز ، فيضطر البدر الى اصدار قرار بانشاء مجلس نيابي برئاسة القاضي احمد السياغي يتولى سلطة الدولة فأثار ذلك بقية العقول المتحجرة ، التي راسلت الامام بالاحداث وأن الحكم أصبح جمهوريا قحطانيا ، فاضطر الامام الى قطع التداوى والعودة الى اليمن وكانت مقولته المشهورة **"هذا الفرس وهذا الميدان ومن كذب جرب"** . واستقر في صحراء الحديدة شرقا بالسخنة يصدر أوامره في اعدام المشايخ والشباب من زعماء الحركة .

ولما يئس الشعب من أى اصلاح على أيدى أسرة حميد الدين برزت حركة النضال في الشباب المؤمن بقضية اليمن مجسدة في الضباط الثلاثة عبد الله اللقيه ومحمد عبد الله العلفي ومحمد الهندوانه في محاولة اغتيال الامام احمد . وحانت الفرصة لهم في زيارة قام بها الامام لاحد حرسه بمستشفى الحديدة في عشية ٢٦ مارس ١٩٦١–١٠شوال ١٣٨١ ، وكاد يصرع بضربات الرصاص غير أن مشيئة الله جعلته يتجرع غصص آلامه بالجروح وستة أشهر شهد فيها [illegible] جيل الثور طلاب المدارس في ١٨ [illegible] ١٩٦٢ بصنعاء

وتعز معروف بالنقابة العمالية ، أثرت على حياته وودع فيها الامامة في ١٩ سبتمبر سنة ١٩٦٢ (١٨ ربيع الثاني ١٣٨٢هـ) . **وبوفاة الامام أحمد وتلقب الامام البدر بالامام المنصور لمدة أسبوع وبتحرك ثوار اليمن أشرقت ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢** التي غيّرت مجرى التاريخ اليمني من الحكم الامامي الفردي الى حكم الشعب نفسه بنفسه لنفسه في اطار مبادئ الثورة الستة والارادة الشعبية تكليلا لنضاله المرير . وتتويجا لجهاد رجال الفكر والاقلام الوطنية .

الشريعة المتوكلية

أو

القضاء في اليمن

القاضي
أحمد عبد الرحمن المعلمي

مقدمة ايضاحية

في لقاء من لقاءاتي ، بالاستاذ الشاب الباحث ، محمود صغيرى ، في" دمشق " الفيحاء تحدثنا عن التراث اليمني ، وقال : ان لجيل ٤٨ صفحات ناصعة ، ونضالا رائعا مرموقا في كل المجالات ، ولهم شعر ومؤلفات ومذكرات ومن ذلك ما صار عرضة للضياع والاندثار . فمن ذلك مثلا ، رسالة للشهيد الزبيري رحمه الله ، لم يعد أحد يأبه لها ، وهي تحت عنوان " دعوة الاحرار ووحدة الشعب" نشرت بتاريخ ١٣٧٥/١٢/١٩ هـ الموافق ١٩٥٦/٧/٢٧ م ولم تعرض ضمن ما عرض له من شعر ونثر ومؤلفات . ومثل ذلك ما نشر لك كتيب " الشريعة المتوكلية" واني لانوى اعادة طبع "هذا الكتيب" ضمن جهودى في المحافظة على التراث لان شبابنا وشاباتنا جيل ما بعد ثورة ٢٦ سبتمبر صاروا لا يعلمون بمجهوداتكم ولا يعلم بأكثر ما وقع قبل ثورة ٤٨ ، وما تلا ذلك معرفة كاملة صحيحة ، والبعض قد يعرف شيئا معرفة مشوّهة.

فقلت له : انك على حق . وأضفت : لا سيما وأنه وجد من يزيّف التاريخ ويشوّه ثورة ٤٨ وتأريخ رجالها ويجردهم حتى من أفضل فضائلهم عمدا عدوانا وبحقد مغلف بالتحليل والتعليل في محاضراته وكتاباته، وكلها تتضح نتنا وسما . ويوجد من يحلل ويعلل عن جهل وتصورات تخمينية . فقلت للاستاذ "محمود": ان لكتيب "الشريعة المتوكلية " قصة طويلة ، ومعظمه – وهذا للحقيقة والتاريخ – لفضيلة القاضي عبد الرحمن الارياني ، فعندما كنا في السجن في "حجة " وخفف عنا التعذيب والارهاب ، كانت الفكرة فكرته ، وكان لي شرف الإسهام بقسط هام فيه ، من ذلك السخرية والنكات لجذب القارئ وتشويقه . وكان اسم الكتيب "القضاء في اليمن " فسميته " الشريعة المتوكلية أو القضاء في اليمن " زيادة في الدلالة مع المحافظة على التسمية الاولى ، وجعلته جزأين ليكون الجزء الاول مدعاة للتشوق لما بعده ، وكان لي شرف المخاطرة بتهريبه وتصحيحه والمحافظة عليه ثم المحافظة عليه في ظروف غريبة ثم طبعه . ولم يكن من الممكن ذكر اسم القاضي عبد الرحمن لانه – أى القاضي – كان يعيش تحت سلطة الامام ، أما أنا فخارج ومتمرد عنها ، ومعنى ذكر اسم القاضي اطاحة برأسه أو على أحسن احتمال سجنه ، فاذا أردت اعادة طبع الكتيب فلا بدّ من هذه المقدمة ، ولا حاجة لك بطلب الاذن لا مني ولا من القاضي ، فالكتيّب أصبح ملكا

للشعب بعد مضي ما يقرب من ثلاثين سنة على تأليفه وعلى ما يقرب من سبع وعشرين سنة على طبعه . وثمة مؤلف آخر لمّا يطبع ولا يزال موجودا بخطي وضعته بالاشتراك مع "القاضي" وهو شرح " ديوان عمارة اليمنى" وهو من التراث أيضا ومن انتاج سجن "حجة" .

** لم تنته القصة :

وقصة كتيب " الشريعة المتوكلية " لم تنته بما أسلفت ، فأصغ للبقية .. لقد هرّبناه من السجن في أوائل الخمسينات مع ما كنّا نهرّب ، وكتبناه من ثلاث نسخ ، وعندما أطلق سراحي من السجن في عيد الفطر من عام ١٩٥٤ م كنت دائم البحث عمّا كنت أهرّبه . وكان "القاضي" قد أطلق قبلي في منتصف شهر شعبان ، وعندما أطلقت كانت تتحكم بأعصابي الريبة في كل شيء والمخاوف من كل شيء ، وكنت منهارا ولا سيما وبعض الاشرار ، وكنت قد وصلت " عتمة" بعد اطلاقي بحوالي شهرين ، أبرق الى الامام أحمد أن المعلمي الذى تآمر على الامام يحيى وأطلق هو الان يتآمر عليكم ويجتمع بكثير من المشايخ ، فكان عليّ أن آخذ الحيطة بكل ما في حوزتي من مذكرات وغيرها . فعدت الى تعز لأكون على مقربة من الامام وفي السلطة درءا لوشاية الواشين . ثم جاء الاعداد لانقلاب الشهيد الثلائي وعرفته من كثير ممن ارتبطوا به دون الالتزام مني بأى دور ، الا أنني قلت لبعض المرتبطين به ان من يعمل على خروج الشعب من وضع عفن اعتبر من يعمل ضده خائنا وكان قلبي مع العاملين ومدبّرى الانقلاب . وكان جانب الشك بعدم النجاح مرجحا في أحاسيسي لملابسات كثيرة ، ولكني كنت مبتهجا في قرارة نفسي ، ومجاريا لجانب الشك متهما لذكائي بعدم الادراك ولا سيما وقد عشت ما يقرب من سبع سنوات في السجن بعيدا عما يجرى في الساحة وشعرتُ بفخر وارتياح فقد وجد عاملون آخرون للوطن فلم ينته الامر بمن قضي عليهم بسيف الامام أحمد ولا بمن أودعوا في السجون . ووجدت المنشورات أصبحت تطبع " بالرينو" لا كما كانت في أوائل الاربعينات ، وحصلت على آلة كاتبة وأخفيتها ، وبدأتُ أتعلم الضرب عليها للاحتفاظ بالمذكرات وغيرها . وكان مما في الخبايا " كتيب الشريعة المتوكلية" بالخط .

وتحققت من مبادىء فشل الانقلاب ، فتركت الالة الكاتبة وبجانبها ما لا يهم ، ودبّرت خطة للافلات اذ لو وقعت مرّة ثالثة في قبضة الامام أحمد فلن يسلم رقبتي ورقاب كثير من أمثالي . ففي اعتقاده "أننا أصل الفتنة" وهو متعطش للدماء ومتلهف لان يلقى الله وسيفه يقطر من دم الاحرار على حدّ تعبيره عندما كان وليّا للعهد ، فكيف وقد أروى سيفه في سنة ٤٨ ؟ وكيف الان لو انتصر بعد أن أطلق الجيش على قصره ما يقرب من سبعين ألف طلقة ؟ وكيف لو عثر على مذكرات هذا الشاب الذى تفضل جلالته عليه باطلاق سراحه ، واطلع على " كتيب الشريعة المتوكلية" ؟ وما الذى سيطفىء جحيم غضبه وقد سمع شعارات الجيش وهم يطلقون الرصاص وهي شعارات فيها شتم بذىء ؟ ..

** القـرار بالكتيب :**

وفي يوم ٧ شعبان ١٣٧٤ هـ الموافق ٣٠ مارس ١٩٥٥ م وقبيل غروب الشمس التي كانت حزينة ، في ذلك اليوم كانت حادثة احراق قرية في " الحوبان " ، تلك الحادثة المعروفة ، كان الاحراق من قبل بعض أفراد الجيش المرابط في عرضي تعز اثر مقتل بعض منهم هناك ، واستقبل حادث الاحراق بالدهشة والاستنكار من قبل العامة ، وفي صبيحة يوم ٨ شعبان عرف الناس أن الجيش لم يكن يقصد أن يحرق قرية صغيرة آمنة تعيسة انما كان يريد أن يحرق وضعا مشى باليمن الى الهاوية ، وضعا عفنا بكل ماضيه ، وضعا كهنوتيا استمر يعبث بمقدرات شعب منذ عام ١٣٢٢ هـ ، أى منذ تربع الامام يحيى بن محمد حميد الدين كملك لليمن وشيّد عرشا غريبا لم ينته بمصرعه ، ذلك المصرع الرهيب البشع في عام ١٩٤٨ م وخلفه ابنه أحمد بدون عبرة ولا عظة من مصرع أبيه ، فحذا حذوه محققا أمنيته التي سبق وأن ذكرناها. حذا حذو والده بما في ذلك العبث بالقضاء ، أحد معاول القمع والاذلال والاستنزاف والذى كان احدى الوسائل الهامة ـ في تقديره ـ لاضعاف الشعب ابقاء على التسلط والسيطرة ـ كما سيرى القارئ في الكتيب ـ ولكن الشعب كان أقوى فارادة الشعوب لن تقهر ، ولن أدلل وأسرد ما كان ، فقد دكت ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ م كل قواعد العهد العفن ، وعرف الناس عنه ما عرفوا ، وتكشفت مساوئه جميعها ، انما أسلوب القضاء ـ وهذا للحقيقة ـ بقي داء مستشريا في جسم الشعب الى بعد الثورة بسنوات عديدة ، وأتعب الثورة معالجته رغم المحاولات المتكررة ، فان أسلوبا مارسه الشعب عشرات السنين وبه من التعقيدات والمصالح الانتهازية الشئ الكثير ، واصبح هذا الاسلوب عادة ضاربة الجذور ، ليس من السهل محوه بقرارات او بيانات ولم تفلح الثورة الجادة في ازالة قواعده ومرتكزاته وهدم اركانه وجسوره وتفكيك ارتباطاته وعلاقاته المألوفة الا نسبيا ، ولكن النجاح لايزال مطردا ولاسيما بعد التطور الهائل في كل جانب من جوانب الحياة بما في ذلك نشر التعليم واقامة بعض المحاكم النموذجية ويقضي على جرثومة داء الشريعة المتوكلية نهائيا بالاساليب الحديثة والقوانين الحكيمة المستقاة من كتاب الله وسنة رسوله عليه افضل الصلاة والتسليم .

اعود فأقول احسست بفشل انتفاضة "الثلاثي" فعقدت العزم على الفرار برأس وكتيب الشريعة المتوكلية معي ولذلك قصة طويلة فقد تنكرت بلباس جندى فلو القي القبض علي لكانت القاضية بسبب كتيب القضاء وغيره بل كان يكفي عند الامام مجرد الهروب ذنبا ففي اعتباراته انه دليل على الاشتراك في المؤامرة والانقلاب ففي عام ٤٨ اعدم بعض من حاولوا الفرار والقي القبض عليهم وكان فرارى الى عدن لتعذر اى طريق غيرها ونجوت بأعجوبة فقد اعترضتني مشاكل وتوقعات ولا سيما معظم الطريق الى عدن قطعته مشيا على الاقدام وفي الليل وكانت الطريق غير مأمونه ولا معروفة عندى .

وجرت محاولة بعد وصولي عدن من الامام الارجاعي واغراءات بمنصب مناسب فرفضت وقلت بالحرف الواحد في رسالة اليه كيف اعود والاخ الوجيه اعني القاضي لايزال في السجن ومهدد بالاعدام وقلت انني اريد ان انام واصحو ورأسي على قاعدة مستقرة ، "واطلق القاضي " بعد ان انزل الى ساحة الاعدام كما هو معروف وفوجئ بعد فترة بنشر الكتيب وقد جردته من اسمه وابقيت اسمي لاني في مأمن وكتب الي بعد

ان عرف ما اعانيه من ضيق وسوء عيشة وتهديد في غربتي واني اعيش بلا مال ولا مأوى قائلا : لو لم تستعجل بنشر كتيب " الشريعة المتوكلية " لامكن عودتك وقلت الامن في السرب اهم ما في الحياة وكان للكتيب يومها اثر بالغ جدا جدا لانه كشف الحقيقة وكشف مرضا يئن منه الشعب اتينا [illegible] وعندما وصلت نسخ منه للامام وقرأه استدعى بعض اعضاء الهيئة الشرعية وقال : اقرأوا ما يقول عنكم صاحبكم لاني كنت قد اشتغلت في القضاء ومع الهيئة الشرعية وبقي اخيرا ان اوضح امرا هاما استكمالا للفائدة ، ان القصيدة التي وردت في الكتيب والتي مطلعها :

ايها الاعلام من ساداتنا	ومصابيح دياجي المشكل
خبرونا هل لنا من مذهب	يقتدى في القول او في العمل

الى اخرها بذلك التساؤل الساخر المثير هي من نظم السيد الفاضل العلامة اسحاق بن يوسف بن المتوكل رحمة الله قالها في سنة ١١٣٤ هجرية وكان عالما متحررا مجتهدا .

اما القصيده القافية والتي جاء منها :

وقد ماطلوا الخصمين بالحكم اشهرا	ويشكون ان الغرب قد صار مشرقا
يسومونهم سوء العذاب وقولهم	سيخرج حكم بالتأمل دفقا
وقد يطلب استئناف حكم وقصده	ادانة خصم في الخصومة املقا
وبعد ينادى الحق :لست تنالني	فقدصرت في هدب الثريا معلقا

فهي من قصيدة للقاضي العلامة يحيى بن محمد الارياني رحمه الله وكان حاكما نزيها قاليا في الثلاثينيات ورئيسا للاستئناف في الاربعينيات . متحررا ايضا من قيود التقليد واسع الاطلاع حافظا [illegible]

اما القصيدة التي وردت ومطلعها :

ياعلماء الدين في صنعاء اليمن	ومن بهم تحيا الفروض والسنن

والتي عددت بعض مشاكل القضاء ونددت بقضاة الامام بذلك الاسلوب الغريب فهي من شعر القاضي العلامة علي بن يحيى الارياني وكان قد نظمها في اوائل الاربعينيات وعنيت بنقل نسخ منها عديدة ووزعت كمنشور في صنعاء وقد نقلت في الكتيب من ذاكرتي فكنت ولا ازال مستظهرا لها . وعندما ظهرت كمنشور استاء لها الامام يحيى استياء بالغا وبقي قائلها رحمه الله مجهولا الى الان وهي موجودة في ديوانه الذى لم يطبع حتى الان .

هذا كل ما أريد توضيحه خدمة للتاريخ والحقيقة .

دمشق في ١٩٨٠/١١/١٠
احمد عبد الرحمن المعلمي

الشريعة المتوكلية

أو

القضاء في اليمن

الجزء الأول

مهمتنـــــــا

انا حين اعترمنا القيام بالدعوة للحياة الكريمة في بلادنا والعمل على رفع مستوى العيش ، واقرار اساس العدالة فيها لم نكن نقصد القيام بالعاب بهلوانية على مسرح المعارضة السياسية للحكم القائم في اليمن ، لنكسب التصفيق الرخيص او الاعجاب الزائف الزائل .

ولقد كنا نعلم تمام العلم ان الاوضاع الراهنة في بلادنا والادواء القاتلة التي تعانيها امتنا لم تكن بحال من الاحوال من صنع شخص بعينه او حكم معين في فتره قصيرة من فترات التاريخ لاننا نؤمن تمام الايمان ونعتقد راسخ الاعتقاد (ان الفرد الواحد اعجز من ان يصنع تاريخ شعب او ان يخطط حياة امة وبلاد) وكنا نرى ان اوضاع امتنا وما آلت اليه من سو قد كان نتيجة عوامل تاريخية عدة ساهم الطغيان والفساد اكبر مساهمة في عملها على تدمير النفسية اليمنية وافساد عقلية الشعب اليمني ، (وليس من السهل بل انه لمستحيل كل الاستحالة على من يحاول معالجة قضية شعب من الشعوب ان يغفل تاريخ ذلك الشعب ، او ينكر اثر القوى الاجتماعية من دين وادب ، وعلوم وتقاليد من صنع ذلك التاريخ) .

ونحن اذ نعمل على اكتساب اسباب الرشد لدعوتنا ودواعي النجاح لقضيتنا نجدنا مضطرين الى النظر الى القضية من هذه الزاوية فندرس مشكلتنا دراسة تفصيلية تحليلية ونستعرض اسباب الحياة . ونتتبع الروافد التي يتكون منها سيل الطغيان الجارف في امتنا .

واليوم يقدم الاخ احمد عبد الرحمن المعلمي رسالة وافية عن القضاء في اليمن مساهمة منه في هذا المجهود الفكرى لابراز الحقائق الواقعة في بلادنا ليستعيد المواطن اليمني مأساة بلادة ، ويقف على مكامن الدآء في امته وينتبه لاسباب الفناء والدمار التي تكاد تحيط بوطنه وشعبه ،ثم ليطلع الرأى العام العربي والاسلامي على حقيقة الخرافة الزائفة والا كذوبة العريضة التي لاتزال الحكومة المتوكلية في اليمن تتشدق بها ، وهي انها حامية الاسلام وانها اذ تتهرب من ادخال الاصلاحات الحديثة في

البلاد ، تلك الاصلاحات التي يلح عليها العالم لتعمل على ادخالها الى اليمن ،انما تصنع ذلك خشية ان تتعرض التقاليد الاسلامية والمبادىء الدينية لخطر الشك والارتياب ، والكفر والالحاد

ولسنا هنا بصدد الرد على هذه الدعوة الباطلة فذلك متروك للقراء بعد ان يفرغوا من قراءة هذه الرسالة فقد حرصنا ان نرد الحقائق كما هي لاننا لانريد ان نفيد من وراء هذا النشر التشهير والضجيج بقدر ما نريد دراسة مشكلتنا دراسة واقعية صحيحة فتتحدث الحقائق عن نفسها وتدين من يجب ان يدان سواء كان حيا او ميتا ، حاضرا او ماضيا لاننا نريد ان نصفي حسابنا مع التاريخ فنحن ممثلو امة وبلاد اكثر منا معارضي وضع قائم او منتظرى وضع قادم (واننا لنربأ بشعبيتنا ووطنيتنا ان توقف كل جهودنا على حرب فرد واحد او جماعة من العابثين والفاسدين في فترة معينة من فترات التاريخ للامة اليمنية •) •

ولا يعني هذا اننا ندين بالحب والتقدير لتلك الطغمة العابثة ولكنا لسنا مستعدين لان **يسدل** تفكير هذا الشعب وادبه ومواهبه الى المهاترة والخصام دون محاولة البناء الراسخ المتين لان حالنا مع القوم كما وصفه شاعر الامة اليمنية المبدع وقائد ثورتها الفكرية الاستاذ محمد محمود الزبيرى اذ يقول :

نرمي الى هدف واه ستنسفـه

هوج الرياح اذا ما أخطأ الرامي

فلا بد لنا من النشر على هذا الاسلوب التاريخي المفصل حتى يتبصر ابناء اليمن ويكتشفوا الحقائق الواقعة المفجعة في حياتهم فيضعوا الاسس القويمة ويعيدوا الدعائم المتينه لبناء امتهم من جديد حتى تحيا كسائر الامم الخلاقه الكريمه ذات المكانة المرموقه ،لا ان تبقى مسيرة او مقهورة مستذلة وحين يأتلف العقل النير الرشيد والايمان الصادق والاخلاص المتناهي يطلع الفجر الصادق على امتنا وهذه بداية يتلوها ما بعدها ولم تكن البداية بها دون غيرها من المشاكل من قبيل الصدفة بل كان مقصودا ومتعمدا **لان فساد القضاء في اليمن والعبث بالشريعة الاسلامية قد كان من اكبر العوامل فى تشرد اليمنيين وسوء الاحوال العامة وانتشار التذمر والقلق في اليمن واذا فقدت في امة سلامة القضاء ونزاهة القضاة فأخلق بها ان تقتتل وتتناحر وتدمر نفسها وتشتت ابناءها وتشردهم تحت كل كوكب •**

ولقد حاول المؤلف جهده ان يسرد الحقائق دون كلفه او تحيز وتحدث حديث الخبير المطلع لانه قضي من عمره ثلاثة عشر عاما يعمل في القضاء في مابين كاتب محكمه ووكيل حاكم وقاضي نواحي وكاتب في الديوان وعضوا في الهيئة العلمية الشرعية (ولا ينبئك مثل خبير) • وقد آثر المؤلف ان يتقدم برسالته هذه في بساطة وسهولةحتى يتمكن صاحب المشكلة الاول من القراءة والفهم واعني به ابن الشعب ، ورجل الشارع كما يعبر عنه تعبير آخر •ولا يعني هذا ان الرسالة قد كتبت بأسلوب ضعيف فللكتابة البسيطة عناء وجهد لايدركه الا من عانوا هذا الاسلوب الادبي الذى يحفظ للفكرة والقوة والوضوح وهو ما يسميه البلاغيون (السهل الممتنع) وستصدر الرسالة في جزأين رغبة في التخفيف على القارىء وهروبا به من السأم والملل •

واني لاتوقف عن الحديث حتى ادع المؤلف يتحدث الى قرائه بما هو عائد على القضية بالنفع والله ولي التوفيق •

عدن ــ محمد أحمد نعمان

(بسم الله الرحمن الرحيم)

ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من اموال بالاثم وانتم تعلمون – ٣ : ١٨٨

ان الذين يكتمون ما انزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا ، اولئك ما يأكلون في بطونهم الاالنار ، ولا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب اليم .
الـ٢ : ١٧٤

سماعون للكذب ، أكالون للسحت فان جآءوك فاحكم بينهم ، او اعرض عنهم ، وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئا ، وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين . ٥ : ٤٣

انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم به النبيون الذين اسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشوني ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ، ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون . ٥ : ٤٤

وليحكم اهل الانجيل بما انزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما انزل الله فاؤلئك هم الفاسقون . ٥ : ٤٧

وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما انزل الله ، ولا تتبع اهوائهم عما جآءك من الحق ، لكل جعلنا شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . ٥ : ٤٨

وان احكم بينهم بما انزل الله ، ولا تتبع اهوائهم واحذر أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك فان تولوا فاعلم انما يريد الله ان يصيبهم ببعض ذنوبهم وان كثيرا من الناس لفاسقون . افحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون . ٥ : ٤٩

ان الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمنا قليلا ، اولئك لاخلاق لهم ولا يكلمهم الله ، ولا ينظر اليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم . ٣ : ٧٧

القضـآء

القضآء : هو منصب فصل الخصومات بين الناس ، وهو قديم لحاجة الانسان الى من يتولى فصل ما يحدث بينه وبين اخيه الانسان منخصام وقد كان العرب قبل يتقاضون الى رؤسائهم وكهانهم ، وعرافيهم ، وكان هؤلاء مشهورين بالنزاهة وتحرى القسط في الحكم بوازع من نفوسهم البدويه التي تدفعهم الى تقدير الفضائل طلبا لما يرجون من وراء التخلق بها من طيب الثناء وحسن الاحدوثه .

ولما جاء الاسلام كان الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذى تولى القضاء بين اصحابه ، حتى بدأ سلطان الاسلام يمتد على الجزيرة فأرسل عليه

السلام نفرا من اصحابه قضاة ومفقهين ، فبعث معاذ بن جبل سيد العلماء الى اليمن ، وقال له : "اذا قدمت عليهم فزين الاسلام بعدلك وحلمك وصفحك وحسن خلقك " ، واوصاه بتقوى الله ، وصدق الحديث ، ووفآء العهد ، واداء الامانة ، وترك الخيانه ، ورحمة اليتيم ، وكظم الغيظ ، ولين الكلام ، وبذل اللسان . ونهاه ان يشتم مسلما او يصدق كاذبا ، او يكذب صادقا ، وامره ان ييسر ولا يعسر ، وبشير ولا ينفر وقال له : " اتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب " .

وبعث عليا كرم الله وجهه الى اليمن قاضيا ومفقها يدعوا له ان يهدى الله قلبه ويثبت لسانه ، ويؤهله للحكم فلم يعي في حكم .. كما بعث صلى الله عليه وسلم غيرهما الى اليمن وغيرها .

ولما لحق الرسول بالرفيق الاعلى قام بعده بالقضاء خلفاؤه الراشدون حتى اتسعت رقعة المملكة الاسلامية ، وكثرت مهام منصب الخلافة فاحتاجوا الى ان ينيبوا عنهم نوابا في الامصار النائية وفي المدينة نفسها ، وكان اول من فعل ذلك الخليفة الثاني عمر ابن الخطاب فقد استقضى ابا الدرداء معه في المدينة وولى شريحا قضآء البصرة وابا موسى قضآء الكوفه وكتب اليه كتابه المشهور الذى يجب ان يتخذه القضاة قانونا يسيرون عليه ، ومنارا يهتدون به .

ولما كان هذا الكتاب قد تناول كثيرا مما يجب على القضاة من تحرى العدل والحق ناسب ان تزين به رسالتنا ليحاسب قضاتنا انفسهم على ضوء تعاليمه المستمدة من نور النبوة ويعرفون اين محلهم منها .

كتاب عمر في القضآء

من عبد الله عمر بن الخطاب امير المؤمنين الى عبد الله بن قيس سلام الله عليك .

اما بعد : فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم اذا ادلى اليك الرجل الحجة ، واقض اذا فهمت ، وامض اذا قضيت فانه لاينفع تكلم بحق لانفاذ له . آس بين الناس في وجهك ومجلسك وقضائك حتى لايطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على المدعي واليمين على من انكر ، والصلح يجوز بين الا صلحا أحل حراما او حرم حلالا . ــ الى ان قال : ولا يمنعك قضاء قضيت فيه اليوم فراجعت فيه عقلك ، وهديت فيه الرشد ان ترجع الى الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى في الباطل . الفهم الفهم فيما يختلج في صدرك مما ليس في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . واياك والغلق والغضب والضجر والتأذى بالناس عند الخصومة فان القضاء عند مواطن الحق يوجب الله به الاجر ، ويحسن به الذكر فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما ليس من شأنه فان الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام .

* * * *

ولامير امؤمنين علي كرم الله وجهه في عهده للاشتر عند ولايته مصر عدة مواعظ وحكم وآداب تتعلق بالقضاء وحسبنا ان نورد هنا قصة ترافع علي عليه السلام مع اليهودى الى قاضيه شريح لنتدلل على عدالة القاضي وصراحته في الحق ، وتواضع

الخلفاء وانصياعهم له :
أخرج ابو نعيم في الحلية قصة مطولة ملخصها ان عليا رضي الله عنه فقد درعا ، ووجده بيد يهودى فطلبه منه فانكره فرافعه الى شريح فقال له : ما تشاء ياأمير المؤمنين ؟ فقال : درعي سقط عن جملي الاورق .. فقال اليهودى : درعي ، وفي يدى .. فطلب شريح البينة من علي فدعا قنبرا مولاه ، وحسنا ابنه فشهدا انها درعه فقال شريح : اما شهادة مولاك فقد اجزناها . واما شهادة ابنك فلا نجرها فقال علي : اما سمعت عمر بن الخطاب يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحسن والحسين سيدا شباب اهل الجنة ؟ فقال اللهم نعم .. فقال أفلا تجيز شهادة سيدى شباب أهل الجنة فقال : اللهم لا .. فقال على اليهودى خذ الدرع فقال اليهودى :أمير المؤمنين جاء معي الى قاضي . الدرع درعك . وكان هذا سببا في اسلام اليهودى نتيجة للعمل بالحق من الحاكم والمحكوم عليه .

وقد كان القضاء في الصدر الاول عملا مرغوبا عنه مزهودا فيه نظرا الى ما ورد من الترهيب لمن يتولى القضآء او يتلبس به دون ان يوفيه حقه من عدل ونزاهة فكان العلماء ورجال التقوى يأبون ولايته . حتى لقد ضرب عليه الامام ابو حنيفه ونال الاذى فريقا غيره وتعرضوا لغضب الخلفاء بسبب امتناعهم عن توليته ، ولكنه ما لبث ان صار مطلوبا يضمنه قضاة السوء من الخلفاء بمال يؤدونه . وأول من فعل ذلك عبد الله بن الحسن بن ابي الشوارب سنة ٣٥٠ في ايام معز الدولة بن بويه .

اما من تولاه من الصحابة والتابعين فقد كانوا مثالا للعدالة والنزاهة المطلوبتين له ، وكان الخلفاء من جانبهم لايحيطون القضاة الى ان تمتد اعينهم الى ما في ايدى الناس بما يوفرونه لهم من الرواتب الكافية ، حتى لقد بلغ عطاء عيسى بن المنكدر قاضي المأمون على مصر مائتي دينار وسبعين دينارا شهريا اى ما ينوف على الف وثلثمائة ريال ، وهو مبلغ فاحش ولكنه يجعل القاضي في غنى عن مد يده الى اموال الناس ، جديرا ان لا تؤثر الرشوة على مجارى احكامه ، او تجعله يميل عن الحق الى الهوى .

وكان القضاة في صدر الاسلام مقصورا على النظر في فصل الخصومات ، ثم توسعت دائرة اختصاص القضاة وانيطت بهم ولاية اموال اليتامى الذين لا أوصياء عليهم ، وأموال المحجور عليهم ، وولاية عقد النكاح لمن لا ولاية لها .وأخيرا أسند اليهم النظر في المظالم ، وهو اشبه ما نسميه اليوم بمجلس الاستئناف لان الغرض منه استماع ظلامات الناس من القضاة وغيرهم ، ولينظر فيما يصدره القضاة من الاحكام ، ويفصل ما عجزوا عن فصله من القضايا

ومن هنا يعرف اهمية القضآء في نظر الاسلام ، ولهذا كانوا يتطلبون له العلماء الحائزين على الكفآءة والنزاهة ، وعفاف النفس ، ويقظة الضمير ، والتورع عن اخذ الاموال ، والصرامة في الحق .

القاضي في الاسلام

الشريعة الحكيمة العادلة هي التي تسعد البشر في دينهم ودنياهم فتنظر الى المصالح النافعة ثم تهيىء اسباب جلبها ، وفي المفاسد الضارة فتلاحظ في تقنيتها ما يدرؤها . وعلى قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد بنيت كثير من الاحكام الشرعية الاسلامية .

ولما كان القضاء يتعلق ببعض مشاكل المجموعة البشرية على اختلاف اجناسها على اساس من العدل والانصاف . ولما كان له قسط كبير في توفير سعادة الانسان في الحياة التي يحتاج فيها دائما الى عون

اخيه الانسان وتأتي عليه غرائزه الا ان يظلمه ويفتئت عليه ، ويستأثر بحقوقه فيحتاج حينئذ الى من يسوى ما قد يكون بينهما من خلاف تسوية عادلة . لما كان القضاء كذلك نظر اليه من جانب الشريعة الاسلامية نظر اهتمام يليق به كوسيلة لابد منها لاسعاد الناس في حياتهم الدنيا .

ولما كان الانسان يحرص على ان يكون هو الفائز في محكمة القضاء فانه يعمل كل ما يستطيع ان يعمله ليستهوى القضاة ولتكون ميولهم اليه وهواهم معه — لذلك اشترط الاسلام للاطمئنان على الحقوق من عبث أهواء الحكام ومطامعهم شروطا لابد ان تتوفر في القاضي لكي يجوز للامام ان يوليه القضاء فيقوم بما يريده الاسلام من حفظ الحقوق والتسوية بين القوى والضعيف ، والغني والفقير ، والمأمور والامير ، وهي شروط حكيمة ، وضرورية تدل حصافة واضعها ومعرفته بطبائع النفس البشرية وحبها للمال والجاه ، وتضارب أهوائها ونوازعها ، وتأثيرها بالترغيب تارة والترهيب أخرى وإذا فلا بد ان يكون عند القاضي مناعة ضد كل هذه المؤثرات مع حيازته للكفاءة العلمية ، ولايمكن الاطمئنان الى ذلك ما لم تتوفر الشروط التالية :

١ـ الاجتهاد : بالحصول على العلوم اللازمة لهذه الرتبة العلمية ، ومعنى هذا

ن يكون القاضي

١ـ الاجتهاد : بالحصول على العلوم اللازمة لهذه الرتبة العلمية ، ومعنى هذا ان يكون القاضي حائزا للكفاءة العلمية ليقضي بما في الكتاب والسنة ، ثم يجتهد رأيه ، فالقاضي الجاهل جدير بالنار كما ورد في الحديث لما يترتب على جهله من تضييع الحقوق وقد ورد ان النبي صلى الله عليه وسلم سأل معاذا رضي الله عنه حين بعثه الى اليمن : بم تقضي ؟ قال : بكتاب الله .

قال : فأن لم تجد ؟

قال : فبسنة نبيه .

قال : فان لم تجد ؟

قال : اجتهد رأيي .

فقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسوله .

٢ـ الورع : والزهد عن اموال الناس ومعناه ان تكون عند القاضي مناعة خلقية تصده عن اكل اموال الناس بالباطل لئلا يأخذ الرشا ، فيكون هواه مع راشيه فيتبع هواه ويقضي به فيكون ثاني القاضيين الجديرين بالنار لانه يضيع الحقوق بهواه .

٣ـ العدالة : والصرامة في الحق بحيث لاتأخذه في الله لومة لائم وان تكون فيه من روح الخليفة الاول الذى يقول : " القوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له " . فلا تمنعه رهبة الولاة وذوى السلطان من القضاء بالحق حتى حين يكون عليهم وهذا ما يعبر عنه اليوم باستقلال القضاء .

* * * *

ويشترط في القاضي أيضا الذكورة والتكليف والسلامة من العمى والخرس ،وكلها شروط معقولة الحكمة فالمرأة والصبي ليسا اهلا للقضاء عند اكثر العلماء لرقة احساسهما وضعف اعصابهما وسرعة تأثرهما وانفعالهما فلا يؤمن مع ذلك انسياقهما ورآء العواطف في الحكم ضد الحق .

اما الاعمى والاخرس فعدم صلاحيتهما للقضاء واضح العلة معروف السبب وكل هذه الشروط ملحوظ فيها الاحتياط في حفظ الحقوق ، وحصول الثقة بأحكام القضاة التي يراد منها قطع الخلاف بين المتخاصمين مع استيفآء الحق لصاحبه ، وانت اذا تأملتها وجدتها قد بلغت الغاية في التحري على الحق والعدالة لو طبقت فعلا .

ولا يفوتنا وقد اتينا على الشروط التي يرى الاسلام ضرورة حيازة القاضي لها ليكفل ذلك سلامة حقوق الناس – ان نختم هذا بذكر بعض الاحاديث التي وردت في الترهيب عن القضاء ، وحث القضاة على العدالة وتوخي الحق ثم نخلص منه الى ما نريد من استعراض حال القضاء في اليمن مدى خمسين عاما – اى في عهد الحكومة المتوكلية :

اخرج ابن ماجه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : **القضاة ثلاثة : واحد في الجنة ، واثنان في النار فرجل عرف الحق وقضى به فهو في الجنة ، ورجل عرف الحق وجار في الحكم فهو في النار ، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار .**

قال صلى الله عليه وسلم : ان الله مع القاضي ما لم يجر فاذا جار تبرآ الله منه ولزمه الشيطان .

وقال صلى الله عليه وسلم :

ليأتين على القاضي العدل يوم القيامة ساعة يتمنى انه لم يقض بين اثنين في تمرة .

وقال صلى الله عليه وسلم

ما من حاكم يحكم بين الناس الا جاء يوم القيامة وملك آخذ بقفاه ، ثم يرفع رأسه الى السماء فأن قيل له القه القاه في مهواه اربعين خريفا .

وقال صلى الله عليه وسلم :

لاتقدس امة لايقضى فيها بالحق ويأخذ الضعيف حقه من القوى غير متعتع . وأخرج احمد والاربعة عن ابي هريرة قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الراشي والمرتشي في الحكم . – زاد احمد : والرآئش وهو الساعي بينهما .

والاحاديث في هذا الباب كثيرة وفيما اثبتناه ما يجعل المؤمن التقي يقف امام منصب القضاء ترجف بوادره فرقا لهول المطلع وخوفا من سوء المصير ، ثم لايزال في مقام الاحجام حتى يأنس من نفسه القدرة على أدآء حق الله وحق المسلمين فيه .

واين نحن اليوم ممن يرى القضآء حين يقوم به على انه محنة يراد منها امتحان نفسه واختيارها ليعرف انحسن عملا ام تسيء صنعا ؟ – انك حين تطالع ما نعرضه عليك في هذه السطور ستقرر ان اولئك قد ذهبوا الى ربهم ولم يبق الا الذين يتهافتون على القضاء ويريدونه حرفة يبتغي من ورائها الكسب والثراء ، وهؤلاء هم قضاة اليوم الذين نريد ان نحدثك عنهم لتقارن بينهم وبين القاضي المستقيم العادل الذى يريده الدين ويتطلبه الاسلام .

القضاء في اليمن
(١٣٢٢ – ١٣٧٥ هـ)

والان وقد انتهينا مما أوردناه من التمهيد نبدأ بتسجيل صفحة سوداء من تاريخ القضاء في اليمن تبتدىء بعام ١٣٢٢ وتنتهي في سنة ١٣٧٥ أى منذ ابتداء تاريخ الحكومة المتوكلية الى يومنا هذا.

وتاريخ هذه الحقبة كله تاريخ أسود جدير بأن تتناوله أقلام الكتاب لعرضه على الانظار كما هو بما فيه من أشواك وأوحال ، ودموع ودماء ، متوخين الحقائق التاريخية ، مقدرين أمانة العلم والنقل . ولهذا اعتزمنا المساهمة في العمل الاولي باخراج سلسلة تأريخية تتناول كل حلقة منها تاريخ هيئة من هيئات الحكومة وناحية من نواحي الحياة اليمنية في مدى الخمسين عاما التي مرت على اليمن في ظل الحكم المتوكلي وغرضنا من افراد كل قسم بحلقة أن يتكفل ذلك بعرض تاريخ هذه الحكومة مستوفى واضحا ، وهذه هي الحلقة الاولى تناولنا فيها شرح حال القضاء في هذه الحقبة ، وابتدأنا به للتنويه بعظيم قدره ، ورفيع منزلته ، ولما لمسناه من حاجته الماسة الى الاصلاح نظرا الى صلته الاكيدة بحياة الناس ، ولكثرة ما نسمعه من شكواهم فساده (مما) نراه من انهيار الاسر وتبدد الثروات نتيجة لهذا الفساد ، ولما ينشأ من سوء ادارة الحكام وتهالكهم على الرشاوى ، وأكلهم أموال الناس بالباطل من مفاسد ومضار بصورة لم تعرفها اليمن في عهود تاريخها الاسلامي .

ولكي يتصور القارىء الى أى حد بلغ فساد القضاء في هذه الفترة نرى أن نصور له ما قبلها موجزة عن القضاء في العهد العثماني في اليمن .

القضاء في العهد العثماني :

مرت العقود الثلاثة الاخيرة من القرن الثالث عشر والثلث الاول من القرن الرابع عشر وسلطان الاتراك العثمانيين ضارب أطنابه على أكثر مناطق اليمن ، فالقسم الشافعي بحدوده المعروفة – اذا استثنينا تهامة عسير التي حكمها في آخر العهد التركي محمد الادريسي – خاضع لحكم الاتراك ، ومثله أكثر نواحي القسم الزيدى باستثناء منطقة صعدة وشهارة في الشمال حيث كان يتعاقب عليها ويتجاذب حكمها في هذه الفترة جماعة من أئمة الزيدية .

وكانت الحكومة العثمانية تعين الحكام من "المابين" بأمر السلطان الاعظم وغالبهم من الاتراك أو من العرب السوريين . وكان هؤلاء يتفاوتون في استقامة الاخلاق وتطبيق العدالة ففيهم من يمثل قضاء الصدر الاول عدلا وورعا واستقامة وترفعا عما يدنّس منصب القضاء وبعدا عما لا يتفق والعادات اليمنية لطبقة القضاة الذين يجب أن يكونوا أكثر من غيرهم وقارا وأشد محافظة على الواجبات الدينية وملازمة لها ، وأحوج الى أن يظهروا بمظهر المتدين التقي ، وقد كان هذا الفريق ينال حب اليمنيين وتقديرهم وثقتهم ، ولكنهم كانوا قليلين بالنسبة الى الفريق الاخر الذى كان لا يتورع من أخذ المال الحرام ، ولا يتحرى في أحكامه الحق والعدالة ، ولا يبتعد عما يستلزم اليمنيون صدوره من طبقة القضاة – وان كان في الواقع من قسم المباحات وهؤلاء هم الذين يجرحون بأفعالهم الشعور الديني اليمني ، ويثيرون اشمئزاز الاهالي ولا سيما في القسم الزيدى ، ويبعثون نقمتهم وثورتهم على الحكومة العثمانية نفسها ،

فان أعمالهم الشخصية وانحرافهم الاخلاقي قد كان من أسباب تلك الثورات المتتالية التي قامت في اليمن ضد العثمانيين .

ولقد كان اليمنيون وبالخاصة الزيدية ينفرون من الاتراك بصفتهم أجانب يختلفون معهم نسبا ومذهبا وبالتالي كانوا ينفرون من الترافع اليهم في قضاياهم ويعمدون الى حكام التراضي من القضاة والسادة المنبثين في أكثر النواحي والقرى . وقد نقم اليمانيون على قضاة الاتراك فسادهم الخلقي وكانت الحكومة المتوكلية تتذرع به الى اثارته ضد الاتراك من ثورات وحروب مستغلة ما كان يبدو من حكامها من تبذل وعدم اهتمام بما يقتضيه منصب القضاء من وقار واحتشام .

وفي آخر العهد الحميدى غيرت الحكومة سياستها فنصبت للقضاء في النواحي نوابا يمنيين غالبهم من الشافعية ، وأخذت عليهم كغيرهم من حكامها أن يقضوا بموجب المجلة الحكومية التي وضعتها لجنة من العلماء مستمدة من مذهب الامام أبي حنيفة وكان هذا مما زاد في استياء الاهالي ، وبالخاصة الزيدية المخالفة نصوصها لمذهبهم الذين يرون كل ما عداه ضلالا وهرطقة .

القضاء في ظل حكم الامام :

ونحن اذا انتقلنا بك الى هذه الزاوية التي كانت ائمة الزيدية يتجاذبون حبل حكمها في الشمال لم نجد القضاء أحسن حالا منه في المناطق المحكومة بالعثمانيين لان سلطان الائمة فيها كان صوريا ، اما النفوذ الحقيقي فقد كان يتمتع به رؤساء القبائل وشيوخهم ، وحتى الامام نفسه كان تحت رحمة هؤلاء الرؤساء ، وكان المتخاصمون يترافعون اليهم فيقضون بينهم بما يسمونه "الطاغوت" وهو مجموعة قواعد وعادات وضعها بعض كبرائهم ، وأضاف اليه رجل يقال له "ابن زنباع "ما تجدد من الحوادث وأكثرها يتعلق بما ينشب بين القبائل من فتن وحروب وما ينتج عنها من قتل ونهب ، وما يتعلق بالمواريث . ونذكر على سبيل المثال أحكامهم في المواريث فقد كانوا لا يورثون النساء بحال من الاحوال ، وانما يفرضون لهن على من يحرز الميراث من الذكور صلة سنوية في العيدين وعند المناسبات ، ثم لا شيء غير ذلك . وقد استمر الحكم بالطاغوت في قبيلة حاشد الى سنة ١٣٤٣ هـ حيث خضعت هذه القبيلة لسلطان الامام يحيى وأذعنت لاحكام الشريعة بعد حروب طاحنة .

وقد كان على من يطلب من المتخاصمين في هذه القبيلة الاحتكام الى الشريعة أن يلتمس من الشيخ أن يحيله مع خصمه الى حاكم يتراضى الخصمان على الحضور اليه فيحيلهم اذا أراد . وكان هؤلاء الحكام يتحرون في قضائهم الحق ويكتفون من المتخاصمين بما سمحت به أيديهم من الاجر وهو في الغالب شيء زهيد ، وكان اذا صدر الحكم من القاضي جاء دور شيخ القبيلة الذى من واجبه تنفيذ الحكم بدون هوادة ولا مراجعة لان غرض القاضي والشيخ مشترك وهو فض الخلاف وفصل النزاع ، وانهاء المشاكل وليس لهم هوى سياسي في تطويل ذيولها وتعدد فروعها كما هو الشان في الحكومة المتوكلية ، فكان الناس يرتاحون لفصل قضاياهم والبت فيها ، وينصرفون الى شكوى فساد القضاة العثمانيين الخلقي والنقمة عليهم والتشنيع بهم وبحكومتهم .

وعليه فقد كان عمل الحاكم محصرا في بحث القضية الموكول اليه حلها والانتهاء الى قرار فيها . وأما التنفيذ فيحال على الشيخ ، وعلى هذا جرى الامر في أيام الامام المنصور محمد بن يحيى حميد الدين من سنة ١٣٠٧ الى سنة ١٣٢٢ . فقد كان لا يستطيع اقامة الاحكام الا بواسطة رؤساء العشائر الذين تدفعهم عقيدتهم الدينية الى مساندته حتى لا تتنافى هذه المساندة مع مصالحهم .

ولما قام ابنه المتوكل يحيى بن محمد في سنة ١٣٢٢ هـ استمر الحال على ما كان عليه في أيام

ولما قام ابنه المتوكل يحيى بن محمد في سنة ١٣٢٢ هـ استمر الحال على ما كان عليه في أيام المنصورطولكنه كان يشتد ساعده يوما فيوما فنوى على مناهضة الاتراك ، ولباه أكثر القسم الزيدي ولم تهدأ الثورة فيه شهرا واحدا حتى اضطرت الحكومة التركيه الى عقد صلح معه على يد واليها أحمد عزت باشا في سنة ١٣٢٩ فتم الصلح المشهور " بصلح دعان " وتسمى عام الائتلاف ، وكانت هذه المعاهدة في صالح الامام يحيى فقد جعلت اليه تعيين الحكام الشرعيين في جميع القضوات والنواحي التي يتكون منها القسم الزيدي والاشراف على الاوقاف والمدارس الخيرضة وأن لا يمنع أحد من الاهالي أراد أن

يدفع زكاته الى الامام مع الاحتفاظ بحق الدولة عليه ، وقد بادر الامام عب التوقيع على مواد الصلح فأرسل حكامه الى جميع جهات القسم الزيدي الذي يمتد من صعدة شمالا الى بريم جنوبا ، وسوّغ لهم أن يأخذوا الاجرة من المتخاصمين ليسددوا ما تطلبه حياة المنصب الرفيع من نفقات ، ولم يفرض لهم مقررا من بيت المال كما كان متوقعا فساءت

الحالة سوءا لا عهد للبلاد به حتى في عهد القضاة الفاسدين من الاتراك فانه مع فساد الوضع القضائي في تلك الفترة التي كان الاتراك يحكمون اليمن الا أن الحالة لم تبلغ من السوء الى الحد الذي بلغته في أيام الحكومة المتوكلية لان الحكومة التركية على ما كانت عليه من فساد الا أنها كانت قد قررت للحكام مقررات لا يضطرون معها الى نصب الشباك وتنويع الوسائل لابتزاز الاموال التي تكفل لهم حاجات الحياة ، وليست كذلك الحكومة المتوكلية ولذلك فقد فوجىء الاهالي الذين كانوا ينتظرون دولة ابن رسول الله بفارغ الصبر فوجئوا بهذه الصدمة التي خيبت ظنهم بالامام وتبخرت بها وعوده التي كان يكيلها لهم حين يريد تأليبهم على الاتراك .

شعرت الحكومة العثمانية بتبرم الاهالي وكانت في أمس الحاجة لاستقرار البلاد وشراء صداقة الامام يحيى وهدوءه لانها كانت بين يدي الحرب العالمية الاولى فقررت لحكام الامام مقررات كانت تدفعها من خزينتها ، فتجنب المتورعون منهم وقليل ما هم أخذ الاجر من المتخاصمين ، واستمر الاكثر على أخذها استنادا الى تسويغ الامام فقاسى الناس من ذلك ويلا وبلاء .

التطويل المفتعل :

ما ان رسخت قواعد الامام يحيى في البلاد واطمأن الى خلو الجولة من الاتراك حتى بدأت طلائع السياسة المتوكلية تتركز على قاعدة " فرق تسد " بايحاء من الامام يحيى نفسه الى حكامه بأن يطاولوا بين الخصوم ، وأن لا يبتوا في قضية وأن يحاولوا

ما استطاعوا توسيع الخلافات وتكثيرها ، ويعملوا على بث الشقاق بين الاسر والعشائر ، وكان الناس لا يزالون مأخوذين بالدجل الديني المتوكلي ، وكانت أكثر القضايا والثروات لا تزال مجمدة فاقبل الناس على هوءلاء الحكام وهم غافلون عما يراد بهم فاستقبلهم أولئك الحكام بشره زائد وراحوا يعقدون مشاكلهم ويطيلون قضاياهم ويوسعون خلافاتهم متأثرين بدافعين قويين وغرضين مقصودين :

أولهما : اثارة الشحناء ، وتعقيد العلاقات واساءتها بين المتخاصمين ، وهذا ما أوصى به الحكام من مشرعهم وامامهم كما سيتضح من حديث آت .

وثانيهما : استغلال الطرفين المتخاصمين بالتلويح لكل طرف آنا أن الحكم سيكون في صالحه ليدر على الحاكم المال الحرام كما سيأتي على تفصيل ذلك في فصل قادم .

ولقد كانت هذه الطريقة في المحاكمة وعلى هذا الاسلوب في القضاء الاول من نوعه في تاريخ اليمن مما لفت نظر بعض العلماء الذين كانوا ينظرون الى ما يجرى بأسف وألم مريرين ، فقد هالهم أن تكون فاتحة العهد المتوكلي الذى انتظره الناس طويلا ، وبذلوا في سبيله الدماء والاموال أشبه بعهد اباحي بالنسبة الى تهالك الحكام على أموال الناس .

لقد ساء أولئك العلماء الاخيار أن يروا حكام الامام الذين كانوا ينقمون على الاتراك اهمالهم الشريعة وأكلهم أموال الناس بالباطل قد أصبحوا شرا ممن نقموا عليهم فرفع أحدهم الى الامام في عام ١٣٣٦ قصيدة طويلة ونصيحة ثمينة ، لم يحضرني منها الان غير قوله :

فوا أسفا ما العذر للترك أننا
وعدنا باجراء الشريعة مطلقا
وقلنا لهم أنتم هدمتم بناءها
وقد كان قصر الحق يعلو الخورنقا
وأما اذا صارت الينا فاننا
سنجعل بين الحق والجور خندقا
فلما ملكنا خفها وسنامها
أضعنا وأبدينا اعتذارا ملفقا

ثم أخذ يشكو سوء ادارة الحكام وعدم فصلهم بين الخصوم ، فقال :

نعم ستراني مخبرا بحقيقة
وان كنت تدريها يقينا محققا
بأحوال حكام الزمان وأمرهم
لقد شربوا الاطماع كأسا معتقا
فشحّوا بأحكام الاله وضيقوا
إلى أن غدا الرحب الوسيع مضيقا

وقد ماطلوا الخصمين بالحكم أشهرا
ويشكون أن الغرب قد صار مشرقا
يسومونهم سوء العذاب وقولهم
سيخرج حكم بالتأمل دققا
وقد يخرج الحكم المدقق نادرا
وقد نال ذو الحق المضرّة والشقا
ومن بعد لا يرجى لذى الحق ناصر
لضبط غريم عنده الحق أشرقا

فيترك مع ذى الباطل الصرف مهملا

يحن على ما في الشريعة أنفقا

وقد يطلب استئناف حكم وقصده

ادانة خصم في الخصومة أملقا

وبعد ينادى الحق : لست تنالني

فقد صرت في هدب الثريا معلقا

أى أنه بعد أن تنتهي المحاكمة ، ويخلص الحاكم من عنته ومطله ، وينتهي الاستئناف من اقرار حكم جائر مناف للحق والشرع يقول الحق في حديث لصاحبه : " لست تنالني بعد اليوم فقد علقت في أهداب الثريا " . وهذا تصوير واقعي لم يجر فيه صاحبه ، وقد سقط لروعة الواقع المؤلم ، واستمرا. الفساد المهول فأكد ذلك للامام بالرغم من تأكيده السابق في مطلع المقطوعة بأنه عالم بذلك فيقول :

فهذا وكم منهم أعد مثاليا

ولكن تخذت الصمت عن ذاك مرفقا

فقل لامام العصر : دام موفقا

تفقد وفتش تلق قولي محققا

ولا تتغافل عن أمور رعية

فليس لهم غير الدعا قط مرفقا

القضاء في عهد الاستقلال

جرت الامور على هوى الامام يحيى وساعده الحظ ، وساعفه الاقدار فخاضت الحكومة التركية الحرب العالمية الاولى بجانب ألمانيا ، وانتهت تلك الحرب الطاحنة بجلاء الاتراك عن جميع الاقطار العربية بما في ذلك اليمن ، فأصدرت الحكومة العثمانية أمرها الى القائد سعيد باشا الذى كان ينازل الانجليز بعدن بالجلاء عن اليمن ، وأن يستسلم الجيش بكل معداته الى الانجليز تنفيذا لشروط الصلح الثقيلة التي اضطر العثمانيون الى

الاذعان لها مكرهين فتم التسليم وأسر القائد سعيد باشا في أوائل ١٣٣٧ ، ولكن القومندان أحمد توفيق والوالي محمود نديم أبيا الاستسلام الى الانجليز وفضلا تسليم ما بأيديهما الى الامام يحيى فاستدعياه الى صنعاء ، فدخلها في صفر ١٣٣٧ ، ومنها بعث ولاته وحكامه الى جميع أنحاء اليمن ، ولم تمر سنوات معدودة حتى أصبح كل ما كان تحت نفوذ الاتراك خاضعا لحكم الامام يحيى .

وكما اكتملت السيادة الخارجية للامام يحيى وتحرر سلطانه من خشية النفوذ الاجنبي قويت سلطته الداخلية قوة كبيرة ، اذ كانت الامة اليمنية في تلك الاونة مشلولة الاعصاب واهنة القوى ، فاقدة روح المقاومة بعد خروجها من تلك الحروب والثورات التي شنتها ضد الاتراك مدى سبعين عاما ، وعلى أثر ما سفكته من دماء وبذلته من أرواح ، وأنفقته من أموال في الدفاع عن وطنها وقد حسبت أنها في ظل الحكومة الوطنية ستتنفس الصعداء ، فألقت السلاح وأخلدت الى السكينة فتمكن الامام يحيى من اخضاعها والتغلب عليها ، وقمع الثورات التي قامت ضده في بعض مناطق القسم الشافعي في وقت قصير . وبذلك استقرت الامور وهدأت الاحوال ، واستتب الامن واستسلمت الامة اليمنية استسلاما نهائيا ، وانتظرت أن تجني ثمرة متاعبها التي قاستها في سبيل نصرة الامام ، وأن تنال ما كانت تحلم به من عدل وسعادة في ظل الحكم الجديد وعلى عرشه امام من آل الرسول طالما بكى الدين الذى ضيّعه الاتراك في اليمن ، وطالما ناح على العدل الذى ألغاه الاتراك في اليمن ، ونعى العلم الذى طمس معالمه الاتراك في اليمن ـ الامام الذى طالما آخذ الاتراك لاخذهم المكوس وشربهم المسكرات وملازمتهم للفجور وانتهابهم الاموال ،

المسكرات وملازمتهم للفجور وانتهابهم الاموال . وتضييعهم الحدود والحقوق وهتكهم الاعراض .

لقد انتظر الناس أن يفي الامام يحيى بوعوده فيبدلهم بخوفهم أمنا وبشقائهم سعادة ، وبظلمهم عدلا ، وبذلهم عزا ، وبجهلهم علما ، ولكنها لم تمض فترة قصيرة حتى عرف أذكياؤهم ومفكروهم أنهم انما خرجوا من سيء الى أسوأ ، ومن ظلمة واحدة الى ظلمات كثيرة ، ولكنهم لم يعرفوا ذلك الا بعد أن أفلت الزمام ، وقبض الامام على البلاد بيد من حديد ، اذ كان قد سبقهم فأرسل أمراءه الى الولاية وعماله وحكامه الى النواحي والقضوات ، وتركهم كلهم عالة على الاهالي يرتعون في أموالهم ويعبثون في أعراضهم فلم يقرر لهم مقررات ، ولا أجرى عليهم جرايات تجعلهم يقتصدون بعض الشيء في التكالب على أموال الناس ، وبقي الامر على هذا بضع سنين والحكام يعيثون في أموال الاهالي عبث الذئاب في الغنم غاب راعيها ، ولا من رقيب ولا من حسيب . والعلماء والمصلحون يناشدون الامام وينصحونه بأن يجعل لهذه الفوضى والاباحية حدا . وهو يقابل المناشدة بالسخرية والنصيحة بالاهمال ، حتى اذا ما اكتظت خزائنه بالاموال شعر بأنه من الواجب أن يعمل بالنصائح الكثيرة التي رفعت اليه بلزوم تقرير مقررات للموظفين على اختلاف طبقاتهم فأصدر أوامره بأن يجرى على كل حاكم من حكام النواحي ثلاثون ريالا (أي ما يساوي الان حوالي سبعة جنيهات استرلينية أو جنيهين في ذلك الوقت) ولكل حاكم من حكام القضوات خمسون ريالا .. كل هذا وهو يعرف أن هذا المبلغ لا يفي بنفقة أسبوع واحد ولا يسدد ما ينفقه الحاكم ثمنا للقات الذي يلاقي الكثيرون في سبيله عناء كبيرا . واذا كان المقرر لا يفي بثمن القات فما بالك بما يحتاجه الحاكم ذو الخدم والحشم والخيل والبغال والاولاد والمحاسيب لسائر نفقاته الضرورية والكمالية . ولقد حدثني من لا أتهمه أنه عرف حاكما كان معاشه ستين ريالا شهريا بينما نفقاته اليومية تنوف على خمسة عشر ريالا عدا ما تقتضيه العوارض والمناسبات وما يوفره لمستقبل أولاده . وليس لهذا الحاكم دخل من غير القضاء وانما يعتمد في كل ذلك على ما ينتهبه من المتنازعين .

سبعة وانهب لي ؟

وللتدليل على ما ذهبنا اليه من أن ولاة الامام يحيى ما كانوا يعيشون ويبرطرون الا مما ينهبونه من الاهالي ويحتالون به عليهم ، وأنهم كانوا يأتون ما أتوا وهم على اطمئنان من غضب الامام ونقمته عليهم نورد هنا قصة طريفة جرت مع الامام يحيى **للسيد محمد بن عبد الله بن زيد من أولاد الامام القاسم** وكان يعرف في صنعاء بـ "المفرج " وهي قصة طريفة نلخصها فيما يلي :

. آراد الامام يحيى في ١٣٤٢ أن يبعث السيد محمدا قائدا على رأس حملة لاخضاع أهالي ناحية "برع" فاستدعاه الى مقامه ولما جاءه وجد الامام في حوش المقام على مصطبة من الحجر وحوله كتبته ورجال دولته قاعدين على التراب ، وكان يعتبر هذا الحوش المحل الرسمي للمواجهة العامة التي لم يتركها الامام يحيى طيلة حكمه المديد .

ولما مثل بين يدي الامام أبلغه أمره بتعيينه قائدا وأنه قد رتب له راتبا قدره سبعة ريالات شهريا .. ثم ألزمه بمغادرة صنعاء في اليوم التالي . ولما كان السيد محمد من الاشخاص الذين لا تفي السبعة ريالات بنفقتهم ليوم واحد فقد أراد أن يقدم

طاعته للامام ويرجوه اعادة النظر في أمر المقرر لان المبلغ لا يكفى لنفقة جندى بسيط فضلا عن قائد كبير من آل القاسم ، ولكن الامام أقنعه بصرامة بأن المقرر كاف مع الاقتصاد .

ونحن ذهبت مراجعة السيد محمد عبثا أذعن لامر الامام ، وقال له : " مرحبا .. سبعة ، وانهب لى" — مريدا أن يخوله الامام نهب ما وقع فى يده من أموال الاهالى وقد أراد بذلك أن يحمل الامام على توفير راتبه ، لاعتقاده أنه لن يسوغ له نهب أموال الناس علنا وعلى مسمع من الملتفين حوله ولكنه فوجىء بجواب الامام يقول : " نعم ، سبعة وانهب لك " فلم يسعه بعد أن سمع هذا الجواب من جلالة الامام الا أن ينكفىء راجعا ، وبينما هو فى طريقه فى ساحة المقام اذ طارت دجاجة من دجاج المقام الشريف فوقعت بين يديه فأخذها وقال : " من هنا نبدأ " . ولما أراد أحد الجند أن ينتزع منه الدجاجة أبى عليه ذلك محتجا بأن الامام قد أباح له نهب كل ما وقع في يده ، فتعالت الضحكات حتى بلغت مسامع الامام فسأل عن سببها فأخبر بما فعل السيد محمد وما قال فاستدعاه اليه مرة أخرى فعاد والدجاجة في يده ولما أعاد على مسامعه تلك الحجة (الشريفة) التى أقنع بها الجندى أغرق الامام في الضحك ، وانتظر الحاضرون أن يهتز الامام لهذه النكتة فيوفر معاش القائد ولكنها ضحكة لم تدع السيد محمد يفلت حتى أعاد الدجاجة الى أحد خدم الامام وخرج مصحوبا بدعوة من أمير المؤمنين بأن يفتح الله عليه بما ينتهبه من أموال الرعية لا من أموال الامام نفسه .

وقصة أخرى جرت لي أنا بالذات . ففي سنة (١٣٦١) تعينت في محكمة المخادر وتعين في نفس اليوم في محكمة مغرب عنس السيد محمد بن حسن الوزير وتعين السيد عبد الوهاب بن يحيى الوزير في محكمة وصاب العالي وتبلغنا جميعا المرسومات "الشريفة" وفوجئنا بصدمة كبرى فقد وجدنا بخط الامام يحيى ما يفيد أن يجرى لكل واحد منا عشرون ريالا .. عشرون ريالا فقط فاجتمعنا وقدمنا مراجعة فأهملت ثم اجتمعنا وقدمنا مرة أخرى وقلنا : لنعد المراجعة ، وعلى الاقل اننا قد نظفر بتقرير شيء من الطعام وتقدمت أنا بهذه المراجعة وكان مجلس الامام غاصا بأكابر العلماء والحكام والكتبة وكان يجلس بالقرب من مجلس الامام وزيره ومدبر دولته القاضى عبد الله العمرى . فقدمت الورقة الى العمرى ليقدمها الى الامام فقدمها وتأملها الامام بامتعاض مصطنع ولما انتهى من تأملها ألقاها في المهملات وقال " دا،هم عاد يلغمجوا" أى أننا سنحصل من الرعايا أموالا غير المعاش وعندما سمعت ما قال قلت في نفسي فلنلغمج فلنلغمج وذكرت كلمة السيد محمد بن زيد "سبعة وانهب لي" وقابلت بعد ذلك القاضى عبد الله العمرى في بيته فقال : محاولة الزيادة محاولة فاشلة والمعاش ليس الا سبب فقط فافعلوا مثل ما يفعل الناس والمهم أن لا يشكو بكم أحد فليكن عندكم حذق وبصر . ونحن نسجل هنا هاتين القصتين للاجيال ، وغرضنا من تسجيلها فوق ما أشرنا اليه آنفا التدليل على قلة مقررات موظفي الحكومة المتوكلية ، وان الامام — كما قلنا — على علم بما يجريه موظفوه من السلب والانتهاب ، وأن ذلك عن اذنه وأمره ، ولا يمكن أن يرتاب أحد بذلك لا سيما اذا علم أن معاش رئيس كتبة ديوان الامام يحيى لم يكن يتجاوز ثلاثين ريالا شهريا ، كما كانت معاشات سائر الكتبة تتراوح بين العشرة والعشرين ، ثم نحن نراهم وعلى مرأى من الامام ومسمع يتقلبون في النعيم وتقدر ثرواتهم

بمئات الالوف وفيهم من تناهز ثروته الملبون فاذا لم تكن هذه الثروات الضخمة التي كونها العمال والحكام وكبار الموظفين في المقام الشريف قد جمعت من عرق جبين الفلاح المسكين والتاجر والصانع ، ومن ثمار أتعابهم وجهودهم فمن أين يا ترى أتت مع ما عرفته من قلة المقررات ، وكثيرا ما تساءل الناس عن سر تغاضي الامام عما يجري حوله من التكالب على أموال الناس مع تظاهره بالغيرة على الدين وعلى الشريعة ، وفاتهم أن ذلك قائم على تبادل المصلحة بينه وبين أولئك اللصوص الموظفين فقد كان يحب المال حبا جما ، وكان على علمه بحاجة موظفيه الى المال حاجة ماسة لانقطاعهم لتأدية الوظائف عن أي كسب يرتزقون منه كان لا تسمح نفسه بتسديد مطالبهم من خزائنه ولم يبق أمامه الا أن يحيلهم على مواطنيهم ، وأن يشتركوا جميعا في هذا المرتع الخصيب فيأتوا على ما فيه من كلاء ولا يستوبلوه الا بعد أن يصير أجرد قاحلا .

المذهب الزيـــدي

*** توطئة وتمهيد :**

يذكر القارىء مما مرّ بنا أن الحكومة العثمانية حين تحادثت مع الامام يحيى خلال الحرب العالمية الاولى اتفقت معه على أن يولي من قبله القضاة الشرعيين في المناطق الزيدية ، بينما يتولى قضاة الحكومة العثمانية القضاء في المناطق المتمذهب أهلها الشافعية ، فكان في هذا ما يعتبره الامام يحيى تحكما عليه ، واستئثارا من الاتراك بالسلطة في تلك الجهات لان أهلها لا يفكرون فيه ولا يتطلبون حكمه ولا يفضلونه على حكم الاتراك ، فقبل حينذاك هذا التحكم وأسرّها في نفسه ، وعقد العزم على أن يمحو الشافعية من اليمن حين يتم له الامر ، فكان أن أمر أولا أن يعمل باختياراته في البلاد كلها لما له من حق التشريع باعتباره اماما لليمن كلها وليس لمنطقة أو طائفة معينة ، ثم تدرج في نشر المذهب الزيدي بارسال الحكام الزيود الى المناطق الشافعية ليقضوا بين الناس على أحكام المذهب الزيدي ، وقد رسم الخطة باحكام من كل ناحية فهو قد أمر بتنفيذ اختياراته وأرسل حكام مذهبه الى المناطق الشافعية كما أنه — وهذا مهم جدا — قد حفظ على المدارس العلمية في البلاد الزيدية أوقافها وشجع هذه المدارس في صنعاء وشهارة وحجة وحوث والمحابشة وغيرها من مراكز الزيدية ومعاقلها في حين احتال على أوقاف المؤسسات العلمية في البلاد الشافعية وفرق علماءها وشغلهم عن التعليم وألهاهم بالوظائف كما أنه افتتح في المدن الشافعية الكبيرة مدارس تتلقف الاولاد منذ نشأتهم لتضع أعمارهم وتتحول بهم عن دعائم المساجد حيث يدرسون المذهب الشافعي على فقهائهم كما يدرس أبناء الزيود متن الامام المهدي في أروقة المساجد وزوايا المنازل التي يهاجر فيها خريجو المدارس العلمية بشهارة وغيرها .

ولكي يتأكد القارىء من صدق ما ذهبنا اليه ندعوه لان يحصي القضاة الشوافع في البلاد اليمنية ، ثم يحصي المدارس لابناء الشوافع الذين يكونون الغالبية العظمى في البلاد وتحتل مناطقهم أكبر المساحات الخصبة التي تمون خزينة الدولة وتعتمد

على مواردها الحكومة في بناء ميزانيتها وفيها تقع الجماريك التي تدخل عن طريقها البضائع من الخارج ليدر دخولها على ميزانية الدولة مبالغ هائلة من الضرائب التي تفرض عليها.

*

ولما كان الامام يحيى قد اخذ على حكامه أن لا يقضوا بغير المذهب الزيدى الا فيما كان له اختيار خاص فيه فقد رأينا لزاما أن نستعرض هذا المذهب بشيء من التحليل بصفته المذهب الحاكم في اليمن فيتعرف القارئ على أصل هام من أصول القضاء في اليمن ان لم يكن هو الاصل الوحيد.

الزيدية :

ربما لا يفهم القارئ من قولهم المذهب الزيدى الا أنه مذهب الامام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، كما تعطيه هذه النسبة قياسا على قولهم المذهب الشافعي نسبة الى الامام محمد بن ادريس الشافعي، والمالكي نسبة الى الامام مالك، والحنفي نسبة الى الامام أبي حنيفة، والحنبلي نسبة الى الامام أحمد بن حنبل. والمعروف عن أتباع هذه المذاهب أن لها أصولا يفرعون عليها ويخرجون منها بحيث يتمشى كل ما يقولونه على كلام ذلك الامام فيقل أو ينعدم أن يكون لهم رأيان معتمدان في حكم واحد. وليس كذلك المذهب الزيدى فهو لا يرجع الى الامام زيد ولا الى غيره. وأتباعه لا يجعلون كلام زيد أصلا تتمشى عليه الاحكام، بل كثيرا ما يخالفونه، وهم أكثر موافقة للهادى يحيى بن الحسين منهم لزيد رحمه الله، مع أنهم قد يخالفون الهادى في كثير من المسائل. فالمذهب الزيدى اذا هو نتيجة أفكار كثيرة لعلماء عاشوا في قرون متباعدة، يبتدئون بالامام زيد بن علي، وينتهون بمن يسمونهم مقررى

المذهب، وهم: الشبيبي، والسحبي، والاكوع، والقاضي دلامه — الدماريون. وقد انتهى بعدهم التقرير والتخريج. وبين البداية والنهاية علماء كثيرون لهم أنظار وأقوال محترمة معتمدة، ومن هنا كثرت الحواشي والتعليقات على الحواشي بصورة تدعو الى الاغراق في الضحك، ولو قدر للقارئ أن يطلع على نسخة خطية من شرح الازهار ورأى المتن قد كتب بالحمرة متخللا الشرح وعلى الشرح حواش لها رموز متسلسلة الارقام وعلى هذه الحواشي تعليقات لها رموز خاصة، وعلى التعليقات جرات قد تميزت بخط يمتد من موضعها الى مرجعها وأكثرها متضاربة متناقضة — لرأى ما يدعو الى الضحك والاسف معا ولعرف سر ذلك التناقض الذى يشكو الناس شيوعه في القضاء.

والى جانب ذلك اختيارات الائمة فكل امام له اختيارات في احكام المعاملات يعمل باختيارات كل واحد منهم ويقضي بين الناس بمقتضاها وبالخاصة المتولي منهم كالامام أحمد وقد يكون في الائمة من هو مفلس في علوم الكتاب والسنة أو قليل البضاعة في ذلك والكتاب والسنة هما المعين الصافي للتشريع الاسلامي ولو أتيح لك الاطلاع على نصوص الاختيارات لكل امام لرأيت من التناقض ما يدهشك ولذلك فقد جاءت الفوضى في القضاء وتبعا للفوضى في المذهب وللفوضى في اختيارات الائمة فقد يقضي الحاكم في المسألة ويستند في حكمه الى ما نص عليه الامام المهدى في الازهار ويأتي الحاكم الثاني فينقض ذلك الحكم مستندا الى ما قرره ابن مفتاح في الشرح ويجيء الثالث فينقض الحكمين ويقول ان المنصوص عليه في حواشي الازهار هو غير ما قاله الحاكمان قبله ويستند حاكم رابع الى

التعليقات وحاكم الى الحرات وسادس الى اختيارات الامام المتوكل وسابع الى اختيارات الناصر لدين الله .

وهذه الفوضى هي التي حملت بعض علماء الزيدية أن يتساءل عما اذا كان لهذا المذهب امام معين ينتسب اليه فيقول :

أيها الاعلام من ساداتنـــا
ومصابيح دياجي المشكــل
خبرونا هل لنا من مذهـــب
نقتفي في القول أو في المعمل
أم تركنا هملا نرعى بـــلا
سائم نقفوه نهج السبــل
فاذا قلنا ليحيى قيــل : لا
ههنا الحق لزيد بن علي
فاذا قلنا لزيــد حكمــوا
أن يحيى قوله الحق الجلي
فاذا قلنا لهذا أو لــــذا
فهم خير جميع الملــل
أسواهم من بنـــي فاطمــة
أمناء الوحـي بعد الرســل
قرروا المذهب قــولا خارجـا
عن نصوص الال فابحث وسل
ان يكن قرره مجتهــــــد
كان تقليدا له كالاول
أو يكن قرره مــن دونــه
فقد انسد طريق الجـــدل
ثم من ناظر أو جادل أو
رام كشفا للذى لم ينجــل
قدحوا في دينه واتخذوا
عرضه مرمى سهام المنصــل

واذا فالمشكلة قديمة والداء مزمن الا أن ذلك لم يكن هو السبب الرئيسي أو الوحيد لما أصاب القضاء من فساد وما جر ذلك على الناس من بلاء وويل ، ولا يعفى وجوده الحكومة والقضاء من وزر التلاعب بالشريعة والعبث بأحكامها فانهم لا يتخالفون تحمسا لما يعتقدون ولكن لما به ينتفعون ، وليس التجاؤهم الى التعليقات والحواشي والجرات والاختيارات وقول الامام فلان والفقيه علان الا جريا وراء وسيلة تبرر لهم ابتزاز الاموال الحرام ، لا بحثا عن الحقيقة أو تعصبا لرأى ما .

ومهما كان الامر فقد كانت فوضوية هذا المذهب من الابواب الكبيرة التي يلج منها القضاة لاكل السحت ويمدون منها بأيديهم للعبث بالحقوق وما كان أحذر الحكومة المتوكلية ما دامت قد فرضت على الناس التقاضي الى مذهبها بأن تعيّن لجنة من علمائه تكلفهم بوضع كتاب خاص في المعاملات يكون سهل التناول قريب المأخذ مبرءا عن الاقوال المتضاربة والانظار المتناقضة ويكون أكثر ملاءمة للزمان وكفالة بحاجة الناس ، ولو فعلت ذلك لقللت من فساد القضاء وعبثه ، ولكن هيهات أن تعنى بشؤون الناس أو تعمل على فحص مشاكلهم ، وهي التي بذرت بذورها وغرست أصولها ، وشذبت فروعها .

فوضوية الادارة القضائيـــة

ان أقل ما توصف به طريقة المحاكمة في اليمن هو أنها طريقة فوضوية لا قاعدة لها مرعية ، ولا منهج تسير عليه فهي تمثل الفوضى بكل ما في هذه الكلمة من معنى . وقد قالوا ان الظلم المرتب خير من العدل المشوش ، ونحن نقول ان الظلم هو الظلم

الذى معناه وضع الشيء في غير موضعه سواء كان منظما أو غير منظم ـ كما أن العدل خير كله ما لم يوضع في غير محله فيستلزم ظلم آخرين فانه يخرج حينئذ عن مسماه ويدخل في مسمى الجور ، وقديما قال شاعر العربية :

(وحلم الفتى في غير موضعه جهل)

ولكنا مع ذلك لا ننكر أن النظام ما دخل في شيء الا زانه وانه لو طرق باب المحاكم لخفف بعض ما يعانيه الناس من فوضى المحاكمة المتروكة لاهواء الحكام ونوازعهم المتضاربة التى تمليها أطماعهم ونهافتهم على الاموال وما يتبع ذلك من تطويل النزاع واثارة الخصام بين الناس ، ولكن الحاكمين في اليمن لامر ما لم يشاءوا أن يجعلوا للمحاكم منهجا وللمحاكمات جدولا فتركوا حبل الامر على غاربه ، فاختط كل حاكم طريقة خاصة بحسب ما يحلو له ، ويراه كافلا لمصالحه ، وافيا بأغراضه ، وكثيرا ما يعزل الحاكم أو يموت فيخلفه غيره على عمله فيضع هو الاخر منهجا يتلاءم مع هواه ومطامعه ، ويقاسي الرعية من جراء ذلك عنتا وارهاقا لا حد لهما .

ونحن لو أردنا أن نشرح طريقة كل حاكم في المحاكمة لطال بنا وبالقارىء الامر ولانتهى بنا الى العجز وبه الى الملل ، ولكني أضع في فصل قادم صورة للطريقة الغالبة التى يمكن أن تعتبر أحسن الطرق المبتكرة بحيث لو استوصف أحد الحكام لادعى أنها هي طريقته التى يسلكها ويشرحها فخورا مزهوا .

وقبل أن نشرع في بيان طريقة المحاكمة نقدم للقارىء بيانا عن محلاتها ، كما نتحفه بشيء من شرح حياة القاضي اليومية وكيف يقضيها لتكون عنده صورة كاملة لهذه الفوضى التى تتمثل في كل شأن من شؤون القضاء .

كيف يقضي الحاكم يومه

من المعروف أن القاعدة المرعية في العالم أن تكون المحاكم الشرعية في دوائر حكومية رسمية يؤمها الحاكم والمتحاكمون في أوقات معينة ، حتى لا يجد المتحاكمون عناء ، ولا عنتا ، ولكن الامر في اليمن لا يجرى على هذه القاعدة فليس للحاكم محل رسمي يقعد فيه للقضاء بأوقاته الخاصة ، ولا نظام له معروف يشعره بالمسئولية ، ويكفي الناس من عناء الجرى وراءه ، وانما يجرى المحاكمات في داره الخاص الذى فيه أهله وولده أو في المسجد حيث يشغل المصلين عن صلاتهم أو بطريقه الى الدورة حيث لا قيد للدعاوى ولا تسجيل للحجج والبراهين وكثيرا ما يأتي الخصوم بالشهود لتسجيل شهاداتهم فيسجلها الحاكم أو كاتبه في الطريق أو على باب الدار أو في صحن المسجد في أوراق مقطعة لا تلبث أن تسقط فيضطر الى أن يكلف ذلك باعادة الشهود مرة أخرى .

والحاكم يقضي وقته في الغالب على النحو الاتى :

يقوم في الصباح متأخرا فيخرج الى باب داره للمواجهة حيث يجد الجند قد شكلوا شبه دائرة ووضعوا له مقعدا من الحجر في وسطها فيجيء الناس من وراء الدائرة ليدخلوا ارسالا للنظر في شؤونهم ، وهيهات أن يتم الدخول الا بصورة فوضوية اذ لا يلبث أعتى الخصمين أن يمد يده بشيء من المال الى أحد الجند القائمين فيأخذ بيده ، ويضعه بين يدى الحاكم بينما يكون خصمه

خارجا يصيح ويحتج فاذا سمحوا له بالدخول ووقف الاثنان معا في " موقف الشرع الشريف " نظر الحاكم في أمرهما واستمع اليهما بين صحيح من وراء الحلقة حتى يتعذر عليه في الغالب أن يعي من أمرهما شيئا ، فيقوم غاضبا الى الدورة فيتبعه الخصوم ويتداعون وهم يمشون ويتقاضون في نهاية الدورة ويتحاكمون في عوده الى داره وكثيرا ما نراه وقد اعتلى جواده أو بغلته واطلق لها العنان والناس يسعون وراءه جاهدين ويصيحون بكل أصواتهم : يا مولاي ، يا سيدي عبد الله وعبدك . جار الله وجارك وهكذا فترى صورة منكرة وتسمع صخبا موءذيا .

يعود الحاكم الى بيته للغداء وبعده ينزل الى محل المقيل الذي يبقى فيه يمضغ القات بضع ساعات ولا يسمح لاحد بالدخول في هذا الوقت الا اذا كان من خاصته ، أو كان من المتحاكمين الاثرياء الذين يقدمون (لفضيلة) الحاكم الهدايا من القات وغيره فهوءلاء لهم أن يدخلوا الى الحاكم ، ولهم أن يجلسوا لديه وخصومهم من وراء الابواب ، فقد جهل الحكام أو تجاهلوا واجب التسوية بين الخصمين في وجوههم ومجالسهم وقضائهم .

وبعد أن يأخذ الحاكم قسطه من الراحة بمضغ القات يبدأ بعد العصر بالاذن للمتحاكمين بالدخول فيمثلون في دخولهم تلك الفوضى التي شرحناها لان الاذن لهم يتوقف على تسديد حق التبليغ للبواب فمن نقدها أولا سمح له بالدخول وان كان خصمه على الباب .

ويأتي المغرب فيقوم الحاكم للصلاة ، ويتفرق الناس على غير طائل ، وما تنقضي ساعتان من الليل حتى يتحول دار الحاكم الى وكر من أوكار اللصوص فيتسرب اليه الذين يساومونه في دينه ويعطونه الرشوة المحرمة الملعون آخذها ومعطيها ، ويستمر السمر حتى منتصف الليل وفي نهايتها يقوم الحاكم الى النوم وهكذا دواليك .

ونحن نترك للقراء مهمة التعليق على هذا النظام وحسبنا أن نورد الحقائق على حسب وقوعها دونما تعليق عليها .

طريقة المحاكمة

تبتدىء المحاكمة بأن يأتي أحد الخصمين الى القاضي شاكيا خصمه ويرجوه أن يمنحه احضارا ـ استدعاء ـ لخصمه ليحضر الى المحاكمة لانصافه فيجيبه الحاكم الى ما طلب لانه يرى من مصلحته تكثير عدد الخصوم لتكثر سهم المنح التي ينتظرها منهم . ويذهب الشاكي بالاحضار وقد يعرضه على خصمه وقد لا يعرضه ، فهذا مما لايهم الحاكم ، وانما يهمه أن يعود اليه الشاكي فيقدم له ريالا أو ريالين أو شيئا من القات أو السمن يقوم بذلك نظير أن ينفذ الحاكم (يرسل) جندي أو جنديين لجلب غريمه الى المحكمة .

دور الجنـــــدي :

ما أن يبلغ سمع القاضي طلب الشاكي للتنفيذ ، ويتحقق من تسليمه الرشوة الى أحد خدمه حتى

يسارع بارسال العدد الذى طلبه الشاكي من الجنود دون أن يفهم ما كنه الطلب ولا ما هي الدعوى ، وكثيرا ما يكون الخلاف على شيء تافه لا تبلغ قيمته بعض ما سيدفعه الخصمان للجندى وصاحبه ، والحاكم وكاتبه وحاجبه .

وقد يحدث أن يكذب المدعي على الحاكم بأن خصمه أبى الحضور فيسارع هذا بارسال الجند في حين يكون الخصم قد وصل ملبيا دعوة خصمه ، ولكن هذا أيضا لا يعفيه من أجرة الجندى الذى اعتزم ارساله ، فيسلم له أجرة "الفكاكة" وسنأتي على ذكر مبدئها وأصلها في حديث آت . ولقد كان في وسع الحاكم أن ينصب أمينا في كل قرية لحل مثل هذه البسائط والتوافه ولكنه يريد أن لا تفوته شاردة ولا واردة ، ولذا فليذهب الجنود لايصال الغرماء مهما كان مبعث الاختلاف بينهم تافها وبسيطا .

ويذهب الجندى حين يذهب فيمكث يوما أو يومين في بيت ذلك الغريم بين أهله وأولاده يكلفهم خلالهما في الغالب من النفقة والقات والتتن ، والعرض والكرامة شططا مما يعرفه كل يمني . ويعود الجندى بالغريم الى الحاكم فيفرض له أجرة لا تقل عن ريال في المسافة التي تأخذ بين الساعتين والثلاث مضافا اليها نفقة الجندى ليوم وصوله مركز المحكمة ، وتنتهي مهمة الجندى هنا .

*

ويمكث الغريمان أياما على باب المحكمة ينتظران دورهما للحضور الى موقف الحاكم وقد يطول بهما الانتظار الى أن يتقدم أحدهما الى البواب – الحاجب – بمنحة تسمى "حق التبليغ" والى الكاتب بأخرى ليستدعيهما الى الحاكم ، ويقوم برقم دعواهما في دفتره .

حق الموقف : يذكر القارىء مما مر بنا في فصل سابق ان الحكام في عهد الائمة السابقين وفي اوائل عهد الامام يحيى لم يكونوا يتقاضون رواتب مقابل قيامهم في فصل الخصومات بين الناس فكان لابد من ان يتناولوا الاجر على عملهم من المتخاصمين غير ان بعض المتخاصمين كانوا يصطلحون فيما بينهم بعد ان يجلسوا مع القاضي جلستين او اكثر او اقل فلا يعودون اليه . ولما كان لم يتول هو الصلح بينهم فلا حق له في اجر عليهم .وبذا كانت تذهب بعض جهود القضاة دون ان يجنوا ربحا ، ولما كانوا ضعيفي الخطر في المجتمع آنذاك ، ولم تكن للامام قدرة على ان يرغمهم على استمرار التقاضي ليعطوا قاصيه الاجر في النهاية فقد اتفق على ان ينقد المتخاصمان الحاكم اجره كل موقف (جلسة) يقفانه امامه حين انتهاء الموقف – وتبتدىء هذه الاجرة من البقشتين وهي نصف عشر الريال وتتصاعد الى ماشاءت اهواء المتخاصمين في تغريم بعضهم البعض اذ يلزم كل خصم ان يدفع مادفعه خصمه بالسوية فيرفع احدهما القدر قصدا لتغريم خصمه وهكذا حتى تبلغ في بعض الحالات اكثر من خمسة ريالات .

وقد ابتكر قضاة الائمة هذه الوسيلة لئلا تذهب ايامهم عبثا ، وسار على هذا النهج من وليهم من حكام الامام يحى حتى بعد ان تقررت لهم المعاشات .

وبعد ان يتمكن المتخاصمان من الدخول الى صحن المحكمة يقفان امام الحاكم ليدلي كل بما عنده . وربما لايتجاوز الموقف بضع كلمات ولكن ذلك لايمنع من نقدهما ما لا بد من نقده للحاكم ضريبة "حق الموقف" التي تحدثنا عنها . وهذه الضريبة تختلف باختلاف الخصماء فقد تكون ريالا وقد تقل عنه وتنتهي قلتها – كما سبق ان قلنا – الى البقشتين وقد تحمل احد الخصمين نزوة من نزوات الغضب – ولا سيما ان كان ثريا يريد ان يرهق خصمه ويرغمه على الانهزام فيدفع للحاكم باسم حق الموقف خمسة ريالات او ثمانية ويكون خصمه في مثل هذه مجبورا على ان يجاريه فيما دفع والا فالويل له ان تقاعس او اعتذر وقد تمضي الشهور ، وتنقضي الاعوام والغرماء في مركز القضاء والحاكم يمتص اموالهما شيئا فشيئا حتى يبلغ في كثير من الاحيان ما يأخذه الحاكم اضعاف ثمن المتنازع عليه وقلما يلفظهما حتى يصبحا اسفنجة ناشفة .

اجرة الاحكام :

ابتكر قضاة الائمة ضريبة "حق الموقف" للتعويض بها عن اجرتهم لقيامهم بالقضاء حين تفقد عليهم من الخصوم الذين يصطلحون فيما بينهم ،ولكنهم لم يصرحوا للقبائل بهذا حتى لايفقدهم ذلك الاجرة الاصيلة ممن يكملون المنازعة على ايديهم وقد سميت هذه الضريبة الثانية او الضريبة الاصلية الاولى على الاصح : (اجرة الاحكام) .. وقد كانت هذه الضريبة طبيعية حين لم يكن للامام مورد ينفق منه على قضاة الشرع وحين لم يكن القضاة يستلمون اجورهم تقسيط باسم "حق الموقف" . ولكن العجيب بل والاعجب ان تفرض الضريبتان كلتاهما بعد ان فاضت خرائن الامام بالاموال فقد اصبح القاضي الان بعد ان يفرغ من القضية وينتهي الى رأى فيها يخطر الخصمين بقرب صدور الحكم ، ويفرض عليهما هذه الضريبة (ضريبة اجرةالاحكام) يقدرها هو على حسب امكانية المتخاصمين من ناحية ، والمدة التي استغرقت للنظر في القضية ثم نوعها من ناحية اخرى وهل هي في ميراث او نفقة زوجة مطلقة او شفعة او .. او .. او .. مما تعج به حياة اليمني من المشاكل فيدفع الخصمان مبلغا باسم الحاكم ومبلغا باسم الكاتب ، وثالثا باسم البواب او المسلم .

المرحلة الاخيرة المســـاومة :

يعين الحاكم بعد استلام الاجرة يوما يحضر فيه الخصمان لتبليغهما الاحكام ،ولا بد من ان تمضي فترة استراحة قبل حلول هذا اليوم يتمكن فيها الغريمان او احدهما من تقديم رشوة كبيرة للحاكم لكي يجعل الحكم في صالح الراشي او اقل من القليل من يتورع عن اخذ هذه الرشوة بل كثيرا ما يأخذ الحكام الرشا من الخصمين ، ثم يكون الحكم في صالح اوفرهما منحة واكثرهما عطية ، وكما تتدخل الرشوة في تحويل اتجاه الحكم كذلك تتدخل في تحريف الشهادات والبراهين بواسطة الكاتب وربما بواسطة الحاكم نفسه ، وما أشدها صدمة على المحكوم عليه حين يتبلغ حكما لم يكن ينتظره فهو يستند الى حجج لم يدل بها ويسمع اقوالا لم يقلها . ولا يستطيع المرء ان يتصور العنيفة ، ولا ان يتمثل الهياج العصبي آنذاك عند هذا المسكين الا اذا عرفنا انه قد يعمد الى قتل خصمه في موقف الحاكم ، وهذا ما كان يجرى كثيرا في مقام الامام نفسه فقد حدث ان قتل الشيخ العوسجي خصمه في موقف حاكم المقام ، وحاول ان يقتل الحاكم نفسه

بعد سماعه نص الحكم الذى املته الرشوة ، وكتبه الهوى لو لا ان الحاكم نجا بنفسه فارا .. وقد تحامى الحكام تبليغ الخصوم نصوص احكامهم في قاعة المحاكمة كما كانت العادة ، وعمدوا الى طي الاحكام وتسليمها الى الخصوم مطوية ليتولى كل واحد قراءتها لنفسه حتى لايواجه خصمه او يصل الى الحاكم الا بعد ان تكون اعصابه قد هدأت وأصبح قادرا على تقدير عواقب تهوره في الانتقام .

ولما كان الانسان لايستطيع ان يتقبل الظلم راضيا ، وان يستسلم له عن طيب خاطر فان من يجحف بحقه في الحكم يعاند الى حد بعيد وقد يحمله عناده الى ان ينفق اكثر ثروته فيدلي باموا له الى الحكام ويغرم اضعاف ثمن المتنازع عليه وهو يرى ذلك اهون عليه بكثير من ان يتنازل لخصمه بحق او باطل عن شيء مما فيه النزاع ، ولذلك فانه لايكاد يسمع الحكم ، حتى يجن جنونه ،ويذهب الى احد الوكلاء او الفقهاء ليحرر له اعتراضا ينقد فيه الحكم ثم يقدمه الى الحاكم

وهذا بدوره يدفعه الى الخصم للرد عليه ، او يتولى هو الرد عليه في نظير جعل من المحكوم له . وقد عرفنا حكاما يتولون الاحكام ثم يجعلون وسائط لاخذها من المحكوم عليهم واعادتها اليهم لنقدها ، ثم يتولون الرد على هذا النقد ، كل ذلك لئلا يتسرب شيء من اموال المتحاكمين الى غيرهم . وبعد هذه الاجراءات يتسابق الخصمان الى المحكمة الاستئنافية بصنعاء

وكلاء الشـريعة
(المحامــون)

مر بنا في الفصل السابق ان من يجد الحكم قد كان ضده يسعى لنقضه والاعتراض عليه ، وهذا ليس بالامر الهين اذ يستلزم خبرة بعلوم الشريعة ، وحذقا لها ، وبصرا باموها ولما كانت المدارس اليمنية مقتصرة فيما تدرسه على علم قواعد اللغة ، وعلم الفقه فقد زخرت البلاد بالمثقفين الذين استغلت الحكومةالبعض منهم في القيام بوظيفة القضاء الشرعي ولجأ الاكثر منهم الى العمل في المحاماة او وكالة الشريعة على حد التعبير الشائع في اليمن .وهوءلاء هم الذين يقومون بعملية الاعتراض على احكام القضاة ليرتزقوا من وراء هذا العمل ولما كثر هوءلاء الوكلاء اندس بينهم ذي بدء كل من شدا في علم الفقه او تتلمذ على احد الشيوخ المشهورين ولو بضعة ايام ثم كثر هوءلاء المندسون حتى اربوا على المتعلمين ، واصبح اغلب وكلاء الشريعة ممن لا يفهمون عن الشريعة شيئا اللهم الا المداخل للانتقاص على الاحكام والتلاعب بها ، وما اكثر هذا الصنف في البلاد اليوم بل يكاد يكون هو الموجود ولا سواه .

ولما كانت كل مهمة لاتشرف الا بشرف محترفها ولا تصلح الا بصلاحه فقد وجب ان يكون محترف المحاماة على جانب كبير من النزاهة وحسن القصد ومتانة الاخلاق لان فساد القائمين بالمحاماة يوءدى بالتسلسل الى فساد القضآء والقضاة . وكما ان المرء لاينجح في عمل او يأتي بخير فيه الا اذا كان عارفا بمقتضياته واعيا فاهما لاصوله وفروعه فقد لزم ان يتضلع المحامي اولا في دراسة فقه الشريعة دراسة وافية شاملة ، ويلم الماما كاملا بأصول الديانة حتى لايصدر عن جهل او غباوة ، ولا يلج في خصومته ويتشدد في طلب الباطل والبهتان .

وللمحاماة في غير اليمن اهمية بالغة فلا يسمح بالقيام بها الا لمن كان متعلما تعليما عاليا قد درس الحقوق ونال الشهادة فيها فواجب المحامي ان يعمل على انارة السبيل للقضاء بغية الوصول الى الحقيقة وان يقتصد في الدفاع حين يكون الحق في الجانب الاخر ، وذلك ما لا يتأتى الا اذا كان المحامي على قسط وافر من العلم ، وحظ عظيم من متانة الخلق ونزاهةالقصد وكم سمعنا ان بعض كبراء المحامين ينسحبون من الدفاع عن قضايا تدر عليهم مالا وفيرا وهم على وشك كسبها لا لشيء الا لانهم عرفوا ان الحق في جانب خصومهم .

وكان قضاة اليمن فيما قبل هذه الفترة لايقبلون وكالة الجهال ،ولا من عرف عنهم انهم يجادلون بالباطل ، بل كانوا يشترطون في الوكيل الشرعي ان يكون في المرتبة الثانية من القاضي علما وورعا واستقامة وادراكا وعدالة وان يشارك القاضي في غرض الوصول الى الحق حيثما كان فان قضى القاضي بالحق اعانه الوكلاء على اقناع موكليهم بوجاهة الحكم ولزوم الوقوف عنده فيقل اللجاج في الخصام والاسترسال في المحاكمة فيوفرون بذلك على موكليهم وخصومهم الكثير من الوقت والمال . ولكن لما قامت الحكومة المتوكلية ، وعملت الاغراض السياسية في حياة الناس تناولت هذه الناحية يد الفوضى فيما تناولت من الاشياء ، وسادها الفساد كما ساد القضاء واحترفها الجهال ومن ليس عنده من المؤهلات الا القحة وسلاطة اللسان والجرأة على المجادلة بالباطل وغمط الحق ، ومحاولة التغلب على الخصوم بأي ثمن ، وكسب القضية بأي وسيلة من الوسائل غير المشروعة كارشاء الحكام وشراء الذمم ، وتزوير الحجج وتجرئة الشهود على شهادة الزور ، وتوسيع شقة الخلاف واتخاذ القضايا الشرعية مادة للارتزاق ، والعبث بالشريعة والحكام ، وانهاك الخصوم بالاغرام فكلهم ممن يصدق عليهم قول الشاعر :

ما وكلاء الشرع ان خاصموا
الا شياطين اولو باس
قوم غدا شرهم فاصلا
عنهم فباعوه من الناس

فكم افسدوا الاسر وشبوا بين العائلات نار الخلاف وأثاروا الضغائن والاحن وايقظوا نائم الفتنة ، واتخذهم الحكام آلة لجمع الحطام ، وشباكا لاصطياد المال الحرام ، وقنطرة يمشون عليها الى اغراضهم ، وسماسرة ينادون على الاحكام الشرعية كما ينادي السمسار على السلع في الاسواق .

وقد ضاعف المحنة ان كثيرا منهم تسلطوا على الحكام وعلى المقام الشريف فأصبحوا ينفذون اغراضهم بواسطة النقود ، واشتهر منهم فريق في عموم انحاء اليمن فقصدهم الناس من الجهات البعيدة ، وبالخاصة من كان الحق عليه فحالوا بين ذي الحق وحقه بمجادلتهم بالباطل وتوسلهم الى الاضرار بخصومهم بكل وسيلة وجعلوا كتاب المقام وأوامر الامام آلة لهذا الاضرار وأخص منهم بالذكر الحاج محمد عكارس ومحمد الرلب واحمد حيدر واحمد علاية ، والسيد علي السقاف فهؤلاء الذين بلغت اضرارهم بالامة كل مبلغ ، وناهيك به ضررا ان يكون يحي الامام نفسه من مشجعي هؤلاء ومستخدميهم لبث الشقاق بين من يريد لهم ذلك من الاسر ، ولايذاء بعض الشخصيات المحترمة التي كان لها مركزها المرموق في المجتمع ، وأعانتها استقامتها على حفظ هذا المركز ، ولم يجد جلالته للحط منهم الا بتسليط هؤلاء كما استخدم عكارسا

لايذاء السيد العلامة قاسم بن حسين العزى ابو طالب بالاحتساب عليه ومحاولة اثبات خيانته فيما تولاه من اموال الاوقاف ، وبرغم عجزه عن ذلك فقد ظل يطارده سنين وكما سلط هذا الوكيل نفسه على العلامة القاضي الصفي احمد الجرافي فأقامه محتسبا عليه زاعما انه سيء السيرة في اهل ناحيته (بلاد البستان) ولما عجز عن اثبات ذلك طلب الامام مشائخ البلاد وحاول ان يرغمهم على الوقوف بجانب الوكيل ،ولكنهم امتنعوا وشق عليهم ان يتهموا العامل النزيه فأمر بهم الامام فحبسوا . وقد كان لجلالة الامام هوى في ايذاء الصفى الجرافي غير ماأشرنا اليه من اتهامه باسآءة الادارة اثناء ولايته في بلاد البستان وذلك انه لما قام النزاع بين جلالة الامام وبين قائد عنقاد احد اهالي صنعاء حكم القاضي الجرافي حين اختصما اليه بما كان في صالح قائد عنقاد فأسرها الامام يحيى في نفسه ولا مانع من ان نستطرد ذكر القصة هنا بكاملها لما لها من صلة بموضوعنا في القضاء .

عنقـــاد والجرافي

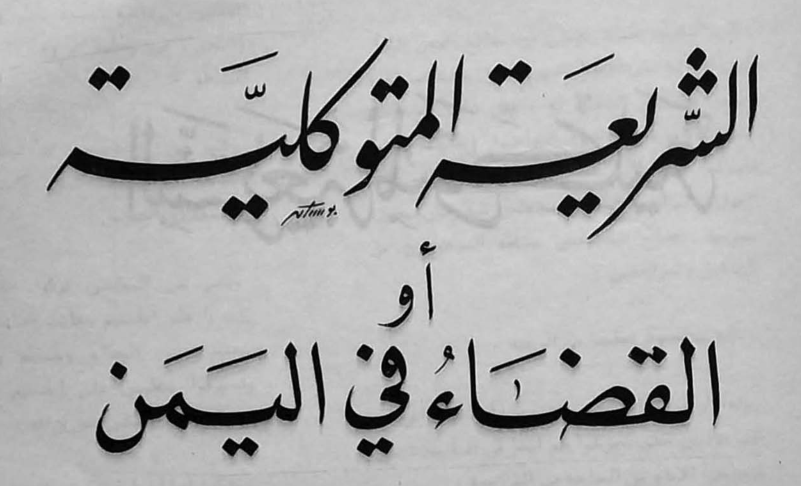
كان لعنقاد بيت انيق في حي بئر العزب ، وشاءت الصدفة السيئة ان يدعى الامام يحي في مناسبة من المناسبات الى بيت عنقاد للغدآء والمقيل فاعجب بالبيت ،وسآءه ان يكون مثل ذلك البيت الانيق ومثل تلك الحديقة الجميلة ملكا لاحد رعاياه فلم يخرج من ضيافة ذلك المخدوع بشرف دخول الامامة اليه الا وقد عقد النية على ان يضم هذا البيت الى بيوته الكثيرة التي في بئر العزب مهما كلفه الامر فأرسل اياديه الى عنقاد يقولون له : " ان الامام قد اعجب ببيتك فيحسن ان تقدم له حجج الشرآء وتحرر بظاهرها الهبة والامام سيعوضك بيتا عن هذا البيت " فأجابهم معتذرا بان البيت له ولشركائه ، ولا يمكنه التصرف به دونهم وانه يستبعد ان جلالة الامام يطمع ببيت احد رعاياه ، وليس له مسكن سواه ،بينما لجلالته بيوت كثيرة امثاله . فقالوا له : ان جلالة الامام سيعطيك بيتا يليق بك ويرفع رتبتك في الجيش ــ وكان مستخدما فيه ــ " فابى هذا ان يتناول ، ولو فعل لاراح نفسه من عناء كبير .

غير ان الفتى يلاقى المنايا
كالحات ولا يلاقى الهوانا

* * * *

ولكن الامام لم ييأس برغم صلابة عنقاد فعمد الى كبير وزرائه القاضي عبد الله العمرى ليقنع عنقادا بأسلوبه الخاص ففشل هو ايضا . وحينئذ تذكر امير المؤمنين ان هناك مسقى ــ مجرى للماء ــ يمر ببستان عنقاد ، ويخرج الى ملك الامام فأراد ان يتذرع به الى طلب الشفعة فأقام الدعوى بواسطة وكيله عكارس لدى حاكم المقام آنذاك السيد محمد ابن محمد الوزير وبرغم ان البيت قد بيع لعنقاد قبل مدة طويلة جدا ،وبرغم ان الامام قد علم بذلك وانه قد مضت مدة كبيرة على علمه ، وبرغم ان المذهب الزيدى وهو مذهب الغريمين الحاكم من المذاهب التي تقول بأن الشفعة فورية ، وتعمل بحديث " الشفعة كحل العقال" فان الحاكم لم يخجل من ان يحكم لمولاه الامام حكما اغرق الناس منه في الضحك ، وتلا حاكم المقام غيره من حكام صنعاء وكلما صدر حكم ضد عنقاد راجع بالغلط وافحم الامامة بأدلته وبراهينه ، حتى استقر الامر اخيرا على احالة المسألة الى القاضي الجرافي ، ورضي عنقاد الرجل الصلب العنود الذى لم يلن امام وعد الامام ووعيده رضي بما يقضي به الجرافي ، وكان هذا الحاكم من الورع في المحل الذى قدره عنقاد

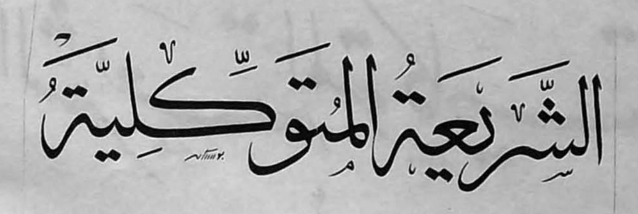
فقد خالف الحكام الاولين وقضى على جلالة الامام قضآء لم يستطع الحكام ان ينقضوه بعده لأن الحق في جانبه ، وعجز الاستئناف ، وبهت المجلس النيابي وهو شعبه من الاستئناف ، ولم يعملوا شيئا امام صلابة الخصم ، ووجاهة الحكم . وبرغم مراجعة وكيل الامام المتكررة ، وبرغم غضبه على الجرافي فقد ظلت المسألة تتردد بين الاستئناف والمجلس ثم كان طرحها ولم يبت فيها الى اليوم بشيء . ولذا فقد كان غضب جلالته الامام على الجرافي شديدا لم يطفئه عزله عن عمله – وكان عاملا على بلاد البستان – حتى نصب وكيله عكارسا محتسبا عليه ، محاولا ادانته بالخيانة ليحط من كرامته ويشوه سمعته وينزل من مركزه المرموق في المجتمع ، ولكنه لم يحصل على شيء من ذلك بل على العكس زاده نباهة ورفعة .



الجزء الثاني

اين الشريعة اصبحت موتوفد
في خدمة الاغراض والاهواء
ذهبت قداستها وطاح بعزها
عنف الرعاة وقسوة الامراء
فذوت نضارة روحها اذ ارويت
بمدامع البوءساء والضعفاء
وغدت بأيدى الظالمين مخالبا
حمرا تعيث بأمة بلهاء
لم يرفعوا التكليف عنها وهي في ال
نفس الاخير تجود بالحوباء
فكأنهم دود على اشلائها
تقتات من قيح بها ودماء
عكفوا على تعذيب شعب محمد
وكسوه ألوانا من البأساء
فهوت معالم مجده مطوية
في زعزع من غيهم نكباء
اين الرسول يرى واين فوءاده
يدمى لما صنعت يد الابناء

عبد الله عبد الوهاب نعمان



يعرف المتصلون باليمن اساس الدعوى التي قام عليها حكم الامام يحيى في اليمن وهو اعادة احكام الشريعة الاسلامية واقامتها في اليمن طولا وعرضا دون محاباة او عبث او تقصير . والامة اليمنية ذات التاريخ الطويل في ايمانها بالاديان وولهها بالغيب لم يكن أحب الى نفسها من هذه الدعوى التي نشرها الامام يحيى في منشوراته لرجال اليمن اجمعين مع وعوده الخلابة ان ينتصف للمظلومين ويقيم العدل ، ويحكم بالقسطاس المستقيم .

وجاء الامام يحيى الى الحكم والامة كلها ترقب الخير والامان على يديه ، وقواد جيوشه والامراء ينتظرون ان يحظوا من خيرات الحكم بنصيب كبير يعوض عليهم العناء والشقاء في جهادهم ضد الاتراك وفي اخضاع بعض المناطق التي لم تكن على اطمئنان من حكم "بيت حميد الدين" .

وقبل ان يلتفت الامام يحيى الى الاوضاع القائمة وترقية الشئون العامة ذهب يوزع القضاة الذين

كانوا شرا وبلاء على الامة وعلى الشريعة كما مر بنا في الجزء الاول من الكتاب اولئك القضاة الذين كانوا يتعمدون عدم فصل الخصومات وتطويل القضايا لشغلة الناس في انفسهم .

وليس ابلغ من الاستدلال على صحة ما نذهب اليه من الاطالة في فصل الخصومات لشغلة الناس في انفسهم واتعابهم من القصة الواقعية التي يرددها اهل المنطقة الشمالية في اليمن وهي واقعة بين النقيب حمود سريان والامام يحيى وهذه هي :

حق العام

كان النقيب حمود شريان من مشائخ اليمن الكبار ذوى الدالة على الامام يحيى لجليل خدماتهم له ، وسابق معرفتهم الدقيقة له ، وفى ذات يوم دخل على الامام يحيى اثناء المواجهة (مقابلته العامة للشاكين) وأطال عليه الحديث ، ولما الح عليه القول والمراجعة اراد ان يتخلص منه ولكن بصورة محرجة ،فصاح فيه حتى يسمعه الموجودون من الشاكين والمراجعين :

ـ يانقيب حمود شغلتنا من الرعيه .

وقد اراد الامام ان يستدر بهذا القول اعجاب الموجودين حتى يصرخوا هم ايضا في النقيب شريان فيخلصوا الامام من الحاحه في المراجعة .

وكان النقيب حمود حاضر البديهة لطيف التعبير ، فقال له بصوت مرتفع ايضا :

ـ ياسدى ، هم حق "العام " .

يعني ان هؤلاء الشاكين هم الذين يشكون عندك منذ العام الماضي فلا تخف عليهم ان تأخروا بعض الوقت اليوم .

* * *

والشريعة فى القسم الاعلى من اليمن مثار خصومات عنيفة وحروب بين القبائل ،ولاتزال كثير من القضايا بين القبائل معلقة حتى اليوم منذ ايام الامام يحيى ومثل ذلك في اليمن الاسفل .

وكم من بيوت كبيرة لايزال الخصام قائما بينها منذ قام الحكم المتوكلى ،كعائلة (علي باشا) فى العدين ، وعائلة (محمد ناصر) فى ماوية ،وعائلة (اسحق) في وصاب ، وغيرها فى كل منطقة من المناطق .

وكثير من المهاجرين قد تركوا أوطانهم بسبب الشريعة المتوكلية التي كانت سبيل التفرقة والاستغلال والتمزيق .

وكثير من اليمانيين تركوا حقوقهم هدرا حتى لا يندموا على انفسهم بجانب اضاعة الحقوق العلاقات بينهم وبين الحكام وبينهم وبين اخوانهم ، وانصرفوا منطوين على انفسهم يبحثون لهم عن مرتزق جديد يعيشون من ورائه .

وهكذا اذا اختلت موازين العدل في امة من الامم ، فسدت الحياة فيها ، وتحول العيش الى حرب شعواء مدمرة ، وهذا هو ماتعانيه الامة اليمنية نتيجة العبث بالشريعة وتسخيرها للاهواء والاطماع وجر المغانم والمكاسب .

ونحن هنا نبسط اهم نواحي العبث في القضاء حتى يتيقظ اليمني للنواحي التى تتسرب اليه منها ريح الدمار فيعمل على سدها .

﴿ وما أردت الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله ﴾

عدن

قسمة المواريث

لقد انهينا مع القارئ استعراض سير القضاء في اليمن ،وفهمنا كيفية طريقة المحاكمة في الجزء الاول والان نجدها في حاجة لاستعراض بقية مهام القضاة في المجتمع اليمني فنلقي ضوءا على طريقة "قسمة المواريث " وهي من المهام التي يقوم بها القضاة ليرى القارئ صورة جديدة لعبث الحكام باموال الناس وكيف يعبثون بحقوقهم ،وأي فخاخ شيطانية ينصبونها للاصطياد ، وأي جشع صهيوني يكمن بين طيات العمائم الكبيرة ، وفي لفائف الاكمام الفضفاضة ، وبين جبات السبح الطويلة .

ان الذي قرره العلماء في أجرة القضاء او قسمة المواريث او اجرة النظر هو ان يعطي الحاكم مثله – من غير القضاة – على مثل عمله ، اذا لم يكن له مرتب من بيت المال . فهل عمل الحكام بهذا التقرير ام تجاوزوه ؟ واذا كانوا قد تجاوزوه فالى اى حد كان تجاوزهم اياه ؟

هذه اسئلة ستتوارد على ذهن القارئ حين يمر على هذه الصفحة . ونرجو القارئ ان لا يتعجل الاجابة عليها فانها ستمر به في غضون هذا البحث فلا ينتهي منه حتى يعرف ان الحكام لم يتجاوزوا هذا الاصل فقط ، بل اهملوه والغوه ، وسيتضح له اننا لم نتجاوز الحقيقة فيما وصفناهم به من جشع وتهافت ، ولا بخسناهم حقهم من العدالة فيما قضينا به عليهم من التهالك والتكالب ، وانا لم نعد الحقيقة والقسط في القول واليك البيان :

ان اول ما يفعله الحاكم عند قدومه الى مركز القضاء او الناحية هو ان يطلب امناء القرى وفقهاءها اليه من جميع نواحي القضاء فاذا وصلوا كان عليهم اولا ان يقدموا الهدايا والصلات كل بحسب قدرته ، ويسمون ذلك " حق الضيافة " ، ثم يعرضون عليه ما بأيديهم من اعمال قد انيهت مما احاله عليهم الحاكم السابق ليقررها ، ويأخذ على كل فصل او كل قسمة او حجة نقاص او مصالحة بحسب مبلغ محتوياتها ، ثم يأخذ على كل واحد منهم العهد ان يبلغه كل ما يحدث في قريته من نقاص او تصالح او تقاسم ، وان ينهوا اليه خبر كل متوف يترك ما يسمى مالا في يوم وفاته ، فيتعهد له الجميع على ذلك ، ويكونون منذ ذلك الوقت شباكه او فخاخه التي يبثها فيعموم القرى ، ثم لايكتفي بالامناء او او الفقهاء الذين قد اخذ عليهم العهود حتى يضع رقباء يأمن معهم تواطؤ الامناء والاهالي على الكتمان فلا تفوته مع ذلك شاردة ولا واردة .

ويفي هؤلاء الامناء بما تعهدوا به للحاكم ، ويحملهم التنافس على الحظوة لديه على ان يعملوا اكثر ما يريد ، وينصبوا مختلف الشباك لابتزاز الاموال وجلبها اليه ، ويصنعوا شتى الوسائل حتى ليبلغ بهم الحال الى ان يبلغوه مشاده وقعت بين اثنين في القرية وانتهت بتدخل ثالث الى التعافي والتسامح . وقد يهولون ذلك فيقولون انها وقعت فتنة وان هناك محاكمة ،فيعجل الحاكم ارسال الجند لايصال الغرماء مع المحكم الذى اصلح شأنهم الى المحكمة ، فيفاجأ هؤلاء بالجند بعد ان يكونوا في الغالب قد نسوا الحادث لبساطته ثم لايجدون بدا من تسديد اجرة الجند وبعث احدهم الى الحاكم ومع مبلغ من المال اتقاء لشره وشرهه .

اما الموتى فانهم مايكادون يلفظون انفاسهم

الاخيرة حتى يبادر الامناء الى تبليغ الحاكم بان فلانا قد مات وله من التركة ما قدره ونوعه كذا ، فان رأى حضرة الحاكم ان التركة زهيدة امر ذلك الامين الذى بلغه خبر الوفاة بان يتولى حصر التركة وتقسيمها ويعرض على المحكمة فى النهاية ، ويقوم هذا بدوره فيحصر ثم يقسم بعد ان يخرج المزروع باجرة القسمة من رأس التركة ، وهذا في الغالب يكون اجود واحسن ما تركه المتوفى ، وبعد انتهاء العمل يصل الامين الى المحكمة ليعرض الفصول على الحاكم فيعمدها بعد ان ينقد له الامين حظه من الاجرة وهو الحظ الاوفر بطبيعة الحال . اما اذا كانت التركة ضخمة فان الحاكم يبادر الى ارسال مأمون من المحكمة للحصر وايصال الورثة اليد للقسمة وما اشدها صدمة حين يكون اولاد الميت واهله مشغولين بتجهيز ميتهم والبكاء عليه ، حقيقين بالتعزية والمساواة وبأن يصنع لهم طعام كما صنع الرسول صلى الله عليه وسلم لآل جعفر طعاما لانهم قد شغلوا بصاحبهم عن انفسهم . اقول ماأشدها صدمة على هؤلاء الحزانى المصابين حين يفاجأون باقتحام مأمون المحكمة ومعه ثلة من الجند للبيت الذى لايزال عميده مسجي في احدى غرفه لايمنعهم من ذلك جلال الموت وروعته ،ولا تصدهم اصوات النوائح والنوادب ،لان بعدهم عن الاداب الاسلامية والتعاليم المحمدية وجلهم لها ، وتهالكهم على المادة واعراقهم في حبها كل ذلك قد سلب تمييزهم للخطأ والصواب وللجائز من الحرام ، ولم يدعهم يعرفون قبح صنيعهم هذا الذى تنكره الشريعة ويأباه الدين ، وتشمئز له النفوس ، وتتبرأ منه الاخلاق ، ولذلك فأنهم لايكادون يلجون البيت حتى ينتزعوا من ايدى اهله كل مفاتيح مخازنه وخزائنه بحجة ارادة الحصر وضبط التركة ، وحينئذ يتحول اشتغال اهل البيت بشأن ميتهم الى هؤلاء الضيوف الثقلاء ، الذين يقتحمون بيوت الناس رغم انوفهم ، وقيل ان يفرغوا من دفن الميت يجب عليهم ان يقدموا للمأمون وجنده حاجاتهم من الكباش والطعام والسمن والقات والتتن ونحوها ، وهناك يرى الانسان من تصرفات المأمون وجنده ما تقشعر له العدالة، وما لا يقره الدين الصحيح ، ولا يرضاه القوانين الحكيمة ، ومما يدعو الى مزيد الاسف ان يجرى كل هذا من الحاكم دون ان يكون هناك من يطالب بالقسمة او يدعو القضاء الى التدخل فى القضية ، بل قد يجرى فى قضايا ليس فيها للميت غير وارث واحد وليس له من يقاسمه ، وما الذى يهم الحاكم من ذلك ؟ وانما غرضه ان ينال هو نصيبه من التركة وحسب . وبعد ان يحس الورثة استقبال مأمون المحكمة وجنده يوضحون له ان لاداعى لحصر اموالهم ما داموا متفقين على بقائهم مشتركين وليس فيهم من يطلب القسمة . وبرغم ان المذهب الزيدى يقرر انه لايجوز للحاكم والحال هذه ان يتدخل فى قضيتهم لانه انما يبيح اجبار الممتنع بعد طلب الورثة او بعضهم – فان المأمون يصم اذنه عن احتجاجهم ويقنعهم بأن الحاكم قد امر ولا بد من تنفيذ امره . فيعرضون عليه مبلغا من المال على ان يدعهم وشأنهم فيأبى عليهم ذلك لانه يطمع باستغلال التركة امدا طويلا .

ينتهي هذا المأمون من الحصر في المدة التي يتطلبها العمل الذى يتفاوت بتفاوت التركة ، ويغادر المحل بعد ان يكون قد انزله بالورثة ويلا وبلاء بما يكلفهم من النفقة لمدة بقائه ، وهي لاتقل في الغالب عن كبش يوميا وماتساوى ثلاثة او اربعة ريالات من القات وضعف ذلك طعاما وسمنا .

ويعود هذا المأمور الى المحكمة وقد استصفى كل ما في منقول التركة من نفائس ليقدمها او بعضها للحاكم عند وصوله ، وما هو الا ان يصل مع الورثة

الى الحاكم حتى يقوم بمحاولات عدة ليحملهم او احدهم على طلب القسمة لينال اكبر نصيب منها فان احفق في سعاه فلا بد للورثة اذا اجمعوا على تاخيرالقسمة من ان يدفعوا اجرة المأمون والعدول والجهد على عملهم المفروض عليهم رغم انوفهم ، واجرة الحاكم على سكوته وتخليهم وشأنهم ، وبعد ذلك يسمح لهم الحاكم بالعود الى قريتهم على ان يبقى الحصر في الحكومة ليكون وسيلة للحاكم لاستغلال اموال هذه الاسرة كلما سنحت الفرصة .

وان استطاع الحاكم ان يؤثر على احد الورثة يقوم بطلب القسمة فان حضرته يباشرها حينئذ بنفسه مستعينا بالمامون والعدول ، ويكون اول عمل يقوم به هو ان يفرض على التركة نفقته ونفقة العدول والمأمون اليومية لمدة عمل القسمة يدفع الورثة ذلك نقدا حيث يكون الحاكم في بيته ، ولكي يستديم الحاكم هذه الجراية يعمد الى تطويل عمل القسمة بما ينشره بين الورثة من نزاع وخصام بشأن الوصايا والاوقاف او نحوهما مما لا تخلو منه تركه من تركات الميت . وتمضي الشهور والحاكم يزحف في القسمة زحف السلحفاة . وقد يشرك عدة تركات في العمل وهو مع ذلك يتناول الجراية من كل تركة . فيبلغ دخله اليومي مبالغ طائلة ، وياليت انه قد اقتصر على ذلك ولم يبذل جهوده في العمل على توسيع الخلاف بين الورثة واثارة الحفائظ واضرام الاحن ولكنه ـ مع الاسف ـ يفعل كل ذلك ليستمر الاستغلال ويدفع الورثة الى التنافس في كسب رضاه بتوفير الاجرة وبما يقدمه كل واحد من الرشوة . وهكذا لا تنتهي القسمة حتى يحوز الحاكم منها الحظ الاوفر وحتى توشك الاغرام ان تاتي على التركة . ثم هو لايكتفي بذلك حتى يصدر احكامه فيما يتعلق بالتركة من الشجار مجانبة للحق تاثيرا بما اخذه من الرشا ، فلا ينتهي الورثة من المحاكمة في القسمة لديه حتى يتوجهوا صوب صنعاء ويخرجوا منها بما سيأتي في "محكمة الاستئناف" من نفض وابرام دون جدوى او فصل او خصام .

.

احسب المحرام خلف ثلاثة

وهنا يجدر بنا ان نسجل قصة فيها من طريف النكتة ما يزيل بعض الالم الذى ستتركه قراءة هذه الصفحات في نفس القارئ ، وهذه القصة هي : انه مات في بعض الاعوام احد اليهود بصنعاء وترك ابنين وخلف تركة من النقود التي لا تحتاج قسمتها الى عناء او كبير عمل ـ وعلى القاعدة ـ ما ان بلغ خبر وفاة هذا اليهودى الى مسامع الحاكم حتى اسرع الى بيته للحصر والقسمة ، وتلقاه ابنا الميت بقولان له انهما على وفاق تام ، وان كل مخلف والدهما هو شيء من النقد الذى يمكنهما ان يقسماه بينهما بنفسين بدون واسطة القضاء ، ولكن حضرة الحاكم ابى عليهما واقنعهما بأنه لابد من القسمة لانه هو الاخر لا يوافق على عدم القسمة ـ اذ لو وافق على ذلك لحرم من نصيبه منها ـ واستسلم الذميان امام اصرار الحاكم الجشع فاخذ الحاكم قطعة من البياض ليفرز نصيب كل واحد من الابنين ، وهالهما الامر حين رأيا ان الحاكم قد جزأ التركة ثلاثة اجزاء ، فأخذ لنفسه ثلثها باسم اجر ذلك العمل الذى انتهى منه في موقفه ذاك وترك الثلثين للابنين وحاول اليهوديان مراجعته فاصر على انه يستحق هذا المبلغ اجرة عمله ، وخشي احد الاخوين ـ وقد رأى غضب الحاكم ـ من مراجعته في الامر ان يحمله الحاحهما على ان ياخذ نصف التركة فزجر اخاه عن الالحاح وقال :

ـ خلي سيدى يأخذ الثلث واحسب ان المحرام

يعني اباه – خلف ثلاثة . (والمحرام تعني ابن الحرام) .

وابتلع الحاكم النكتة اللاذعة ولم يغضب ، فما دام قد اخذ ثلث التركة فليجعلاه ان شاءآ يهوديا او نصرانيا .

أجرة النظر أو الطيافة

ونحن قد اتينا على ما نريده من بيان طريقتي المحاكمة في التقسيم نرى لزاما علينا ان لا نختم هذه الرسالة التاريخية حتى نتكلم عن وسيلة هامة من وسائل الحكام لابتزاز الاموال وهي وسيلة النظر او "الطيافة" ومعناها انه قد يستدعي سير المحاكمة الى وصول الحاكم الى محل النزاع وذلك حيث يكون متعلقها العقارات او البيوت التي يحصل الاشتباه بحدودها ،او القسامة حيث يختلف المتنازعون في ايهم اقرب الى محل الحادث ، او في الشفعة حين يختلفون في ثبوت اسبابها ، او نحو هذا من المقتضيات التي يمكن ان يعرفها الحاكم الورع وهو على مصطبته في المحكمة بمناقشة المتحاكمين واستدراجهم الى التصادق على الحقيقة ، او باستنابه عدل اقل منه موءنة وارفق بالمتحاكمين ، ولكن هيهات ان يحاول الحكام ذلك وشيطان الاطماع لاىغريهم دائما الا بخلق الاسباب لاخذ اكثر ما يمكن اخذه من مال الخصماء ، فالحاكم لايفكر في اى قضية تعرض على محكمته ليهتدى الى اعدل الحلول فيها او الى مواطن الحق منها بقدر ما يفكر في اى قضية تعرض على محكمته ليهتدى الى اعدل الحلول فيها او الى مواطن الحق منها بقدر ما يفكر في مقدار ما ستدر عليه هذه القضية من المال والى اى حد سيمكنه استغلالها ولهذا يعمد الحكام واعوانهم الذين يتخذونهم حبالات لجلب السحت واصطياد المال الحرام ، والى التعاون على ابداع اسباب النظر فيتظاهر الحاكم باشتباه الامر عليه والتباسه عنده ويزعم ان ورعه وتقواه يأبيان عليه الحكم في مثل هذه الحالة الملتبسة خشية الغلط على احد الخصمين ،بينما يقوم اولئك الاعوان بدفع الغريمين الى طلب وصول الحاكم الى موضع النزاع للنظر والتثبيت في الحكم ، ولا يجد المتحاكمان بدا من التقدم الى الحاكم بذلك ، وما هو الا ان يفوها بالكلمة الاولى في طلب خروج الحاكم حتى ينهي الموقف ويبادر الى الخروج ان كان المحل قريبا او يباكر السفر اليه ان كان بعيدا ، كل ذلك لئلا يسمح لهما بالتفكير في جو هادىء خشية رجوعهما عن الاختيار ، وقد يحدث ان يرجعا عن ذلك فعلا ولكن اعوان الحاكم وحجابة يحولان بينهما وبين الوصول اليه فيصبح الحاكم واعوانه وجنده مسافرين فلا يجد الخصمان بدا من الرضوخ .

أجرة سفر القلب – الفكاكة

ولنذكر هنا قصة على سبيل المثال حدثت لبعض الحكام واشتهرت حتى اصبحت مثلا سائرا في جميع الاوساط اليمنية وهي :

انه حضر الى محكمة احد الحكام الجشعين خصمان قد بلغ بهما الهوى مبلغا افقدهما صوابهما وجعل كل واحد منهما لايفكر الا في وسائل الاضرار بصاحبه من ذلك ، ومع انهما جاران فقد كان موضوع خصامهما في هذه المرة (مشقارا) بجوار بيتهما يدعيه كل واحد منهما لنفسه ، ولا يتجاوز مساحته خمسة اذرع ولا تبلغ قيمته خمسة ريالات ، ولج بهما الخصام

يطال مداه حتى غرما اضعاف ثمنه ، واخيرا حملهما اللحاح على طلب وصول الحاكم الى محلهما وكان بارحا عن المحكمة بدعوالسفر اليه الى بعد الرحال وحمل الاثقال ، واسرع الحاكم الى تلبية رغبتهما ووعدهما الصباح الباكر للسفر ، ولكنهما لم يكادا يخرجان من موقف الحاكم حتى استدعاهما بعض قرابتهما وصور لهما مبلغ فحش غلطهما باختيار وصول الحاكم ، وابان لهما ان ذلك سيكلفهما للحاكم وجنده واعوانه اجرة وغرامة ما لا يقل عن خمسمائة ريال ، وهنا ثاب اليهما الرشد ، وزالت عنهما سكرة الهوى وادركهما الاصحاء ، وكان احدهما خيرا من الاخر فنازل لجاره عن حقه في "المشقار" وكان هذا سببا فى تصافيهما ، وفى الحال رفعا الى الحاكم بعلمانه بانهما قد تصالحا ولم يبق بهما حاجة الى خروجه ، وظنا انهما قد القما الحاكم حجرا ، ولكنهما سرعان ما عرفا ان هذه الحجرة قد ذابت فى فم الحاكم المحترم . فتجاهل هذا الاعلام واصبح مسافرا بخدمه وحشمه وجنده واعوانه وقبل مغادرته استدعى الخصمين ليصحباه الى محل النزاع ،ولما وصلا اليه هالهما ان يجداه على اهبة السفر وحسبا ان الحاكم لم يبلغ الى تلك الساعة خبر اتفاقهما ولما قال لهما : هلم الى السفر قالا : يامولانا قد تصالحنا ، فاستشاط القاضي غضبا وقال : نعم قد عرفت ذلك ولكنه من غير الممكن ان اوافق عليه لانا قد استعدينا " وقد سافر القلب " ، فاجاباه : ولكن ما نخرج نصنع ؟ وماذا ننتظر ؟

ومن من نقضي وقد اتفقنا وانتهى نزاعنا ؟ والمثل يقول : "اذا تصدوا الغرماء فلحوا الحاكم " فقال انا لا افهم الا انه "قد سافر القلب " ، وعمد الى بغلته فركبها وساق الجند الخصمين التعيسين بين يديه وهما يستغيثان ويضرعان وتقدم احد الاعوان الملتمس من الحاكم واسر اليه ان خروجه على تلك الصورة مما يستنكره الناس والاحسن ان ياخذ من الخصمين اجرة "سفر القلب " ويعود ادراجه ، فقال الحاكم هذا ما اردته فاعمل عليه ، وانفرد هذا بالرجلين والحاكم واقف على قارعة الطريق ، وبعد مشاورة عادا اليه متفقين على ان ينقد الخصمان مائة ريال اجرة "سفر قلب " الحاكم وقبلها مبرما لانهما لم يوفيا قلبه الكريم اجرة سفره

وطارت القصة وعمل بها الحكام ومن دونهم ومن فوقهم ، فاذا وقع امر بيد احد الجند بايصال شخص الى المحكمة وصادف ان وصل هذا الشخص قبل خروج الجندى فان عليه ان يدفع له "اجرة سفر القلب " ويسمونها "الفكاكة" ، وهي ضريبة معترف بها من قبل الحكومة يضبط بها العامل ، ويقضي بها الحاكم ، وهكذا غير الجند من المأمورين او الموظفين ، واصبحت تلك الثروة التي نزت بها في رأس الحاكم اطماعه طريقة مسلوكة وسنة سيئة سنها فكان عليه وزرها من عملها .

حدث هذا حين بدا للخصمين ان يرجعا عن الاختيار اما حيث يصران عليه فان الحاكم يخرج ومعه ثلة من الجند وجماعة من الاعوان وفريق من الملحقين والمتطفلين فينزلون كلهم في بيوت المتحاكمين ، ويكلفونهم من النفقة التي يدخل فيها شيء كثير من البذخ ما يقضي في كثير من الاحيان الى ان يباع المتنازع عليه في سبيله ، ثم يأتي دور فرض الاجرة فيستعمل الحاكم اساليبه الشيطانية لدفع الخصوم الى نقد اكبر مبلغ تسعه طاقتهما .

واستطيع ان اضع مقياسا لما ياخذه الحكام من الاجرة على النظر بأن اقدم للقارىء مثلا من ذلك ولا اقول انه يمثل الغالب ، وقد اخترته لاني وقفت عليه بالذات ولانه حدث في صنعاء وعلى بعد بضعة امتار من مقام الامام يحيى ، اما هذا المثال

فهو ان الحاكم الاول في صنعاء احد من الحصمين مائة ريال اجرة نظر لم يكلفه الخروج عن سور صنعاء ، وانت بدورك اذا كنت قد عرفت قدر مساحة صنعاء ، وعرفت مما اسلفناه مقدار ما يبيح للحاكم اخذه اجرة على عمله القضائي حيث لاراتب له من بيت المال ، وعرفت ان اجرة المثل على مثل هذا العمل لا تبلغ ريالا واحدا على الاكثر استطعت حينئذ ان تقدر مدى تجاوز الحكام للمقررات الشرعية وتعهم بذلك انه ليس لاحكام الشريعة في نفوسهم اي حرمة ، وان الحرام في نظرهم — على حد تعبير بعضهم — ما تعسر اخذه . واعتقد ان نفس القارئ تسكن — بعد ما اسلفناه — الى ما قررناه في شأن الحكام ، ويعلم انا لم نقس عليهم باحكامنا ولا تجاوزنا الحقيقة فيما قلناه ولكي يزداد ضميره راحة ونفسه اطمئنانا الى ذلك نختم هذا الموضوع بالاشارة الى عبث القضاة باموال اليتامى .

عبث الحكام بأموال اليتامى

قد سبق ان اشرنا الى ان من حق الحاكم الولاية على اموال اليتامى الذين قدر لهم سوء الحظ ان يتركهم آباؤهم دون وصاية امينة نزيهة تحول دون تدخل الحكام وعبثهم ، وقليل من الحكام من يفكر في معنى قوله تعالى * ان الذين ياكلون اموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا * فيعمل لصالح اليتيم ويحفظ حقوقه ويتورع عن اكلها ، اما الاكثر فانهم يتصرفون باموال الايتام — بحق هذه الولاية — في مصالحهم الشخصية فلا يجلبون لليتيم مصلحة ، ولا يدفعون عنه مفسدة ولا يراعون حفظ امواله ، ولا يستثمرونها لحسابه بل يستغلونها لانفسهم ، وياكلونها دونه ، فلا يبلغ اليتيم الحلم ويؤنس منه الرشد حتى يجد نفسه فقيرا الا مما تعذر على الحاكم استهلاكه .

ولقد قدر لي ان اقف مرة على حساب بين يتيم وآخر من قرابته نصبه الحاكم نائبا عنه في حفظ مال اليتيم والانفاق عليه ، واضطرهما التخاصم الى الوصول الى صنعاء ، وكم كان اسفي عظيما شديدا حين رأيت قطعة الحساب التي قدمها المنصوب قد تضمنت عدة حوالات من الحاكم على هذا المنصوب يأمره فيها ان يدفع لحاملها مبالغ من مال القاصر ، وفيها ما صرف في خصوصيات الحاكم .

ومنها ما صرف لاناس كانوا يقصدون الحاكم من بلده للاستجداء فيحيلهم على اموال اليتامى ويعتبرها صدقة وصلة .

كمطعمة الايتام من كد فرجها
لك الويل لاتزني ولا تتصدقي

وامثال هذا الحاكم كثيرون يعيثون فيأموال اليتامى عيث الذئاب في الغنم السائمة .

محكمة الاستئناف

هي المرجع الاعلى للاحكام الشرعية التي تصدر من جميع الحكام اليمنيين ، واليها ترفع الاحكام التي لا تحوز قنوع المتحاكمين مصحوبة بمراجعة المحكوم عليه والرد عليها من المحكوم له . وعلى هيئة الاستئناف تحت اشراف رئيسها مطالعة الاحكام اولا واخذ فكرة عنها ثم مطالعة المراجعة التي تنقد الحكم بغية نقضه ، ثم النظر في الرد عليها وتسجيل ما اتفقت عليه انظارهم من نقض وابرام .

ولما كان لهذه المحكمة اهمية بالغة وجب ان يكون رئيسها وأعضاؤها من امثل العلماء وأورعهم وأدقهم فهما وأغزرهم علما ، وأن يختاروا من رجال

التقوى والنزاهة لتحصل الثقة التامة بما يقررونه ، وتكون كلمة المحكمة هي الكلمة الاخيرة في فصل القضايا فتؤمن بذلك جانب المناقصة وتسلسل النقض والابرام فتتم راحة المتحاكمين بقطع خصوماتهم وانهاء مشاكلهم .

وهنا يجب ان نتساءل هل كانت هيئة الاستئناف كذلك في الواقع ؟ وهل كانت كلمة الاستئناف هي الاخيرة ؟ الحقيقة ان جلالة الامام حتى نكب محكمة الاستئناف نكبة افقدتها كرامتها ومنزلتها في القلوب ، وازالت هيبتها وقداستها من النفوس فقد تعمد ان يكون اعضاؤها من غير رجال العلم والتقوى ، وظل يبعث اليها كل من ضاق به من طلاب الوظائف وبالذين قد اشتهر عنهم التكالب على اموال الناس .

ولقد كان من المفروض في محكمة الاستئناف ان تتولى الفصل في المشاكل التي استغلقت واستعصت على القضاة العاديين فلم يجدوا لها حلا . والقارئ بما عرفه من امر هؤلاء القضاة يجد ان القضايا لم تستعص عليهم في الاغلب ، ولكن القاضي حين ترجح كفتا الخصمين بما يمدانه اليه من السحت لايقدر ان يقهر المبطل منهم لما قدم ولا ان يحيف على صاحب الحق مقابل ما أسداه ، ولذا فانه يتخلص حين يخرج هكذا باصدار حكم لا يرضي احدا منهما ويتظاهر بان ذلك مبلغه من العلم ، فاذا وقفت المساومة بذمة (فضيلته) عند الحد الذى وقف عنده امداد الخصمين له بالرشاء رجع الخصمان للاحتكام الى محكمة الاستئناف .

وقضاة المحكمة الاستئنافية لم يكونوا ليختلفوا عن هؤلاء القضاة العاديين في شيء اللهم الا ان يكونوا اطول باعا ، وارسخ قدما فيما يأتيه اولئك وما يقترفون فيعاد الشريط مرة اخرى بصفة اكبر من الاولى واوسع نطاقا وارفع مقدارا .

وكما عمل وكلاء الشريعة في افساد المحاكم العادية وتصالحوا مع القضاة على اقتسام الغنيمة قاموا بنفس الدور امام قضاة المحكمة الاستئنافية لاسيما اذا علمنا ان هؤلاء الاستئنافيين قد شغلوا مناصب القضاة في المحاكم العادية وكانت لهم جولات مع وكلاء الشريعة . وبذلك لم تختلف محكمة الاستئناف عن غيرها من المحاكم الا بمران حكامها الطويل وسعة حيلتهم وكثرة خبرتهم في الاصطياد والعبث بالحقوق ، والتلاعب بالشريعة حتى اصبحت كلمة الاستئناف مرادفة لكلمة اللصوصية ، بل وحتى لم يجد اعضاء الاستئناف بأسا من الاعتراف من جانبهم بهذه اللصوصية .وسنسرد للقارئ قصة واقعية طريفة تدلل على مبلغ استهتار هؤلاء الحكام ، وجهرهم بالاعتراف بهذا الفساد الموحش .

أنا سارق ثاني

حدث في ايام رئاسة القاضي حسين العمرى ان وصل الى صنعاء احد المترافعين من اللوى التعزى يريد المراجعة على حكم صدر عليه وكان لايعرف اعضاء الاستئناف ،فقيل له ان السيد علي بن ابراهيم هو صاحب الكلمة العلياء في المحكمة لما له من الدالة على الرئيس ، فذهب ليبحث عنه في احد المساجد بغية عرض قضيته عليه واعطائه رشوة في نظير عمله على نقض الحكم . ولما وصل الى المسجد دل على السيد قاسم بن ابراهيم لتقارب الاسمين ، وكان هو الاخر من اعضاء الاستئناف ايضا ، فتقدم اليه المسكين وعرض عليه الحكم واعطاه ما قد اعده من النقد فاخذه منه

ووعد بتنفيذ مراده ،وقبل انصراف الرجل خطر ان يساله صاحبه هل هو السيد علي ابراهيم ؟ فقال له " لا .. انا سارق ثاني . وهذا هو الصو علي " واشار الى الرجل من ناحية المسجد . ففوجيء المسكين بهذا الجواب ، وعرف انه قد اخطأ الطريق الى غرضه ، وانه في حاجة لان يمنح الصنو عليا مثل ما اعطا الصنو قاسما والا فقد ذهب نقده ومتاعه ادراج الرياح .

الرشوة علنا

ولم تعد رشوة قضاة الاستئناف بالشيء النادر ، او المستور الذى يلجا اليه بحذر وخشية ، او يقابل بشيء من التمنع من قبل القاضي او حتى التظاهر بالرفض ، بل اصبح امرا متعارفا عليه لااختلاف فيه ولا مرية ، واصبحت له قواعد واصول ، فلكل حكم وكل قضية قدر معلوم يرشى به القاضي ان شاء الخصم ان يؤيد الحكم ، وله قدر آخر ان شاء له نقضا او اراد اعتراضا عليه .

وكثيرا ما ياتي احد المتخاصمين الى ذوى النفوذ من الاعضاء فيبادر هذا بقوله : "انقضا ام تقريرا؟" وتجرى بينهما المساومة كما تجرى على سلعة في السوق . فان كان يريد نقضا في الحكم فعليه ان يوفر الجعل ، وان كان يريد تقريرا فالامر ايسر من ذلك .

وكما ان اعضاء الاستئناف لا يتحاشون من اخذ الرشوة في السر كذلك لايبالون من اخذها في العلن وعلى مشهد من الناس . وسنسرد هنا قصة واقعية رواها لنا من نثق بعدالته ولا نتردد في تصديق روايته ، وتكاد هذه القصة ان تكون قصة القضاء في اليمن ، وفلسفة القضاة فيها . ولظروف خاصة نمسك عن ذكر اسم الراوى .

ائتني بعمر بن الخطاب

قال لي الراوى الجليل اثناء حديث معه :

اذكر اني حضرت مرة موقف احدهم ، وكان عضوا ممتازا يشغل وظيفة اخرى بجانب عضويته لمحكمة الاستئناف ، فجاء اليه احد اولئك المتحاكمين الذين لايبالون بما انفقوا في سبيل فوزهم بالقضية وتغلبهم على خصومهم ، فشرح لهذا العضو قضيته وعرض عليه احكامه ، ثم نفحه بعشرين ريالا ولم يستعمل التستر بستر الله بل سلمها اليه علنا ونظر العضو الي ونظر الى العشرين ريالا وهم ان يرجعها خشية من النقد ، ولكنه راى ان المبلغ لا يستهان به وكره ان تفوته الصفقة فاغمض عينيه وزوى مابين حاجبيه واخذها وهو يغمغم بكلام فهمت منه اعتذاره بانه في العادة لا ياخذ الا ممن عرف ان الحق في جانبه حتى لايكلفه ذلك خذلان الحق ونصرة الباطل ، فابتسمت له بسمة سخرية وقلت له : اليس انك حين تقوم بنصرة الحق وخذلان الباطل انما تؤدى الواجب الذى يفرضه المنصب الذى تتقاضى عليه راتبا شهريا . فقال : نعم ... ولكنكم تعرفون ان الراتب حقير لايسد بعض حاجاتنا ولو كان الامام يريدنا اعفاء لقرر لنا ما يكفينا . فقلت له : ان هذا العذر ليس بمجديك نفعا بين يدى الله اذا كان قد اجداك بين يدى الامام . فقال : او تريدنا معصومين ؟ فقلت له: لا .. ولكني اريدكم مسلمين بكل ما في الكلمة من معنى ، ولن تكونوا كذلك حتى يسلم المسلمون من السنتكم وايديكم واقلامكم . ثم اخذت اسرد عليه طرفا من تاريخ قضاة الاسلام في الصدر الاول فقال : ائتني بعمر بن الخطاب لاكون كابي

الدرداء او بعلي بن ابي طالب لاكون كشريح القاضي اما ان نعيش كما قال صالح بن عبد القدوس :

قد مات من عطش وآخر يغرق

فلا . فقلت له : اذا فانتم ترون ان التغيير يجرىء على التغيير . فقال : هو ذاك .

وقد شاءت الصدفة ان اقابل بعد ذلك الانسان الذيدفع الرشوة ويتدرج بيننا الحديث اليذكر محاكمته واحكامه ، وسألته عما انتهى اليه امرها ، فاخذ يسرد علي قصته فقال :

لقد وفى لي ذلك العضو بما تعهد به من تقرير الحكم كما اريد ولكنه لم يلبث ان جاء خصمي وهو اندى مني يدا واوسع ثراء فاعطاه اضعاف ما اعطيته بغية نقض الحكم ، فارشده الىان يقدم شكايةالى جلالة الامام يشكو فيها الغلط عليه من الاستئناف فيما قرروه ويستمد امرا باعادة المطالعة . وهذاامر ميسور كما تعلم فقد ذهب الخصم الى احد كتبة الامام واعطاه ريالا واحدا فوقع على شكايته بالامر الى الاستئناف باعادة المطالعة وفعلااعيدت المطالعة وكانت النتيجة ان نقضوا ما ابرموا وأعادونا الى الحاكم لاستئناف المحاكمة من جديد ، وبريال واحد ذهبت اغرام اشهر واتعابها هباء . ولاتخفى عنك ان هذه هي المرة الثالثة نترافع فيها الى الاستئناف ونعاد الىالحاكم فيصدر حكما آخر ملاحظا فيه مآخذ الاستئناف عليه وترفع الاحكام الى الاستئناف مرة اخرى فيقررونها ثم يأتي خصمي متاخرا فينفحهم بالمال فيخلقون مآخذ اخرى ويعيدوننا الى الحاكم ، وهكذا دواليك ، ولا ندرى متى ينتهي الشوط .

قال محدثي : وتمت المصادفة الغريبة بمرور ذلك العضو بنا ، ولما رآنا نتحدث قطب وجهه ومضى مسرعا ، فانهيت الكلام مع ذلك الحمل المسكين وقفوت اثر الذئب المقطب ، وما شعر بي حتى التفت مصافحا مبتسما وقال : فيم كنتم ؟ فقلت له : لقد كنا نتتبع فصول القصة . فقال : واى شيء جعلك تهتم بأمر هذا الرجل وقد عهدناك لاتحب الدخول فيما لايعنيك ؟ فقلت له : انما هي الصدفة ساقتني اليه وساقتك الينا . وقد تعبت لاعرف عذرك في تغيير عادتك التي زعمتها من انك لا تأخذ الا ممن عرفت ان الحق في جانبه فكيف اخذت من هذا اولا ثم من خصمه ثانيا ؟ فقال : واىغرابة في هذا ؟ اليس من الجائز ان ينكشف اخيرا ان الحق بجانب ذاك ؟ فقلت بلى قال : اذا فلا تغيير للعادة ولا خروج عنها . وقد قال عمر بن الخطاب لقاضيه ابي موسى . " لايمنعك قضاء قضيت فيه اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه الىرشدك ان ترجع الى الحق ، فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى في الباطل " فقلت له : فلماذا اذا لم ترجع للمسكين ما أخذت منه ؟ وكيف طاوعك ضميرك وسكنت نفسك الى ان ترزأه برزأين ؟ فقال : انك بارد الزهد والفقه معا الم يقل لك الرجل اني قد وفيت له بما من اجله أخذت نقوده ؟ فقلت : بلى ولكنك عدت فنقضت ما ابرمت . فقال : هذا امر آخر . ففرغت من الرجل وعرفت انه من اولئك الحكام الذين يضحون بالدين والشرف والضمير في سبيل الابيض الرنان ، وتركته ومضيت لشأني " .

الىهنا وتنتهي رواية القصة التى لايستغربها احد ممن عرف القضاء في اليمن او اتصل بذويه بسبب .

وهاتان القصتان بسطتهما للقارىء الكريم ليعرف اى قوم هولاء الذين اسندت اليهم مهام ارفع منصب شرعي وليضعهم على ضوئها في محلهم بين رجال العلم والتقوى او بين رجال التلصص والاهواء . وللقصتين مئات الامثال لو عمدنا الى تسجيلها لاحتجنا الى مجلد ضخم . وقد اقتصرت عليها

لانى استطيع ان احمل مسئولية روايتهما ولان اصحابها أمثل أعضاء الاستئناف وحسبك أن أحدهم قد تولى الرئاسة مدة من الزمن .

اما سائر الاعضاء فحوادثهم مما يندى لروايتها جبين العدالة ويخجل له وجه الشريعة ، ولو رأيتهم وهم يتسابقون الى السماسرة والمقاهي – المحلات التي ينزل فيها المسافرون الغرباء – ليبحثوا عن صيد

جديد وليقدموا نفوسهم لمن يصل من المتحاكمين ويعرضوا عليهم استعدادهم للقيام بما يريدونه من مراجعات او نقض او تقرير لعرفت الى اى حد مخز يبلغ انحطاط الاخلاق وتسفلها ، ولما استغربت شيئا مما تتداوله ألسنة الناس عنهم .

عصابة لصوص قانونية

والان وقد اسلفنا ما يعطي القارئ جوابا واضحا عن السوال الاول من السوالين المبسوطين في اول البحث نرى لزاما علينا – قبل ان نجيب على السوءال الثاني – ان نجمل حكمنا على موظفي هذه المحكمة العلياء بكلمة قصيرة فنقول عنهم ما قالته الحقيقة : من انهم يكونون جماعة لصوص قانونية تسرق اموال الناس في وضح النهار ، وتحكم في الدماء والفروج والاعراض والاموال و الحدود وهي نفسها متلبسة بجريمة السرقة لا تقلع عن اكل اموال الناس بالباطل ولا تنتهي عن اخذ الرشوة المحرمة ، ولا تفكر فيما يستتبع ذلك من هضم الحق وضياع العدالة وانتهاك حرمة الشريعة والتلاعب باحكامها وجعلها كرة تتقاذفها الاهواء والمطامع وتهوى بالامة الى اعمق هوة . فتاريخ هذه المحكمة مع الاسف تاريخ اسود اذ لم تتوفق في عمرها الذى بلغ نصف قرن من الزمان الى ان يقوم بها رجال يتمتعون بالكفاءة العلمية والخلقية يشرفون هذا المنصب الديني الرفيع ويحفظون له مكانته وقداسته في نفوس الناس .

لا يصلح الجسد والقلب فاسد

ونحن مع ذلك لا نجد بدا من ان نعترف اكراما للحقيقة التاريخية بانه قد ساعدها الحظ وساعفها التوفيق في بعض ادوار حياتها فقام برئاستها ثلاثة من رجال العلم والتقوى وهم : القاضي حسين العمرى ، والسيد محمد بن زيد الحوثي ، والقاضي يحي الارياني . فهولاء الثلاثة قد قاموا برئاسة الاستئناف في فترات متباعدة ، واتفق الناس على تمتعهم بالكفاءة العلمية والحصافة الخلقية والنزاهة الكاملة التي تعتبر اهم ما يتحلى به من يقوم بهذا المنصب الشريف . وهذا ما يوافقنا عليه كل مطلع يهمه البحث العلمي النزيه ولكنه يأتي هنا سوءال آخر وهو :

– هل اجدى صلاح هوءلاء الروءساء الثلاثة الشخصي واستقامتهم الخلقية وطهارة جيوبهم من المال الحرام ؟ .

نقول هل اجدى ذلك نفعا في اصلاح فساد القضاء في عموم المحاكم او في المحكمة الاستئنافية نفسها ؟ هذا ما لانستطيع القطع به . والذى نعرفه انهم حاولوا ان يصلحوا بعض نواحي الفساد في القضاء فأصدروا تعليمات الى عموم المحاكم ، وحاولوا جهدهم ان يتجنبوا المناقضة في قرارات المحكمة وان تكون اكثر موافقة للحق واوثق صلة بالعدل ، ولكن الفشل كان خاتمة تلك المحاولات . والعلة في ذلك واضحة ، وهي ان الفساد كان عاما وواسعا وكان له مصدر اعلى يمده وينميه ويرعاه ويغذيه .

فالمقام الشريف هو مصدر ذلك الفساد وكيف يصلح الجسد والقلب فاسد والمعدة بيت الداء ، ولهذا فان جرة قلم من احد كتبة الامام يحي يتوجها هو بـ " لا باس " او بـ " عبد الله وفقه الله " تعصف بمجهودات الاستئناف والحكام وتنسف القرارات والاحكام ، وتعود بالمتحاكمين الى مبادىء الخصام بعد ان تكون قد مضت على محاكمتهم عدة اعوام اضف الى ذلك ان للامام يحي نفسه زبائن من اعضاء المحكمة قد اخذ عليهم ان يعملوا على توسيع الخلاف بين الناس و لا سيما اذا كان بين الاسر الثرية المحترمة ، وان لايدعوا حكما يستقر و لا قرارا يتم ، ولهذا فكثيرا ما يحدث ان يختلف الرئيس مع هولاء الزبائن الذين اعدهم الامام يحي لتنفيذ سياسته التي انتهجها من اول يوم قبض فيه على زمام الحكم فتكون العاقبة ان يعاتب الرئيس ويقرع لانه " يلاحظ براءة الذمة " في استيفاء النزاع وسماع مراجعة المحكوم عليه المرة بعد الاخرى ولو الى ما لا نهاية له ، وينتهي الخلاف دائما باعتماد امر الامام فرايه الاعلى وهو وحده المعصوم من الخطا . وتحال القضية الى الشعبة الاخرى من شعبتي الاستئناف او الى المجلس النيابي او الى هيئة خاصة تعين بأمر الامام لهذا الغرض نفسه ، وما تنتهي هذه الهيئة او تلك الشعبة او ذلك المجلس الا ليبتدىء غيرها العمل في نفس القضية نقضا وابراما ، وهكذا تجد التسلسل الممنوع منطقيا موجودا في القضايا الشرعية بصورة محزنة مخزية مخجلة .

والان يحسن بنا وقد انتهينا من الحكم على هذه المحكمة ورجالها ان نفي بما وعدنا به من الجواب على ثاني السوءالين وهو :

ـ هل كلمة الاستئناف هي الكلمة الاخيرة كما هو الشان في امثالها من المحاكم ؟ والجواب على هذا هو السلب .

ولعلك قد فهمت مما سقناه عرضا في جوابنا على السوءال ان كلمة الاستئناف هي غالبا تدعو الى استئناف عمل المحاكمة والنزاع . اما حين تكون قراراتها ناجزة وهذا ما لا يحدث الا نادرا فان وراءها مجالا واسعا للتلاعب بالشريعة وميدأنا رحبا للجرى وراء الاغراض والاهواء وهذا ماتجده في مجلس المعروضات او المجلس النيابي ، ومن هنا حم القضاء على القضاء ونزلت البلية من كل جانب فقد اصيب بفساد حكامه ، وجهل اكثرهم ، وتدخل المقام فوق كل هذا ليهدم ثالث الدعائم التي يرتكز عليها القضاء وهي : المعرفة ، والنزاهة ، والاستقلال .

مجلس المعروضات

أو المجلس النيابي

يستنتج القارىء مما مر بنا ان الرأى الاخير في القضايا الشرعية هو لجلالة الامام . وفي السنوات الاخيرة من حكمه رأى توسيعا للفوضى والعبث بالقضاء ولكثرة طلاب الوظائف ان يقسم الاستئناف الى شعبتين تنظر كل شعبة في احكام احد قسمي اليمن بعلة تراكم الاعمال وملاحظة المصلحة في سرعة فصل الخصومات ، ولكن النتيجة كانت عكسية فقد وجد المتحاكمون انفسهم امام محكمة استئناف ثانية فكلما صدر من احدى الشعبتين احيل النظر فيه الى الشعبة الثانية ، وهكذا زيدت مرحلة في سفر الخصوم الى الغاية التي يسعون اليها ، ولم يكتف الامام يحي بذلك فخلق في التاريخ نفسه " مجلس المعروضات " ليزيد مرحلة اخرى في متاعب الناس وجعل على راسه ولي عهده آنذاك ـ الامام احمد حاليا ـ وعهد اليه بمطالعة شكاوى الناس ومطالعة ما يصدر من قرارات الاستئناف

واحكام الحكام ، وحف الامام ولي عهده بعلماء محترمين امثال السيد زيد الديلمي والسيد عبد القدوس الوزير والسيد حسين ابو طالب والقاضي عبد الكريم مطهر والقاضي احمد العنسي وغيرهم وظن الناس في بادىء بدء ، وقد راوا انفسهم امام شيء جديد ان متاعبهم ستنتهي بهذا المجلس لذى يرأسه ولي عهد الامام ولكنه لم يمض شهر واحد حتى عرفوا خطاهم في الظن ، واكتشفوا ان الغاية واحدة وهي المادة ، والمادة لا سوى . وهذه بطبيعتها تجر الى خلق متاعب جديدة واختراع وسائل حديثة لابتزاز الحطام واشغال الناس بانفسهم عن التفكير بغيرها مما يتعلق بالحكومه ، وهذه هي السياسة التي ينتهجها الامام يحي بالوصية من والده المنصور ، فلقد حدثني احد خاصته بأن المنصور هو صاحب هذه الفكرة الهدامة التي قضت على الاسر واتت على الثروات وجعلت الامة في هذا الوضع المهين ، كما روى لي هذا الخصيص انه سمع الامام يحي يوما يعاتب احد عماله على اهماله تحصيل بقايا الضرائب السابقة التي لدن اهالي ناحيته ، فاجابه العامل بأنهم في حالة من الجوع والفقر والاعدام لا تسوغ طلبهم في تلك الاونة بشيء من الضرائب الحادثة فضلا عن البقايا القديمة ، فما كان جواب الامام يحي الا انتهار ذلك العامل لما ابداه من الرحمة الباردة ، وقال له : " انت تعلم ان القبيلي اذا بقي له ريال سار يشترى به معبر بندق – يعني خرطوشة – ويفسد على الحكومة " . فاوحي الامام بهذا الجواب الى عماله ان من واجبهم ان يستنزفوا كل ما في يد الرعوى من المال وان لايدعوه يهدأ و لا يستريح ، ولا يرفعوا عنه الطلب شهرا لانه لو ملك ريالا واحدا او استراح شهرا واحدا لاصبح خطرا على الحكومة يستعد بالعتاد الحربي للثورة عليها .

ومن هذا تعرف ان نظرة الامام يحي الى رعيته كانت نظرة العدو الى عدوه الذى ينتظر انقضاضه عليه لا نظر الراعي الى رعيته الذين يرى انه

مسوءل عنهم امام الله ، واذا فلا غرابة اذا رأيته قد ضم بخلق هذا المجلس حلقة اخرى الى سلسلة مشاكل الناس واتعابهم .

ولما كان عمل هذا المجلس هو النظر في شكاوى الشاكين وفيما يصدر عن الاستئناف من قرارات واحكام فان هذه الاحكام تحمل احد المتخاصمين ايا كانت قراراتها على الالتجاء الى مجلس المعروضات ليزيل ما يشكوه من غلط ، ويقوم المجلس بدوره فيطلب الاحكام ويلزم الخصمين بتقديم لوائح اعتراضية على قراراتها فيضطر هذان الى ان يفزعا الى احد الوكلاء او الفقهاء الذين يحترفون نقد الاحكام فيعطوه مبلغا من المال ليحرر نقدا او ردا ، وتربط هذه اللوائح بالاحكام وتقدم الى المجلس ويستأنف المتحاكمون الانتظار اشهرا اخرى تحت طائلة الغرامة حتي يأتي دورهم فاذا عرفوا ان دور مطالعة احكامهم قد قرب اختلفوا الى اعضاء المجلس بالرشوة ، وكثيرا ما يتقابل الغريمان وجها لوجه في بيت العضو المحترم ، وكل واحد يفهم مهمة خصمه . وبعد ايام تعود الاحكام الى الظهور وقد توجت بقرار طويل عليه ختم المجلس مقرونا بلفظ " احمد الله تعالى " وهذا هو الامضاء الخاص بولي العهد . ولن تكون هذه القرارات في حال من الاحوال احسن وجهة و لا ادنى رتبة الى الحق من قرارات الاستئناف وكل ما فيها هو خلق العلل والاسباب وتذييلها بالامر بالاستيفاء او اعادة المحاكمة من جديد . وهذه الطريقة نفسها التي سلكها المجلس النيابي الذى قام على انقاض مجلس المعروضات والذى اغلقه الامام في نوبة من نوبات الغضب على ولي عهده .

ولا يمتاز هذا المجلس على ذاك الا بأن رئيسه عبد القادر بن عبد الله كان مستقيما نزيها . وأن اعضاءه امثال يحيى الشوكاني واحمد اسحق ومحمد العمرى ونحوهم من الشباب الاغرار الذين لايعرفون فقها ولايفقهون علما حتى سمي هذا المجلس بعض المنكتين الصنعانيين "مجلس النباني" جمع نبني ،والنبني في اللغة الصنعانية هو الطفل الرضيع . وبرغم جهل هوءلاء،وبرغم ما بلغ الامام من تنكيت الناس عليه فقد جعل صلاحيتهم فوق صلاحية الاستئناف والحكام ليبرهن بذلك على انه يعتبر امور الرعايا كلها وفي مقدمتها الشريعة مهزلة من المهازل وانه لايبالي بما قال الناس ولا بما يقولون .وياليت ان المصيبة قد وقفت عند هذا الحد وانهم جعلوا قرارات مجلس المعروضات او المجلس النباني نهاية الشوط لمتاعب الخصوم فاجروا قراراتها على علاتها طلبا لاراحة المتحاكمين وتهنئة اطماعهم والاخذ على اعنة اهوائهم الجامحة التي لاتنتهي بهم الا في هاوية الفقر والحاجة ، ولكن هيهات والمرجع الاعلى ينتظر ما يفعل ، وكتاب المقام ورجاله يتحرقون شوقا الى السحت الحرام ، وهم الذين عرفوا بالتكالب على اموال الناس والتهافت على جميع الحطام ولذلك فقد جعلوا لكل من لم ترقه قرارات المجلس من الخصوم الحق في ان يرفع القضية الى الامام يحيى المتمثل بكتابه ورجال مقامه ،وببضع ريالات يمد بها يده الى احد كتبه المقام ينسف تلك الاحكام والقرارات نسفا ، ويعيد حرب الخصام جذعه .وكل هذا معروف مالوف رآه الناس فاستنكروه ثم طال عليهم العهد به فعرفوه وألفوه .

الهيئة العلمية الشرعية

والان وبعد ان حل المجلس النباني بتوزيع اطفاله على مصالح مختلفة اختصرت هذه المرحلةلا لشيء الا لتوفر السحت للمرجع القضائي الاخير وبعني به كتبة المقام والحاشية .ففي "العادة ان الاحكام الشرعية تقدم لجلالة الامام لتقريرها او "تعميدها" على حد التعبير اليمني كي تصبح نافدة المفعول ولما كان من غير الميسور – عمليا– للامام ان يطلع على كل حكم ليرى فيه رأيه فقد وكل ذلك الى بعض خاصته من الكتبة فيطلعون على الحكم ويقررون فيه ما يطابق الرغبات الشريفة ثم يقدم للامام ليمهره بختمه او بامضائه واذا التبس عليهم الامر رجعوا الى الامام قبل تقرير الحكم او الاعتراض عليه ، وبعد ان تنتهي المباحثات الشفوية بينهم وبين الامام يقررون الرأى الشريف بظاهر الحكم ،ثم يمضي او يمهر بالختم الشريف ويصبح نافذ المفعول غير قابل للطعن .

وحين شكل الامام احمد ديوانه الجديد او مجلس كتبته–على الاصح – عين بعضا منهم للقيام بهذه المهمة القضائية واطلق عليهم اسم : "الهيئة العلمية الشرعية بالديوان الملكي" . وقد اختار لها الاعضاء الذين يتفقون ورئيسهم في تنفيذ الرغبات السامية ، فأصبحت هذه الهيئة استئنافا ثانيا ولم يستفد منه الناس الا تطويل ذيول الخصام ،وقد كنت انا احد هوءلاء في سنة ١٣٦٥ هـ عملت على مطالعة الاحكام وترتيبها وكتابة قراراتها الى الامام احمد في تعز حينما كان وليا للعهد وكانت الاحكام تكتب في بياض قد ألصق بعضه ببعض "سرائح" وكان يبلغ طول بعضها فوق المترين والثلاثة الى

عشرة الى خمسة عشر مما يضحك منه ويبكي له ، وعندما كانت تقدم وعليها ما رأينا من نقض او ابرام بنظرة خاطفة كانت تمهر بالختم الشريف بدون ان يعرف صاحب اى طرف من اطراف النزاع ولا حتى موضوعه وبدون ترو ولا علم . وانه من قبيل المستحيل عقلا ان يلم بها اعضاء الهيئة انفسهم وهم المتخصصون لذلك ،وكانت القرارات كلها يوقع عليها رئيس الهيئة وجميع الاعضاء ،ولا تزال كذلك .

والقرارات تصدر بلفظ: "صارت المطالعة لما حرره حاكم الجهة – وتسمى الجهة – ولدن التامل لجميع اطراف النزاع رأينا " ويذكر وجوه النقض والابرام ، والحق اقول ويعلم الله انى غير الحق لاأحبه ولا اقوله :ان كل واحد من الاعضاء كان يضع امضاءه على ما يقدمه له رفيقه الذى قد نفذ غرض اختلاس وكسب صفقة رابحة من احد طرفي النزاع واشار على هذا الطرف ان يذهب الى الشركاء ويسلم لكل واحد مبلغا لئلا يتردد احد الشركاء عن الامضاء بعذر انه يريد امعان النظر في محتويات النزاع وقرارات الاستئناف التي قد نقضت وابرمت ، وابرمت ونقضت .

ولقد قدر علي ان اعود الى الهيئة الشرعية لمطالعة الاحكام بعد اكثر من ست سنوات من حكم الامام فقد اصر على عودتي لهذه الوظيفة بالرغم من تهربي وبالرغم مما ابديته من الاعذار ،وقبلت مكرها اذ لم اجد بدا من الرضوخ وخشيت لو رفضت ان يغضب الامام . وقد حمدت الله الان اذ اني وقفت في خلال مدة لم تتجاوز الشهر على ما لم يمكن ان يقبله عقل ولا يتصوره خيال. فبعض القرارات التي تحررت باطلاعي في سنة ٦٥ و٦٦ هـ وكنت اظن ان قضاياها قد فصلت وانتهت وجدتها قد نقضت وأبرمت عدة مرات وأعيدت الى الهيئة ، كما انى قد وجدت ان العبث والفوضى في القضاء قد توسعا بصورة مفزعة ،ووجدت الرشوة تبذل بصفة مدهشة وتقبل بدون اى تردد والمساومة علنية ، واذكر هنا اسماء اعضاء الهيئة الشرعية ورئيسها المرهقين بالاعمال الساهرين على شريعة محمد بن عبد الله :

رئيس الهيئة الشرعية :السيد احمد بن محمد زبارة
عضو اول : القاضي عبد الرحمن الارياني .
" " :القاضي عبدالله بن علي اليدومي اليماني .
" " :القاضي عبدالله بن محمد الارياني .
" " :السيد محمد الكبسي .
" " :السيد هاشم المرتضى .
كاتب اول :السيد احمد شرف الدين صهر السيد حمود الوشلي .
كاتب ثاني : السيد احمد بن حمود شرف الدين صهر السيف يحيى ابن الامام .
كاتب القرارات : القاضي حسن تقي كاتب المقام الشريف .

هؤلاء هم هيئة مطالعة الاحكام وقد ذكرتهم دون اعضاء الديوان .. الشريف ودون اهل الاستئناف لان وظيفتي كانت بالاشتراك معهم . وعرفت انه يصل في الاسبوع ما يزيد على مائة وخمسين حكما وهي على ما هي عليه من طول المساحة لايمكن لكل عضو مطالعتها في خلال شهر او شهرين او ثلاثة ، ومن يدخل الى قاعة غرفة مطالعة الاحكام يرى الفوضى بارزة باشنع صورها فالاحكام هنا وهناك اكواما مكدسة بدون ترتيب ولا نظام .

وعرفت ان حكما للسادة آل اسحاق الساكنين في وصاب العالي في شفعة يقع في اكثر من مائة وخمسين

صفحة من الحجم الكبير قد بقي عند القاضي عبد الله الارياني حوالي ثلاثة اشهر ،ولدى الرئيس زبارة اكثر من ثلاثة اشهر ، ووجدته قد قضى مدة تزيد عن شهرين لدن القاضي عبد الرحمن الارياني وسلم الى القاضي اليدومي ،وبقي مدة وأخذ السيد هاشم المرتضى امام عيني ،وتصفحت انا بعضه وسمعت من كل واحد انه لم يطالعه كله. وقال الرئيس زباره انه سيضع امضاءه عند ما يرى الاكثرية قد وضعوا امضاءاتهم على اى قرار كان ، بل انه لايثق كثيرا الا بامضاء الارياني فاذا ما وضع الارياني امضاءه فسيضع امضاءه .

ووجدت ان الحكم هذا قد سبق ان قرر بشيء من التناقض من نائب الامام السيد حمود الوشلي ومن عضو الديوان السيد زيد عقبات ومن آخر من اعضاء الديوان وانشق هوءلاء المقررون على انفسهم .

ووجدت حكما بين فلان الحرازى وغريم له قد تناوله النقض والابرام ومضى عليه اكثر من عشرين سنة ولا يزال بايدى الحكام والهيئات .

ووجدت حكما تحرر من القاضي عبد الله الارياني ومساحته في الطول تبلغ ثلاثين ذراعا وهو بين الجداوى وغريمه .

ووجدت احكاما بين القاضي عبد الوهاب الجنيد واخوته قد مضى عليها قرابة خمسة عشر عاما واكثر من ذلك ولا تزال بين نقض وابرام وعبث وفوضى . وحكما بين السيد اسماعيل الشامي والسيد مطهر الشامي قد لعبت بالديوان واعضائه ورئيسه ، وبالهيئة الشرعية واعضائها ورئيسها ، وكشفت الاطماع وبينت مقدار التهور على الحطام فلم يضعوا فيها قرارا حاسما حتى لقد امر الامام بحبس هياتي المطالعة وحبسوا فعلا في اليوم الذى صدر فيه الامر بانضمامي الى هيئة المطالعة ،وتشاءموا بمقدمي الكريم .والعجيب في الامر – حتى بعد حبسهم في غرفة هيئة المطالعة – لم يحرروا قرارا ولا اتفقوا لقد كان السيد مطهر الشامي بذل بسخاء زائد ، بينما الحق كما قيل بجانب السيد اسماعيل وفيه شح زائد ، وكلما فعلته الهيئات هو تقديم رجاء للامام ان يستدعى الخصمين ويفرض عليهم صلحا اجباريا ،ووضعوا الخطوط الرئيسية لهذا الصلح ،فقلت في نفسي :

الامر هذا واقع عن علة
الصمت عنها جاء كالافصاح

وهكذا صار العبث ظاهرا او بصورة ابشع والفوضى متفشية بصفة اكبر ولا سيما ولا تحديد في حكومتنا للوظائف ولا المسوءليات فقد يتقرر الحكم بي الاستئناف نقض ما قررته الهيئة ابتداء من عندها فلا يكاد يستقر حكم ولا ينتهي خصام .

ومما سبق يعرف القارىء الكريم ان الكلمة الاخيرة في القضاء انما هي كلمة الخصوم انفسهم ،وانها لن تأتي هذه الكلمة من قبلهم حتى يقعدهم او يقعد احدهم الفقر والاعدام ،او الجنون عن مواصلة الشجار والاستمرار في المحاكمة ،وحتى تكون قد مضت عليهم في المحاكمة اعوام واعوام ،ولهذا فلا تعجب ايها القارىء اذا قلنا لك ان القضاء في هذه البلاد الشقية بحكامها قد كان سببا كبيرا في انهيار اسر كبيرة كانت ذات ثراء ونعمة وسعادة والفة ومال وبنين وخدم وحشم ، فأحال القضاء ثراءها فقرا ، ونعمتها بلاء ،ووحدتها شتاتا ،والفتها وحشة ، وسعادتها شقاء ،وساقها في كثير من الاحيان الى التناحر والتقاتل ، ولو اردنا ان نضع بين يديك اسماء هذه الاسر التي اتى عليها معول القضاء بايدى حكامها وامامها وان نأتي على طرف من تاريخ محنتها لما وقف بنا القلم الا بعد ان نستنفذ كل ما عند القارىء من شوق الى المعرفة وصبر على المطالعة وجلد على تحمل ما توحي به من الم مرير

وحسرة قاتلة على حالة هذه الامة المكودة الحظ السيئة الطالع ، المشرقة الماضي والمظلمة الحاضر ، التي نكبت باسم الدين وعذبت تحت شعار الشريعة السمحة التي شرعت لتوفير سعادة البشرية ، نكبت نكبة لايمكن ان يتصورها القارىء الا اذا عرف من امرها ما عرفت وشهد من مصارعها ما شهدت ، ولو امكنه ذلك لما وسعه الا ان يندب حظها مع من ندبه من المصلحين ، ويبكى سعادتها مع من بكاها من المفكرين .

صور من القضاء في اليمن

ولكي نشرك القارىء الكريم ببعض ما نجده من الم واسف مريرين لما بلغت اليه حالة هذه الامة التعسة عساه ان يبذل من العون والاسعاف ما يطيقه ومن المساعدة والاشفاق ما يقدر عليه .نضع بين يديه اسماء بعض الاسر اليمنية التي نكبها القضاء وتناولتها قصيدة شاعر عالم مصلح هاله من فساد القضاء ما هالنا وآسفه من فوضاه ما آسفنا فقام يعلن انكاره ان يكون هذا القضاء داخلا في مسمى الشريعة الاسلامية السمحة السهلة التي جاء بها من عند الله سيد الخلق عليه الصلاة والسلام ليسعد بها الانسان .وقد صور هذا المصلح انكاره بصورة سؤال وجهه الى علماء صنعاء حين كان موظفا في ناحية بقرب زبيد :

ياعلماء الدين في صنعاء اليمن
ومن بهم تحيا الفروض والسنن
ومن هم العمدة في هذا الوطن
ومن بهم تجلى دياجير الفتن

* *

اني فتى اتيت من زبيد
اجوب كل مهمة وبيد
أسألكم ولست بالبليد
لكن قلبي ياسراه ما اطمأن

* *

عن رجل من احسن الرفاق
قد علق النفاذ للطلاق
تعليق خائف من الفراق
فقال وهو سائر على سنن :

* *

ان كان ما تأتي به الحكام
شريعة جاء بها الاسلام
فانت مني طالق حرام
فكيف حكم ذاك ياذوى المنن

* *

ان قلتم قد وجب الطلاق
في شرعنا ولزم الفراق
فانه يقول والاماق
تسيل في خدوده من الحزن :

* *

شرع النبي جاء يمنع الرشا
وشرعهم يبيحه لمن يشاء
فكم رأينا حاكما اذا ارتشى
وغير الحكم اذا الريال رن

* *

شرع النبي ينصف المظلوما
يريح من ساعة الخصوما
وشرعهم يناصف المظلوما
ويجعل الشقاق مطلق الرسن

* *

شرع النبي يقطع الخلافا
وشرعهم يعرقل الانصافا
لاسيما ان طلب استئنافا
خصم فيا طول العناء والمحن

* *

شرع النبي يحسم النزاعا
وشرعهم يزيده اتساعا

فكم رأينا رجلا قد باعا
لدى الخصام ما بدا وما كمن

* *

قم وابدأ (الحروى) بالسوءال
كم قد مضت عليه من الاحوال
وهو بصنعا فى اشد حال
بالصبح يشكو الجوع والليل الكتن

* *

واستفهم (ابن ناشر بن قاسم)
وخصمه ذوى الثراء الناعم
كم بقيا في رده الحاكم
وهددا بالربط في (باب اليمن)

* *

واسال اذا شئت (بني الصباحي)
ما استثمروا من كثرة التلاحي
وكيف نقض الحكم بالاصلاح
من بعد تقرير الامام والحسن

* *

واسال (اباعلي)في الطويله
ماذا جنى في المدة الطويله
وكم شرى بالرشوة الوبيله
من ذمم جاءت رخيصة الثمن

* *

وسل (محمد رزق) و (الزنداني)
والحاج (خصروفا)مع (الهمداني)
عما به قد حكم (اليماني)
من بعد تقرير الامام الموءتمن

* *

ولو رأيت ما دهى (بجاشا)
و(الشرعبى) من حاكم قد راشا
سهام اطماع لكي يعتاشا
وخالف الحق بسر وعلن

* *

وسائل (الشاويش) و(الكحلاني)
ما قاسيا من حاكمي (سنحان)
واستقص من (بغلة) ما يعاني
من جور حكم بالرشا مرتهن

* *

وسل (عليعزيز) و (السفرجلا)
و(باكرا) فانه قد نزلا
بهم من القضاء ويل وبلاء
فزاغت العقول منهم والفطن

* *

ومر بالعلامة الكبير
حاكم صنعا الاول الشهير
فان تقف بقصره المنير
فقل له قول نصوح موءتمن :

* *

لقد فسخت يا أخا العرفان
جورا لزوجة الضعيف العاني
وزوجت (بأحمد السلطان)
رغما على الزوج الجهول الممتهن

* *

فان يقل لكونه مجنونا
فقل له قد بقيت سنينا
راضية وولدت بنينا
فاستغفر الله العظيم وارجعن

* *

وسل وسل بعد بلا انقطاع
تجد مكان القول ذا اتساع
وحصرة ليس بمستطاع
ولو اراد ذو بيان ولسن

* *

والله لو ان النبي نظرا
الى الشريعة التي لها ترى
لظل منها دمعه منهمرا

يقول من ذا غير الاسلام من؟

* * * *

ولنكمل الفائدة بشرح وجيز لقضايا الذين اشار اليهم الشاعر في قصيدته زيادة في تصوير الحقيقة فنقول :

الحروى

هو قايد بن محمد الحروى من قرية "حروة" احدى قرى ناحية القبيطة التابعة لقضاء **الحجرية** ،وهي قرية عرف اهلها بالنشاط في الاعمال التجارية ومنها يكسبون ثرواتهم ،مات ابوه وهو غلام يافع وجعل الوصي عليه عبد الله محمد **الدهبلي** . واستولى هذا بحكم الوصاية على كل ما خلفه الموصي من ذهب ونقود وعروض تجارة ، ولما بلغ الولد رشده اراد ان يحاسب الوصي على من تولاه من التركة ،ودخل شيطان الاطماع والاهواء بينهما فترافعا اولا الى امير اللواء التعزى علي بن عبد الله الوزير فقضى بينهما قضاء حسبة الحروى حيفا عليه فرافع خصمه الى محكمة الاستئناف بصنعاء وهناك وجد الخصمان الميدان واسعا ،واختلفت عليهما ايدى الحكام ،وتناقضت في قضيتهما الاحكام ، وتعاورها من القرارات النقض والابرام .ومضت اعوام واعوام تجاوزت العشرين عاما اتى "الحروى" فيها على جميع ما تركه والده من الثروة الضخمة والمال العريض حتى اصبح فقيرا معدما يتعرض لصدقات اهل الخير ،ولم يظفر بحكم فاصل له او عليه ،فكان الفقر حكما فاصلا ،والاعدام قرارا ناجزا ولقد رأيت "الحروى" في "مكة" فسألته عن حاله فقال : لقد دخلت "صنعاء" غنيا ثريا فانفقت كل ما في يدى للحكام والكتاب والاستئناف ،وبقيت اعواما في صنعاء اعيش على صدقة الناس في انتظار الفصل ،ثم غادرتها فقيرا معدما دون ان احد للعدالة اثرا او اعرف للقضاء نهاية ،وها انا الان اضرب في مناكب الارض طلبا للرزق ،والى الله اشكو ما حل بي من امامكم وحكامكم .

ابن ناشر قاسم والحاج علي الشرفي

الخصمان كلاهما من عزلة "البخارى" احدى نواحي قضا "اب" اختلفا على ميراث لاحدى قريباتهم فتحاكما في " المخادر ثم في اب ثم في ذمار" ايام امارة السيد عبد الله بن احمد الوزير ثم اخيرا ترافعا الى صنعاء ، وبقيا اعواما تلاعب بهما الحكام عدة سنين ،وتلاعبا هما بذمم الحكام وعقول الحكام وضمائر الحكام بما بذلاه من السحت الحرام حتى تجاوزت عدة الاحكام المتناقضة والقرارات المتخالفة – المائة – ولما ثاب اليهما رشدهما بعد ان وجدا نفسيهما فقيرين بعد الغنى معدمين بعد الجدة ، وتصورا هول المصرع ذهبا يعرضان ما بأيديهما من الاحكام والقرارات المتناقضة على الامام وعلى العلماء وعلى العامة بصورة لافتة فضحت الحكام فضيحة مخزية فأراد الامام أن ينتزع ما بأيديهما من الاحكام والقرارات المتناقضة استدراكا للامر وسترا للفضيحة ،فأبيا عليه ذلك وقالا : (لقد عزمنا على ان نوصي اولادنا بأن يدفنوا معنا هذه الاحكام وهذه القرارات لنضعها بين يدى الرسول صورة لحال شريعته في عهدكم السعيد) ، واستشاط الامام غضبا وهددهما بالصلب في باب اليمن ان اصرا على عنادهما ،وفعلا ربطا بضع ساعات حتى سلما عددا من الاحكام والقرارات الى الامام فمزقها وخلى سبيلهما ،فانقلبا الى بلدهما فقيرين يلعنان القضاة والقضاء ويتجاوزان ذلك الى السخط على الشريعة نفسها .

بنو الصباحي

اما بنو الصباحي فانهم اخوة وبنو اب واحد من

نفس مدينة اب ، نشأ خلافهم نتيجة لسوء تصرف والدهم بتخصص اكبرهم بأوقاف ووصايا حكم بنفوذها آخر حكام الاتراك واول حكام الامام يحيى وحكم بذلك الامام نفسه عملا باختياره نفوذ مثل هذه الوصايا اذا حكم بنفوذها حاكم ، ولكن حكم الامام لم يكن فاصلا في القضية ، فاستمر النزاع والخصام طيلة حكم الامام يحيى ،واخيرا نقضت تلك الاحكام بالصلح الذى لم يتم هو الاخر . وكانت هذه المحاكمة الطويلة الامد سببا في تباغض ابناء هذه الاسرة المحترمة ،وتشاحنهم وتقاتلهم حتى ملتهم السجون واكلتهم الاغرام وكاد ان يأتي على ثروتهم الحكام ،والله يعلم الى اين ينتهي بهم الهوى .

ابو علي

اما "ابو علي " فهو احد اثرياء قضاء الطويلة تخاصم مع خصمه "السحاني" لدى السيد علي بن حمود شرف الدين ثم في صنعاء ،وكان الحق في جانب "السحاني" ،ولكن" ابا علي " استطاع بثروته الكبيرة ان يشترى ذمم الحكام مبتدئا " بعلي ابن حمود " ومنتهيا بالامام يحيى وتلاعب بذهبه ونقوده بعقول حكام صنعاء فاستمدوا له من حواشي الازهار وتعاليقه ما جعل القضاء يبدىء في قضيته ويعيد مرات ومرات حتى انتهى ذلك بخصمه الى الاعياء والانسحاب من الدعوى والتخلي عن الحق وتركه لخصمه الثرى بعد ان خسر كل ثروته في سبيل الدفاع عن قضيته العادلة .

محمد رزق

اما محمد رزق فهو احد اهالي هجرة "العر" ناحية "الحيمةالداخلية" ، اختصم مع " الزنداني" احد اهالي "الروضة" على موضع في وادى "السخنة" وطال الخصام عدة سنين وتناقضت القرارات والاحكام وانتهى الامر بخنوع محمد رزق ونزول سيل اخنخف المتنازع عليه وأراح الغريمين من عبث القضاء .

الحاج احمد خصروف

اما الحاج احمد خصروف فهو احد اهالي بني مطر اختلف مع علي يحيى الهمداني الثرى الشهير ، وتعاقبت عليهم ايدى الحكام ،وانتهى نزاعهم اخيرا الى السيد عبد الله بن الوزير فمال كل الميل الى الهمداني ،وكان خصروف قد تمسك بحكم من القاضي عبد الله البدومي وتقرير تقرير من الامام ولكن كل ذلك لم يجده نفعا مع ان الهمداني قد حاول مصالحته على عشرة آلاف ريال يدفعها له في نظير ابطال الدعوى فأبى ذلك ،وقد خرج من المحاكم المتعددة مقضيا عليه اذ عمد الهمداني الى تفريق ذلك المبلغ على الحكام الذين قضوا على خصروف بالباطل .

بجاش

اما "بجاش" فهو احد اهالي "العدين" وغريمه "الشرعبي" من ناحية (شرعب) من لواء (تعز) وقد جر طول نزاعهم الى سقوط قتلى من الفريقين في فتنة سببها تمسك كل واحد منهم بحكم يقضي بثبوت الحق له ، وكان هذان الحكمان المتناقضان قد صدرا – مع الاسف الشديد من حاكم واحد أجزل كل واحد من الخصمين له الرشوة فحكم له على حسب هواه ولم يخجل من افتضاح امره امام الناس وامام الاستئناف وبين يدى المقام الشريف وانتظر الناس ان يعاقب هذاالحاكم الذى تسبب لسفك الدماء لسوء تصرفه وجشعه بالحبس او العزلة

او التفريع ولكن شيئا من ذلك لم يحدث .

الشاووش

اما "الشاووش" فهو من قرية (حزيز) ناحية (سحان) وغريمه (الكحلاني) من صنعاء نفسها اختصما على اشجار اثل لا تتجاوز قيمتها عشرة ريالات ،ومع ذلك فقد طال الخصام وافضى الى الفتنة التي ضرب فيها الكحلاني فحبس غرماؤه ومكثوا في السجن زمنا ،وكل ذلك ناتج عن تناقض الاحكام وارتشاء الحكام .

بلـة

اما "بلة" فهو احد تجار (صنعاء) تنازع مع آخر على بستان وبيت ،واقام "الحاج محمد عكارس" وكيلا عنه ،وكان هذا من وكلاء الشريعة الذين لهم سلطة على المقام الشريف وعلى الحكام كما مر بنا – فلا يمكن ان يقضي حاكم بغير ما يمليه عليه هذا الوكيل ،وقل ذلك عن الاستئناف والمجلس النيابي والمقام الشريف ،وقد تعاون كل هؤلاء على امتصاص كل ما في يد "بلة" وخصمه ولفظوهما فقيرين معدمين .

علي عـزيز

اما "علي عزيز" فانه احد اهالي (اب) تحاكم مع خصم له لدن السيد يحيى بن محمد عباس فقضى عليه قضاء جائرا فقده عقله فظل يهذي بهذا الحاكم وبالحكم زمنا .

السـفرجل

وهكذا "السفرجل" احد اهالي (صنعاء) فقد جن هو الاخر بسبب عبث القضاة وفسادهم .

علي باكـر

واما "علي باكر" احد اهالي (عمران) فقد كان نجارا ماهرا رافعه غريمه الى صنعاء واحيل معه الى حاكمها الاول .ولما كان حضرة الحاكم مشغولا ببناء بيت ضخم فقد ساقت الصدفة السيئة هذا النجار ليعمل له في داره سنة كاملة بدون اجرة بناء على ما كان يعده به الحاكم من ان الحكم سيكون في صالحه ولكنه بعد استغنائه عنه اخذ رشوة من الاخر وقضى على النجار المسكين قضاء ذهب بعقله الى غير رجعة .

قضية الفسـخ

اما "قضية الفسخ" فحاصلها ان زوجة احد آل البدومي من صنعاء وكانت امرأة جميلة وقعت بينها وبين احمد السلطان علاقة غرامية افضت الى الفسخ لها من زوجها بعلة جنونه بعد ان دفع "السلطان" للحاكم الاول مالا جسيما ونحن لا ننكر ان الزوج الاول كان مصابا بشيء من الذهول ،ولكن المرأة قد رضيت به وعاشت معه دهرا وأولدها بنين وبنات وهذا مما يمنع الفسخ على رأى علماء الزيدية الذى اعتمده الحاكم في القضية . ولهذا نجد الشاعر قد ناقش الحاكم في المسألة نقاش فقيه عارف .

* * *

وبعد فقد وضعنا امامك ايها القارئ ثلاث عشر صورة من صور القضاء العابث ولم نخترها لانها اغرب ما في تاريخ القضاء في هذه الفترة ولالانها

ادل من عبرها على الفوضى والفساد ، فان لها مئات الامثال التي فيها ما هو اغرب واعجب ،وانما اخترناها بالذات لان الشاعر لامر ما – قد يكون لعلاقته بأصحابها ومعرفته بهم – قد اختارها في سواه ، ولما كان الشعر كما يقولون من اصدق صفحات التاريخ فقد كان ايرادنا لها ايرادا للمسألة بدليلها كما يقول الاصوليون ، والا فقل ان نجد اسرة ثرية في اليمن لم ينكبها القضاء ولم يشاركها القضاة ثروتها ولا شاطروها ما لها برغم انفها ، ولا مست بضربات قاسية من معول القضاء الهدام صدعت وحدتها وهدمت كيانها وذهبت بثروتها وقد كان تناقض الاحكام هو اقوى عامل على كل هذا الدمار والفساد كما ان جشع الحكام وأهواءهم وتكالبهم على الاموال هو سبب هذا التنافس الذي قد يستغرب القارئ حصول مثله في الاحكام المتعلقة بقضية واحدة ولو كان شرط اجتهاد الحاكم مرعيا في حكومة الامام يحيى لما كان في هذا التناقض كبير غرابة اذ نقول ان كل قاض قد يقضي بحسب اجتهاده ،ولكن الامام قد اخذ على جميع حكامه ان لايقضوا الا بما يوافق المذهب الزيدي الا فيما له فيه اختيار خاص .

ولكن هذا الاستغراب والعجب يبطل ويزول حين يعرف المرء اولئك القضاة الفاسدين والوكلاء المستغلين ، ورغبات المقام الشريف العليا مع فوضوية المذهب وذلك ما سبق ان اشرنا اليه في الفصول السابقة .

مسئولية الشعب

ما اخال انه سيغيب عن ذهن القارئ المنصف ان الذنب في هذه الفوضى الضاربة اطنابها في محاكم القضاء اليمنية ،وفي هذا الفساد الماثل في كل ناحية من نواحيه وجهة من جهاته ليس ذنب القضاة وحدهم ولا بالاشتراك مع حكومة الامام ولا فوضوية المذهب الذي تحكم به البلاد ،وانما هناك جهة اخرى مسئولة ايضا عن هذا الفساد ،وبالتالي عما ينشأ عنه من ويل وما يحل بالامة بسببه من بلاء وتلك الجهة هي جهة الخصوم انفسهم .

وقبل ان ندخل في بحث الموضوع نود ان نورد هنا ذلك المثل العامي الذي احتج به المتخاصمان على "المشقار" حين صمم الحاكم على السفر لان قلبه اوكله المسعور بين جنبيه –على الاصح – قد سافر ، فقد قال الخصمان :

– ياسيدي قد اتفقنا ، والمثل يقول :"اذا سدوا الغرماء فلحوا الحاكم " .

و"فلح" كلمة تؤدي معنيين في لغة اهل اليمن : الاول بمعنى اراح اذا انهى المشكل ، يقول المستعجل في امر ما لصاحبه : " هيا افلحني – بمعنى ارحني – بانجاز امري" ، وهذا هو ما قصد اليه المتخاصمان حين اوردا المثل لحضرة القاضي .

والمقصد الثاني في كلمة "فلح" بمعنى اغاض قلبه حتى فطره ، يقال حين التبرم : "اما انا فقد فلحني بمعاملته" . ولو ان ابناء اليمن قد ساروا على هدى المثل العامي الذي انبعث من خلاصة تجاربهم واصبح يدور على السنتهم في اكثر الاحوال واقول لو ان ابناء اليمن قد ساروا على هدية ، واحتكموا الى انفسهم لحملوا هذه الكلمة معناها الاخير فانقرض حزب قضاة السوء ، واريح المسلمون والاسلام من عبثهم بالحقوق وتماديهم في الباطل فالامام يحيى حين كان يوحي الى حكامة بالتطويل وعدم الفصل وتوسيع دائرة الخصام ، وجعلهم مطلقي التصرف في هذه الناحية انما وجههم الى الوجهة التي تقصد اليها اهواءهم ،وتميل اليها

غرائزهم المجبولة على حب المال واشتهاء الاثرة ، فهو في نظرى المسئول الاول لانه الراعي الاعلى ، وكل راع مسئول عن رعيته ، كما انه المصدر الاعلى لكل هذاالبلاء .

شرطان يا ضياء شرطان

وانالا اقول هذا تهجما على جلالة الامام او مجازفة والقاء للكلام على عواهنه او عملا بالدلائل والقرائن الكثيرة التي تبدوا في كل جواب من جواباته ، وتوقيع من توقيعاته ،وانما اقول اخذا بصرائح اقواله واليك ما حدثني به احد الفضلاء قال :

ذهبت في يوم من الايام الى السيد حسن الوريث – وكان من معتمدى حكام الامام يحيى وقد تولى القضا في ذمار ثم في اب– لاشفع لديه في فصل قضية طال امدها ولحق المتحاكمين فيها ضرر كبير ، وكان السيد يطمئن الي ويأنس بي ولي عليه دالة تخولني حق الشفاعة عنده ، ولكني ما قدمت شفاعتي اليه ورجوته النظر في فصل تلك القضية حتى اجابني على رجائي قائلا :

ـ شرطان ياضياء شرطان .

وظننت ان الشرطين متعلقان بامكان فصل القضية من حيث ملابساتها ، وانتظرت ان يتم الحاكم كلامه فقال :

– شرطان شرطهما الامام علينا : "اضعاف القوى ، وعدم فصل الخصام " .

قال محدثي : فبهت حين سمعت هذا وانكفات راجعا ادراجي .وفي رواية هذا الفاضل عن الحاكم المعتمد ما يدين صاحب الجلالة الهاشمية بما قلناه .

نصيب الحكام من المسئولية

اما الحكام فانهم باندفاعهم وراء اطماعهم وانقيادهم لنوازعهم وجريهم في اثر المطامع وعبادتهم للمال الى هذا الحد الذى جعلهم يستهينون بكل مقدس في سبيل الحصول عليه فانهم قد وضعوا انفسهم في موضع المسئول الثاني عما نراه من فساد . وقد سبق ان بسطنا الحديث عن اثر فوضوية المذهب الزيدى في التلاعب بالقضاء فلا حاجة لتكرار الحديث هنا .

* * *

واما الخصوم – وهم موضوع حديثنا هنا – فانهم بتحكم الاهواء فيهم ،واستيلاء الكبر عليهم ، وسيطرة العصبية والانانية على عقولهم ، واستفحال العداوة في ذات بينهم ،وانعدام روح المقاومة من نفوسهم ،وعدم تفكيرهم في رفع الايدى العابثة بهم قد هيأوا من انفسهم مرعى خصبا ،وبقرا حلوبا ، وانعاما مذالة لهؤلاء الذين لا اثر للتعاليم الاسلامية في نفوسهم ،ولا محل للاداب الدينية في قلوبهم المغفلة ،ولا سبيل لصوت القرآن الى ضمائرهم الميتة .. فالخصوم بهذا الاستلام قد تحملوا جانبا كبيرا من المسئولية عما في القضاء من فساد فهم بحق المسئول الاكبر عن ذلك . ولو انهم قلموا اظفار الحكام بامالة الاهواء التي تدفعهم الى الخصام ،ولو انه اعطى كل واحد منهم الحق من نفسه ،ونظر الى الامر بعين عقله لابعين هواه وانانيته لهان عليه ان يتنازل لاخيه في النسب او في الدين ،او جاره في الدار او في القرية عن بعض ما سيكلفه الشجار من اغرام ، وما سيدفعه للموظفين والحكام ، ولكان في ذلك خير مشترك بينهما ،ونفع عائد عليهما . ولو تناهى الناس فيما بينهم وتناصفوا في ذات انفسهم ،وقاطعوا المحاكم الشرعية ،او بعبارة اصح اوكار اللصوصية ، وحلوا مشاكلهم بأيديهم ،وقسموا مواريثهم فيما بينهم ،

فان طلبهم الحاكم او حاولت الحكومة التدخل في قضاياهم هبوا في وجهها مجتمعين واحتجوا عليها مجتمعين ، وافهموها ان الدين لم يخولها حق التدخل في مثل هذه الاحوال فان اوغل احد الحكام في العناد ، وابت عليه اطماعه الا اصرارا على الانسياق وراءها عمدوا الى التشهير به في المجامع والاعلان عن مثالبه في شتى المناسبات حتى يصبح عبرة لغيره ،ويرضى من الغنيمة بالسلامة ،والله تعالى لايحب الجهر بالسوء من القول الا من ظلم .

والناس ان فعلوا ذلك احرزوا اموالهم ووفروا كثيرا من اوقاتهم التي يقضونها في ابواب المحاكم وساحات المقام الشريف ،ولربحوا فيما يربحون اعراضهم التي تهان بأيدى الجند والحجاب ، وكرامتهم التي تداس بأقدام المحضر والبواب ، ولما رأيناهم يتساقطون في ابواب المحاكم تساقط الذباب على الاوحال وفي المستنقعات ، ولما اصبحت الاسر متفككة والتركات مهددة مشتتة ، والحقوق مبعثرة مهتوكة ، والفصل في القضايا متعذراواستيفاء الحق من طريق القضاء متعسرا . ولكنهم لم يفعلوا شيئا من ذلك مع الاسف الشديد ولو فعلوا ذلك لصدق عليهم انهم قد غيروا ما بأنفسهم ، واذا غيروا ما بأنفسهم رجونا الله ان يغير ما بهم *** ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم واذا اراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ومالهم من دونه من وال * .**

بداية يقظة مبشرة

على انه قد تنبه كثير من عقلاء الاثرياء في اليمن بعد ان رأوا عدة عبر من مصائر التركات ومصارع الاسر فعمدوا الى تقسيم ثرواتهم بين ورثتهم قبل وفاتهم وعينوا نصيب كل واحد من الورثة بفصل خاص ،وتجنبوا التصرفات التي توجب الخلاف بين الورثة ، ولم يكتفوا بذلك حتى اخذوا رضى كل واحد من الورثة بما صار اليه ، ثم عرضوا الفصول على المحكمة ودفعوا للحاكم مبلغا من المال في نظير تقريرها والموافقة عليها ،وبعد ذلك اودعوها عند معتمد ليسلمها الى الورثة عقيب موت مورثهم . فسدوا في وجوه الحكام كل نافذة تنفذ منها اطماعهم ،وارغموهم على القنوع بذلك المال الذى دفعوه لهم عند التقرير ،وصانوا اسرهم من التفكك وثرواتهم عن الاستهداف لاطماع الحكام واستهتارهم وحبذا لو اقتدى الناس بهؤلاء العقلاء وسلكوا مسلكهم وقفوا اثرهم اذا لامنوا على اولادهم ومخلفيهم جانب الحكام وعبثهم ، ولتركوا المحاكم مقفرة والحكام عاطلين ، ولارغموهم بذلك على التزام خطة القسط في القول ، والاعتدال في العمل ومثل امر التركات بقية ابواب القضاء .

وهذه نصيحة مخلصة اوجهها الى كل يمني له مال وعنده عقل يهمه حفظ ماله واسرته وشرفه وكرامته ، وهي نصيحة مخلصة من شفيق بهم حان عليهم ، يمضه الالم لما يراه من سوء حالهم ، ويرمضه الاسف لما حل بهم :

*** ومن احسن قولا ممن دعا الى الله ، وعمل صالحا ، وقال انني من المسلمين * .**

عدن
احمد عبد الرحمن المعلمي

مَشْرُوع قانون الآثار

وضع :
اللجنة الفنية لوضع مشروع قانون متطور للاثار ، تكون خطوطه العامة مناسبة للتطبيق في جميع البلاد العربية ..

الخطوط العامة
التي اقترحتها اللجنة للمشـروع

كان المؤتمر السادس للاثار في البلاد العربية الذى عقد في ليبيا عام ١٩٧١ قد أوصى بوضع قانون متطور للاثار في البلاد العربية تكون خطوطه العامة مناسبة للتطبيق في جميع البلاد العربية ..

وفيما يلي الخطوط العامة " لمشروع هذا القانون كما اقترحتها اللجنة الفنية التي عقدتها المنظمة بالقاهرة في المدة من ٢٥ الى ٢٩ مارس ١٩٧٤ ".

الباب الاول

تعريف الاثار :

يعتبر أثرا أى شيء خلفته الحضارات ، أو تركته الاجيال السابقة ، مما يكشف عنه أو يعثر عليه ، سواء كان ذلك عقارا أو منقولا يتصل بالفنون أو العلوم أو الاداب أو الاخلاق أو العقائد أو الحياة اليومية ، أو الاحداث العامة ، وغيرها مما يرجع تاريخه الى مائة سنة مضت (١) متى كانت له قيمة فنية أو تاريخية .

ويجوز للسلطة الاثرية أن تعتبر – لاسباب فنية أو تاريخية – أى عقار أو منقول اثرا ، اذا كانت للدولة مصلحة وطنية في حفظه وصيانته بصرف النظر عن تاريخه .

وتعتبر من الاثار ذات الشان الوثائق والمخطوطات (٢) كما تعتبر بقايا السلالات البشرية والحيوانية والنباتية من الاثار التي يجب المحافظة عليها وصيانتها شانها شان الاثار الاخرى .

السلطات المختصة بالاثـار ومهـامها :

السلطة الاثرية في هذا القانون هي (٣) ......

وتتولى هذه السلطة الكشف عن الاثار في البلاد وحمايتها وصيانتها والمحافظة عليها ، وتسجيلها ، وعرضها للناس ، ونشر الثقافة الاثرية .

ويدخل في اختصاصات هذه السلطة ايضا ....(٤)

أنواع الاثـار وتقسيمـاتها :

ا ـ **آثار ثابتة : مثل** : بقايا المدن والمباني ، والتلال الاثرية والكهوف والمغاور ، والقلاع والاسوار والحصون ، والابنية الدينية ، والمدارس وغيرها ، سواء كانت في باطن الارض أو تحت المياه الداخلية أو الاقليمية .

ب ـ **آثار غير ثابتة** : وهي المنقولات التي صنعت لتكون بطبيعتها منفصلة عن الاثار الثابتة ، ويمكن تغيير مكانها بغير تلف . وللسلطة الاثرية أن تعتبر الاثار غير ثابتة أثارا ثابتة اذا كانت جزءا من أثر ثابت ، أو مكملة له أو مقرونة به ، أو مرفقا فيه .

ملكية الاثـار :

الاصل العام هو ملكية الدولة لجميع الاثار الثابتة والمنقولة ، والمناطق الاثرية ، ويستثنى من الاثار التي يجوز لغير الدولة اقتناؤها طبقا لاحكام القانون .

وللسلطات الاثرية حق استملاك أى مبنى تاريخي ، أو أية منطقة أثرية أو أية آثار منقولة مسجلة ، مما يمتلكه الغير .

ولا يجوز للافراد أو الهيئات تملك الاثار الثابتة بالتقادم .

الباب الثاني

التنقيب والحفريات

تعريف التنقيب :

التنقيب عن الاثار هو جميع أعمال الحفر والسبر والتحرى بهدف العثور على آثار منقولة أو غير منقولة في باطن الارض أو على سطحها ، أو في مجارى المياه او البحيرات ، أو المياه الاقليمية .

ولا يعتبر العثور مصادفة على أثر أو آثار تنقيبا .

جهة الاختصاص بالتنقيب :

السلطة الاثرية وحدها هي صاحبة الحق في القيام بأعمال التنقيب أو الحفر ، ولها أن تسمح للهيئات والجمعيات العلمية والبعثات الاثرية بالتنقيب عن الاثار بترخيص خاص وفقا لاحكام القانون .

ويجوز — في أضيق الحدود ، ولضرورة فعلية ، وبشرط توافر الامكانيات المناسبة — الترخيص للافراد بالتنقيب .

ويحظر على أية جهة أو أى فرد ، التنقيب عن الاثار الا بترخيص من السلطة الاثرية ، حتى لو كانت الارض مملوكة للفرد أو الجهة .

التنقيب في الارض المملوكة لغير الدولة :

اذا كانت الارض المراد التنقيب فيها ملكا للافراد ، فعلى الجهة المرخص لها بالتنقيب في هذه الارض الاتفاق — بالتراضي — مع الملاك على مبدأ التنقيب ، وتعويضهم عن الضرر ، واذا لم يتم الاتفاق بالتراضي فانه يجوز الاستيلاء الموقت على الارض بحيث تتولى الجهة المرخص لها بالحفر مباشرته ، كما يجوز — اذا دعت الضرورة — نزع ملكيتها طبقا لاحكام القانون .

شروط منح التراخيص للهيئات والبعثات :

لا تمنح التراخيص للهيئات والجمعيات والبعثات الاثرية الا بعد التأكد من مقدرتها وكفايتها من الناحيتين العلمية والمادية .

وللسلطة الاثرية أن تشترط وجود عناصر فنية معينة في الهيئة التي تقوم باجراء الحفائر .

وينبغي — عموما — أن يتضمن كل ترخيص تمنحه السلطة الاثرية ما يلي :

- صفة الهيئة أو البعثة المرخص لها .
- خدماتها السابقة في هذا الميدان ، داخل الدولة والدول العربية الاخرى .
- الموقع الاثرى الذى تنقب فيه مصحوبا بخرائط .
- برنامج التنقيب .
- أية شروط أخرى ترى السلطة الاثرية اثباتها .

التزامات الهيئات والبعثات المرخص لها بالتنقيب ، وحقوقها :

تلتزم الجهات والبعثات المرخص لها بالتنقيب ، بتصوير ورسم المواقع الاثرية ، وتسجيل الاثار المكتشفة أولا بأول في سجلات خاصة ، والقيام بما تحتاجه الاثار المكتشفة من حفظ ورعاية ، وتزويد

السلطات الاثرية بنتائج التنقيب في فترات متقاربة ، وتقديم تقرير موجز في نهاية كل موسم على النحو الذى تطلبه السلطة الاثرية ، وتمكين ممثل السلطة الاثرية من الاشراف على أعمال التنقيب ، كما أن عليها في نهاية كل موسم أن تنقل الاثار المكتشفة — مع اتخاذ احتياطات عليها — الى المكان الذى تحدده السلطة الاثرية .

وللسلطة الاثرية أن تضيف ما تراه من التزامات أخرى تبعا لظروف كل ترخيص .

وعلى الجهة المنقبة أن تنشر النتائج العلمية لتنقيباتها خلال مدة معينة — حدها الاقصى خمس سنوات — من تاريخ انتهاء أعمالها ، والا جاز للسلطة الاثرية أن تقوم بذلك بنفسها ، أو عن طريق هيئات أخرى دون اعتراض الجهة الاولى ، وعليها أيضا أن توافي السلطة الاثرية بنسخ من البحوث المنشورة ، ونسخ من الصور الفوتوغرافية للاثار المكتشفة ، ونسخ مما تعده من أفلام عن كشوفها ، ويكون للجهة المنقبة الحق في الملكية العلمية لنتائج الحفائر التي تجريها ، كما أن لها أيضا الاسبقية في نشر هذه النتائج .

ويسمح للبعثة الاجنبية التي تمنح ترخيصا بالتنقيب باستيراد المستلزمات التي تلزمها معفاة من الضرائب والرسوم الجمركية عند دخولها ، وتعفى هذه المستلزمات من الرسوم الجمركية نهائيا اذا رأت البعثة التنازل عنها للسلطة الاثرية (٥) .

التبليغ عن الاثار :

على كل من يعثر مصادفة على أى أثر ثابت أو منقول على سطح الارض أو في باطنها ، الابلاغ عنه خلال ثلاثة أيام (٦) .

ويلتزم المبلغ بالمحافظة على الاثر لحين الابلاغ عنه وتسلم السلطة الاثرية له .

للسلطة الاثرية — اذا ما قررت الاحتفاظ بالاثر — منح المكتشف مكافأة مناسبة واذا كان الاثر المبلغ عنه من المعادن الثمينة كالذهب أو الفضة أو الاحجار الكريمة يمنح المكتشف مكافأة لا تقل عن جوهر مادة الاثر بصرف النظر عن قدمه أو صنعته أو قيمته التاريخية .

ويمكن للسلطة الاثرية أن تقرر مكافأة مالية مناسبة أيضا للمرشدين أو المتسببين في العثور على الاثار بصفة عامة .

وتوقع أقصى العقوبة المنصوص عليها في هذا القانون عن عدم التبليغ .

ويراعى التيسير على المبلغين ، في حالة ظهور حسن نيتهم وعدم معرفتهم لمصدر الاثر ، وذلك بما يحقق الهدف ، دون اخلال باعتبارات الردع (٧) —

صيانة الاثـــار وترميمها :

تختص السلطات الاثرية وحدها بصيانة وترميم الاثار ، للمحافظة عليها والابقاء على معالمها وزخارفها ، ولا يحق للمالك الاعتراض على ذلك .

ويجوز للسلطة الاثرية في حالة الاصلاحات أو الترميمات الناشئة عن الاشغال والاستثار أو في بعض الحالات الاخرى التي تحددها السلطات الاثرية أن تسمح لمالك العقار أو حائز الاثر باجراء بعض الترميمات اللازمة للمحافظة عليه تحت اشرافها ، طبقا للشروط التي تضعها ، كما يجوز لها أن تتطلب من مالك العقار القيام بالترميمات اللازمة ، فاذا امتنع قامت باجرائها على نفقته ، مع جواز اعفائه من نفقات في الحالات التي تدعو الى ذلك (٨)

وفي حالة قيام مالك الاثر أو حائزه بترميمه أو تجديده ، بغير ترخيص من السلطة الاثرية أو بغير اشرافها ، جاز لهذه السلطة اعادته الى ما كان عليه على نفقته .

المحافظة على الاثـــار والمناطق الاثرية والمباني والمواقع التاريخية :

يحظر الاتلاف المباشر للاثار الثابتة والمنقولة ، أو تشويهها أو الحاق أى ضرر بها سواء بتغيير معالمها أو فصل أى جزء منها ، أو تحويرها ، أو لصق الاعلانات ، أو وضع اللافتات فوقها ، وغير ذلك .

على السلطة الاثرية ـ بالاتفاق مع جميع الجهات المعنية في الدولة ـ أن تحدد المناطق والمباني والتلال الاثرية على الخرائط.

ويتعيّن عند وضع مشروعات تخطيط المدن والقرى أو توسيعها أو تجميلها ، المحافظة على المناطق الاثرية والابنية التاريخية الموجودة فيها .

ولا يجوز اقرار هذه المشروعات الا بعد الموافقة عليها من جانب السلطة الاثرية .

وعلى جميع الجهات المختصة ـ عند تخطيط أو اعادة تنظيم أو تحسين أو تجميل المدن والقرى التي توجد بها مناطق اثرية أو أبنية تاريخية ، وكذلك عند القيام بازالة الشيوع فيها أن تراعي حقوق الارتفاق التي ترتبها السلطة الاثرية .

ولا يجوز منح رخص بالبناء أو الترميم في الاماكن القريبة من المواقع الاثرية والابنية التاريخية الا بعد الحصول على موافقة السلطات الاثرية لضمان اقامة المباني الحديثة وترميمها على النسق الذى تراه ملائما للطابع الاثرى ، ولها في هذا الشان أن تحدد طراز الابنية الجديدة أو المجددة وارتفاعاتها ومواد بنائها وألوانها لتكون المنشآت الجديدة منسجمة مع المنشآت القديمة .

وتحظر اقامة صناعات ثقيلة أو خطرة او منشآت حربية أو أفران كلس أو محاجر على مسافة تقل عن نصف

كيلومتر (٩) ، ويجوز الاستثناء من ذلك الحالات التي تراها السلطة الاثرية ، مع مراعاة الشروط ـ ـ الاحتياطية ـ التي تضعها .

كما يحظر وضع خطوط كهربائية أو تليفونية أو تلغرافية في الاماكن المذكورة قبل الحصول على موافقة السلطات الاثرية .

للسلطة الاثرية الحق في وقف أى عمل يترتب عليه تشويه الاثر أو المنطقة الاثرية بصفة مباشرة أو غير مباشرة ، ويحق لها ازالة المخالفة بالطرق الادارية مستعينة بسلطات الامن المختصة ، ولها أن تلزم المعتدى باعادة الشيء الى أصله على حسابه الخاص والا كان لها أن تقوم به هي على حساب المخالف .

تتخذ السلطة الاثرية التدابير اللازمة ـ بالاتفاق مع السلطات الاخرى المختصة في زمن السلم والحرب لحفظ المواقع الاثرية والابنية التاريخية بمراعاة الاتفاقيات الدولية التي انضمت اليها الدولة .

اعداد المناطق الاثرية للزيارة وانشاء المتاحف :

على السلطة الاثرية أن تعد الاثار العقارية لاستقبال الزوار واظهار ميزاتها الفنية وخصائصها التاريخية ، وأن تقيم معارض أو متاحف متنقلة للاثار داخل البلاد أو خارجها ـ بشرط التأمين على سلامتها ـ وذلك للتعريف بتاريخ حضارات البلاد .

تسجيل الاثار :

على السلطة الاثرية أن تقوم بحصر آثارها وتصويرها ومسحها مسحا شاملا وتحديد معالم المواقع الاثرية وحدودها ، وأن تعدّ السجلات والاطالس الاثرية المفصّلة ، وذلك كله باستخدام الوسائل العلمية الحديثة .

وتقوم السلطة الاثرية ـ بعد حصر الاثار ـ بدراستها وتسجيل ما ترى تسجيله منها ، وعليها أن تبلغ قرار التسجيل للمالكين أو المتصرفين فيه ، والى السلطات الادارية ذات العلاقة ـ مثل الدوائر العقارية ـ لتقوم هي أيضا بتسجيلها وذلك بالنسبة للاثار الثابتة ، ويظل التسجيل الذى تم قبل صدور هذا القانون صحيحا الى أن يتم اعادته أو يتم شطبه أو الغاؤه .

ويلتزم تجار الاثار ، وكذلك حائزو الاثار المنقولة من الهواة بتسجيل ما يملكون من آثار لدى السلطة الاثرية خلال مهلة محدودة (١٠) .

ولا يجوز استخدام الاثار المسجلة في غير الغاية التي انشئت من أجلها أيا كان مالكها ، كما لا يجوز هدم أو تغيير أو نقل كل أو بعض الاثر أو ترميمه أو تجديده الا في الحدود التي تقرّها وتوافق عليها السلطة الاثرية ، وباشراف مباشر منها ، ولا يجوز أيضا اسناد أى بناء جديد الى العقار الاثرى ، أو ترتيب حقوق ارتفاق على أى عقار أو أرض واقعة قريبا من بناء تاريخي أثرى ، وذلك ضمانا لايجاد حرم غير مبني حول

البناء التاريخي أو المنطقة الاثرية ، كما لا يجوز فتح نوافذ أو شرفات على تلك المباني الا بترخيص سابق من السلطات الاثرية وعلى أن يدفع لاصحاب العقارات المتضررة من وضع حقوق ارتفاق عليها تعويض عادل

ويحظر استعمال الارض المسجلة ، مستودعا للانقاض أو المخلفات ، كما يحظر اقامة مقابر أو وسائل للرى فيها ، او ان تحفر أو تغرس ، أو ان يقطع منها شجره أو غير ذلك من الاعمال التي يترتب عليها تغيير معالم تلك الارض بدون ترخيص سابق من السلطة الاثرية وتحت اشرافها .

واذا لحق صاحب الاثر العقارى المسجل ضرر نتيجة لتسجيله عوّض عن ذلك الضرر .

ولا يجوز نزع ملكية الاراضي أو العقارات المسجلة الكائن فيها الاثر أو المتاخمة له الا بعد موافقة الوزير المختص .

وعلى كل شخص طبيعي أو معنوى يشغل بناء تاريخيا أو منطقة أثرية أن يسمح لموظفي الاثار بالدخول للتفتيش عليه ودراسته ورسمه وتصويره .

وللسلطة الاثرية الحق في طلب الاثارة المنقولة المسجلة من حائزيها بقصد دراستها او رسمها او تصويرها او اخذ قوالب لها او عرضها مدة موءقته في احد المعارض على ان تعاد الاثارة لاصحابها سالمة فور الانتهاء من العمل الذى طلبت من اجله .

لايجوز لملاك الاثار الثابتة والمنقولة المسجلة بيعها قبل الحصول على موافقة السلطة الاثرية ـ منعا لاى ضرر يلحق بها ، وعليهم ابلاغ هذه السلطة باسم طالب الشراء وعنوانه والسعر الذى عرضه ، ويكون للسلطة الاثرية اذا رغبت ـ الاولوية في شراء هذه الاثار .

شطب أو الغاء تسجيل الاثر :

يجوز للسلطة الاثرية ـ بعد موافقة اللجنة المختصة (١١)ولاسباب موضعية مكتوبة ـ شطب تسجيل الاثر ـ ثابتا أو منقولا ـ على أن ينشر قرار الشطب فى الجريدة الرسمية ويبلغ الافراد والجهات التي بلغت قبل بتسجيله وعلى أن يثبت ذلك في السجلات الخاصة بالاثار .

الباب الثالث

الاتجـار بالاثـــار :

يحظر الاتجار بالاثار المنقولة دون الحصول على اذن رسمي من السلطة الاثرية ، ولا يجوز الاتجار

بالاثار الا في أضيق نطاق ، ويقتصر الاتجار بالاثار على المنقول منها المسجل لدى السلطة الاثرية ، التي تجيز هذه السلطة التصرف فيها .

وتحدد شروط منح اذن الاتجار بالاثار في قرار يصدره الوزير المختص (١٢)

يجب على من يمتلك أثرا منقولا ، كما يجب على تاجر الاثار عند مباشرة نشاطه أن يبلغ السلطة الاثرية بكل اثر يبيعه مع تحديد أوصافه وبيان اسم المشترى ، واذا كان المشترى من الاجانب غير المقيمين أو من المقيمين الراغبين في تصدير الاثر فلا يتم عقد البيع الا بعد الحصول على ترخيص بالتصدير ، وفيما عدا هوءلاء يجب على التاجر أن يحصل من المشترى على اقرار كتابي بعدم تصدير الاثر قبل الحصول على موافقة بذلك من السلطة الاثرية وعليه أن يسمح لمفتشي الاثار بالدخول الى متجره بغرض التفتيش للتأكد من تنفيذه القانون ، كما يلزم بمسك سجلات وفقا للمواصفات والشروط التي تحددها السلطة الاثرية .

ويحق للسلطة الاثرية – في حالة ارتكاب التاجر لمخالفة – أن تسحب منه اذن الاتجار بالاثار لفترة تحددها وفقا لجسامة المخالفة ، ولها أن تلغيه في حالة تكرار المخالفة ، ولها ألا تجدده .

وفي حالة عدم تجديد الاذن أو الغائه تصفى الاثار المنقولة التي في حيازة التاجر باحدى الوسيلتين الاتيتين :

أ – أيلولتها الى الدولة مقابل تعويض مناسب يدفع له .

ب – ان تستمر الاثار في حيازة التاجر او ورثته ، على ان تسجل باسمه او باسمهم في سجل خاص لدى السلطة الاثرية ، مع عدم جواز بيعها أو نقلها أو ترميمها الا باذن خاص من السلطة المختصة .

وتكون هذه الاثار خاضعة لرقابة السلطة الاثرية من حين لاخر للتأكد من سلامتها وعدم التصرف فيها .

وللسلطة الاثرية الحق في اقتناء أى أثر من الاثار الموجودة في حوزة التاجر اما عن طريق الشراء بالتراضي او عن طريق الاستملاك مقابل تعويض

تصدير الاثار واستردادها :

يحظر تصدير الاثار ويرخص فقط بتصدير الاثار المنقولة التي لا يوءدى تصديرها الى افقار التراث الاثرى أو الفني للبلاد .

ويوضح في طلب الترخيص بالتصدير البيانات التي تحددها السلطة الأثرية مع حفظ حقها في اجازة التصدير أو رفضه ، وفي أن تشترى ما تشاء من هذه الاثار بالسعر الذى قدره صاحب الشأن في طلب التصدير ، أو بالسعر الذى تقدره اللجنة المختصة بدراسة طلبات تصدير الاثار ، أيهما أقل ، ولا يجوز الطعن في تقدير هذه اللجنة .

ويحدد الوزير المختص – بقرار يصدره – الحالات التي يلزم فيها اعطاء رخصة بالتصدير دون تعارض

مع أحكام القانون .

وعلى سلطة الجمارك أن تعرض على السلطة الاثرية كافة للاثار المستوردة من الخارج .

وعلى السلطة الاثرية الاستفادة من الاتفاقيات والمعاهدات وتوصيات المؤسسات الدولية لاستعادة الاثار المهربة الى خارج البلاد ، وأن تساعد كذلك على اعادة الاثار الاجنبية بشرط المعاملة بالمثل.

اهداء الاثار :

يحظر على السلطة الاثرية اهداء الاثار ، الا في أضيق الحدود ولتحقيق مصلحة عامة ويشترط أن يكون الاثر منقولا مسجلا مما يمكن الاستغناء عنه لكثرة ما يماثله من كافة الوجوه ويتم ذلك بقرار من رئيس الدولة أو مجلس الوزراء .

الباب الرابع

تبادل الاثار :

للسلطة الاثرية حق تبادل الاثار مع متاحف الدول العربية أو اعارتها اليها كما يجوز اجراء التبادل أو الاعارة مع المتاحف والمعاهد العلمية الاجنبية وفقا للنظم والاتفاقيات التي تعقد في هذا الشأن .

العقوبات :

:: (١)

---

(١) نظرا لان تحديد العقوبات في أى قانون يخضع عموما لظروف كل مجتمع واتجاهاته نحو تقويم الانحراف ومعاقبة الخارجين على القانون ، فقد رأت اللجنة التي قامت بوضع مشروع هذا القانون أن يترك للمشرّع في كل دولة اختيار نوع العقوبات التي تقع في حالة المخالفة ليصوغها وفقا لظروفها ونظمها.

وفيما يلي الافكار التي تود هذه اللجنة أن تطرحها في هذا الخصوص ، فترى :

أ ـ أن تتسم العقوبات بالتشدد ضمانا للردع .

ب ـ أن تنفذ العقوبة بسرعة .

جـ ـ أن تتناسب العقوبة مع نوع المخالفة ومدى اضرارها بالتراث الوطني أو القومي .

د ـ الا تخل عقوبة ينص عليها في هذا القانون بعقوبة أشد منصوص عليها في قانون العقوبات أو أى قانون آخر .

هـ ـ أن ينص على مصادرة الاثر المنقول الذى يخالف صاحبه احكام هذا القانون مع تسليمه للسلطة الاثرية .

و ـ أن يحكم في جميع الاحوال بازالة أسباب المخالفة ـ في حالة امكان ذلك ـ ورد الشيء الى أصله في مدة معينة ، والا قامت السلطة الاثرية بذلك على نفقة المخالف .

ح ـ منح صفة ضبطية القضائية للقائمين على تنفيذ احكام هذا القانون .

ط ـ مضاعفة العقوبة اذا ارتكبها احد القائمين على شؤون الاثار .

ك- يكون للسلطة الاثرية الحق في رفع الدعاوى على المخالفين لاحكام هذا القانون بالاضافة الى حق النيابة العامة .

ل- ان تستوعب العقوبات جميع انواع المخالفات ، وهي :

١) التنقيب دون اذن .
٢) عدم التبليغ عن اى كشف اثرى .
٣) سرقة احد الاثار .
٤) السطو على آثار مطمورة .
٥) اخفاء اثر مسروق .
٦) عدم تسجيل الاثر الذى في حوزة شخص او هيئة .
٧) تشويه اثر او منطقة اثرية .
٨) اتلاف اثر .

٩) تهريب اثر الى خارج البلاد او شروع فيه .
١٠) هدم اثر .
١١) بيع اثر دون اخطار السلطة الاثرية والحصول على موافقتها .
١٢) تغيير معالم اثر .
١٣) ترميم اثر بغير اذن او بخلاف المواصفات التي اعطتها السلطة الاثرية .
١٤) تهريب اثر الى داخل البلاد .
١٥) الاتجار بالاثار دون ترخيص .

:::::::::::::::::::::::::::::::::::

(١) هذا التحديد ليس على سبيل القطع ، فلكل دولة ان تحدد - في ضوء ظروفها ومصالحها وواقعها التاريخي - المدى الزمني لاعتبار الاشياء من الاثار ، والمشاهد فعلا ان هذه المدة تختلف اختلافا بينا في القوانين حاليا ، وفقا لظروف كل دولة ، فقانون الاردن يحددها ما قبل عام ١٧٠٠م بينما قانون الكويت يحددها بمرور ٤٠٠ سنة فقط.

(٢) اذا رات دولة من الدول ان المحافظة على الوثائق والمخطوطات لا يدخل ضمن واجبات السلطة الاثرية ، فعليها في ضوء التنظيم التشريعي بها اصدار قانون مستقل لحمايتها ، وهي تتطلب على اية حال افراد بعض احكام خاصة بها .

(٣) يوضع اسم السلطة الاثرية في الدولة وفقا لنظامها .

(٤) تذكر الاختصاصات الاخرى التي ترى الدولة منحها

للسلطة الاثرية فيها

(٥) يمنح هذا الامتياز للبعثات الاجنبية في ظل النظم الجمركية المعمول بها في الدولة .

(٦) اختارت اللجنة هذه الفترة باعتبارها الحد الوسط المعقول ، ولكل دولة ان تعدله وفقا لظروفها .

(٧) تحدد كل دولة في قانونها الاحكام والظروف المخففة بالنسبة لمسالة المبلغين .

(٨) تحدد كل دولة عربية في قانونها الحالات التي يجوز فيها اعفاء الملاك من نفقات الترميم .

(٩) لكل دولة – حسب تقديرها – ان تزيد هذه المسافة او تنقصها .

(١٠) يتم تحديد هذه المهلة في قانون كل دولة وفقا لما تراه مناسبا .

(١١) نظرا لما يترتب على الغاء التسجيل من اباحة التصرف في الاثر ، فيجب ان يصدر قرار الالغا(من لجنة مختصة ، تشكل في كل دولة وفقا لظروفها .

(١٢) يجوز تضمين هذه الشروط في قانون الاثار نفسه وفقا لما تتخيره كل دولة .

التاريخ العسكري

المقاطرة
يرفعون لواء المقاومة
ضد حكم الإمام يحيى

تحقيق : سلطان ناجي

(جزء من مخطوط كتيبة الحكمة من سيرة امام الامة امير المؤمنين ..اى احمد بن الامام المنصور "
تأليف : عبد الكريم مطهر) .

(وفيها دخلت ١٣٣٩ هـ) ..

وكان استفتاح القسم الاكبر من ناحية المقاطرة ، وهذه الناحية معدودة من قضاء الحجرية الا انها ما زالت بكرا الى ما قبل هذا التاريخ .واشتهرت قلعتها بالمناعة والحصانة وعدم النظير في الارتفاع واستفاء المصادر .وانضم الى ذلك ما قيل ان المشير مصطفى عاصم باشا ووقته هو الوقت الباسم والفائق على سواه من ارمنة ولاة الاتراك عاد عن هذه الناحيةخائبا ولم يظفر منها بطائل . بل قيل عن جيشه انه هزم فصار صيت تلك الجهة في الافاق واشتهر بانها مما لا يؤخذ عنوة ولا يوجد مثل رجالها في القتال والنزال .ولا يبعد ان يكون من المتولين من بنى على سعد في ايام الحكومة العثمانية اتخاذ مخالفة اهل المقاطرة وتمردهم وسيلة للا بقاء عليهم واحالة امور قضاء الحجرية اليهم وبيانا لمزية اطاعتهم .ومنذ دخول اعمال الحجرية تحت ولاية مولانا الامام مكثوا على دينهم المعلوم .وقد افرطوا في عتوهم في آخر دولة الاتراك حتى ان منهم من قتل الشيخ احمد نعمان قائمقام الحجرية وهو في خيمته وحوله اصحابه وعساكر الاتراك الموصوفون بالحزم وعدم الاخلال بنظام الحراسةوالتعبئة وفر من بينهم .وما زالوا على اصرارهم واستكبارهم والمجاورونلهم من اهل الطاعة يشكون منهم دوام العدوان .ومع ذلك فانهم قد تهاونوا بامور الدين حتى لم يبق لديهم منه ومن تعاليمه ما يعدون به من اهل الاسلام الى حد اهمالهم لعقود الانكحة وترك الصلاة وخراب المساجد .وساعدهم على ما هم عليه الازدياد منه جعل قبلة اعياشهم وانتفاعهم دخولهم بكثرة الى بلدان الاجانب وبقائهم خداما لديهم فمن اعذر منهم بادر مسرعا الى النصارى وشبّ وشاب لديهم . فرفع جلية الحال وحقيقة الواقع من امرهم امير الجيش سيدى جمال الدين علي بن عبد الله الوزير الى مسامع مولانا الامام ،واستمد الاذن له باصلاح تلك الجهة وادخالهم الى حظيرة الطاعة ، وتجديد ما اندرس من رسوم الدين وتعاليمه هناك . فالزم مولانا الامام عليه السلام باخذ الاهبة والاستعداد . ووالى اليه ارسال الاجناد ،وامره بمراسلة اهل الناحية المذكورة وهي عزل ومخاليف جمة منبثة في تلك الاصقاع وفي جبل المقاطرة المذكورة ، ودعائهم الى الله تعالى والانضمام الى الموحدين واحزاب التقوى واليقين .فلم تعمل فيهم وسائل الاصلاح ، والا اثمرت بالمراد من النجاح . وحينئذ اصدر امير الجيش امره الى عامل الحجرية بالوصول الى تعز .فوصل اليه مبادرة ، وطالت بينه وبين الامير المراجعة فيما يكون البناء عليه من عزم الامير بنفسه وتوليه لقيادة جيوشه ، او استنابة من يقوم مقامه في تولي زعامة الاصلاح ومباشرة الكفاح فاستقر الراى الاخير على بقاء الامير بتعز وتوجيه قيادة الجيوش الى عامل الحجرية الشيخ عبد الوهاب نعمان مع معاضدة اخيه الشيخ عبد الواسع ابن نعمان .واستمد الامير من مولانا الامام توجيه عمالة ناحية المقاطرة الى عهدة السيخ عبد الواسع نعمان .فصدر الامر الشريف بذلك . وعنده جمع الامير الاجناد وانتخب كماة الابطال وسراة الجهاد واستكمل ما يلزم لهم من المهمات وذخائر الحرب والاقوات ، وحملها على الجمال . وعرض الامير ذلك الجيش مع قائده وزود الجميع ما يلزم من النصائح . والزم الكل الاعراض عن القبائح وصيانة الرعية والاستعانة بالله تعالى على العدو وعدم الاغترار بالكثرة وكمال العدد .وتوجه الجيش الى يفرس وبات بها . وفي اليوم الثاني كان مبيته بمركز قضاء الحجرية . ومنه وقع الاستصواب مناجزة اهل عزلة الاكاحلة اذ هي اقرب العزل من سائر البلاد ،وسكانها اخبث من غيرهم جراءة وعدوانا

لقربهم من بلاد اهل الطاعة . فقسّم العامل الجيش الى طوائف للاحداق بالعزلة المذكورة من جميع جهاتها .فتقدم عليهم من الجهة الشرقية الشيخ محمد بن احمد نعمان مع اهل ارحب وغيرهم ، وهم جيش كثير معهم احد المدافع . ومن الجهة القبلية الشيخ محمد بن هاشم المذحجي وقائد الجيش وباقي المجاهدين ومعهم مدفعان من جهة. وجرت بين الفريقين حروب عظيمة من كل جهة من الجهات .واستمر الحرب طول النهار (نهاية ورقة ٧٥) الى ان غربت الشمس وقتل من الباغين جماعة ،وأسر منهم عدة من اهل الشجاعة .واستولى المجاهدون على كثير من محلات تلك العزلة ، ولم يبق غير الحصون المنيعة فيها . وقد احدق عليها المجاهدون واستشهد في ذلك اليوم الشيخ عبد الواسع نعمان ، وختم له بالحسنى وهي خير الحسان وبات كل فريق من المجاهدين على تعبئتهم في المحلات التي قد استولوا عليها . وفي اليوم الثاني تقدم المجاهدون كل طائفة على جهتها فرزقهم الله الظفر بالاعداء وتمزيق شملهم في ذلك القضاء . واستولوا على جميع الحصون ، وغنموا من الاعداء ما لا يحصى واحتزوا رؤوس كثير من قتلاهم ، وحملها الاسارى او سيقوا الى مركز اللواء ومقام الجيش .وكانت شهداء انصار الحق في هذه الواقعة قليلة بالنسبة الى من قتل من البغاة واهل الفساد . وبعد الرفع الى الامير بصفته ما جرى وبلوغ ذلك الى مسامع الامام ، صدر الامر الشريف من مولانا الامام بهدم بيوت شاهر وحصونهم . فالحقت بالعدم وسويت بالهدم الى القرار .

وصدر الامر الشريف بتوجيه عمالة المقاطعة الى الشيخ عبد العزيز بن عبد الواسع نعمان مكان ابيه الشهيد . واستمد عامل الحجرية من الامير زياد المدد فأمده الامير بما رام من الاقوام . وفي اواخر شهر ذى القعدة الحرام من هذه السنة باشر عمال الحجرية تقديم المراتب وتجهيز طوائف الجنود من طرفة الى جهة الاحكوم وحدود الاشبوط ، وقصد بذلك ان تزحف الجنود على العزلة الشرقية من قلعة المقاطرة وهي الزعيّمة المدجّرة والاشبوط والزعازع . فلما وصل الجند الامامي الى حدود الاشبوط طلب اهلها الامان ، وفتحوا بلادهم دون حرب للمجاهدين ، وسلموا بذلك من المعرة والسقوط في حضر الهلاك والمضرة . وزحفت طائفة اخرى من المجاهدين على عزلة المسجد وما اليها وهي من الجهة القبلية . فطلبوا الامان حين عاينوا صولة الجند الامامي قد غشيهم وفر عنهم الشيطان .

وفي اوائل شهر ذى الحجة الحرام تقدم الجند الامامي من الاشبوط ، وجرى بينهم وبين الزعازع والزعيّمة حرب عظيم اسفر عن نصر الله للمجاهدين وحلول مكر الله على الباغين ، وانهزامهم هزيمة فاضحة ، بقلوب مسودة ، ووجوه كالحة ، بعد قتل كثير من غواتهم ، والاثخان في طغاتهم ، وتقدم المجاهدين الذين في عزلة المسجد على باقي العزل الشرقية ، فاستولوا عليها بعد حرب شديد حتى اتفقوا بالذين تقدموا من الاشبوط واستولوا على الزعازع والزعيّمة بعناية الله العظيمة .

واما الجهة الغربية من الجبل المذكور فلما شاهد سكانها ما أصاب سكان الجهة الشرقية من النكال ، وما كانت عليه الحال فيمن طلب منهم الامان وترك القتال ، وصل جماعة من اهل السود ، وهي في الطرف الغربي ، وطلبوا الامان ، وبذلوا فتح بلادهم للمجاهدين . فارسل قائد الجيش الى ذلك الطرف ثلة من المجاهدين ، فرتبوه الى حدود المكايرة وسيق احد المدافع الى شرف الجاهلي من شرجب ، فكان الرمي به على عزلة الدهمّشة والهويّشة فراوا ما لم يخطر لهم على بال من اليم

النكال . ولم يجدوا منجاة تماديهم من الوبال غير الالتجاء الى الطاعة والدخول في سلك اهلها وهو رابح بضاعة . وهنالك امر العامل بالتوقف عن القدوم ، واعاد نظرة الى احوال الاجناد ، وتقوية مراتبها الكائنة في الاغوار والانجاد ، واخذ الاهبة والاستعداد ، لجلب ما لا بد منه من المؤن اللازمة للجهاد .

وفي سادس شهري ذي الحجة الحرام جهز الامير مددا لمن في تلك الجهة من الجنود السيد المقدام حسن بن قاسم بن عبد الله عثمان الوزير ، ومعه جيش واسعة من اهل العدين واهل الجبل ، والنقيب عبد الله بن سعيد الجبري ومعه اصحابه بنو جبر . وأرسل معهم الامير احد المدافع وما يلزم من المؤن والمهمات . فالمغاليس ليكونوا زيادة لمن في المراتب الشرقية . وجهز ايضا كتيبة كبيرة تحت قيادة السيد علي بن عبد الله الشهاري وبمعيته جماعة من رؤساء العدين ومشايخها . وجهز على اثر هؤلاء عامل جبل حبشي في جيش كبير . واجتمع المدد الى مركز قضاء الحجرية وكمل به نصاب التقدم على الفرقة الغوية . فكان الاجماع على قصد استكمال الجهة الغربية وفيها عزلة الزريّقة والنجيشة والصولحة والمكابرة وواديهم . فقسم الجيش بعد تقوية المراتب الى طائفتين ، اميرين . وارسل ايضا ثلة كبيرة لقصد الصولحة (ورقم ٧٦) والنجيشة . فتوجهت الطوائف الى الجهات تزفها العنايات . فأمّا المكلفون بالقدوم على الزريّقة وما ولاها فقصدوا اولئك الاقوام ، ونازلوهم في عقر دارهم . وجرت بينهم حروب شديدة ، وخطوب عنيدة ، كانت فيها الدائرة على الاعداء بعد قتلى منهم وجرحى ، وانهزموا وانقشعوا الى جبل منيف . وهو المذكور احداق الهالة بالقمر ، ووثبوا عليه من كل جهة فلم يسع البغاة غير الفرار والخروج منه قبل البوار . واستولى المجاهدون بذلك على جميع بلاد الزريقة وغنموا مما فيها اموالا جمة . وكان الشهداء من المجاهدين يعدون بالاصابع في هذه الواقعة وذلك من وقاية الله وحسن عنايته .

وفي اليوم الرابع والعشرين من هذا الشهر تقدم المجاهدون الذين امروا بقصد النجيشة والصولحة على تلك الجهة . وقد تجمعوا وانضم اليهم فلول من اهل البلاد التي قد استولى عليها انصار الحق فلما التقى الجمعان تحرك على الباغين من الطائفتين المدفعان وقذفا عليهم صواعق القلل . وهجم عليهم المجاهدون من الغور والجبل . وضايقوهم واحاطوا بهم من جميع الجهات . ثم الجئوهم الى الفرار ، فولوا الادبار لا يصدقون بالنجاة ، وقد خاب منهم المسعى وتعاظم الخسران وكثر القتل فيهم وشبعت من لحومهم النور والعقبان

واستولى المجاهدون على جميع النجيشة والصولحة واستشهد في هذه الحرب انفار من المجاهدين ، رزقهم الله الشهادة ، وهي درجة الحسنى والزيادة وكانت الغنائم في هذه الجهة كثيرة نال منها المجاهدون حظوظهم الوفيرة .

ولما رفع قائد هذا الجيش الى الامير خبر ما مَن الله به من النصر على اهل الجهاد ، وما جرى من العذاب على ذوي البغي والفساد ، وما هم عليه بعد ذلك من الاصرار على العناد ، وما بقي تحت ايديهم من البلاد نحو اثنتي عشرة عزلة من العزل المجاورة للقلعة وحصونها ، وان كثر الجيش قد تبدد في المراتب لاتساع الاطراف ، ولزوم ترتيبها وقاية للمجاهدين من غدر ذوي الاعتساف ، فلا بد من المدد ، اقتضى رأي الامير لزوم نهوضه بالذات واقباله الى هذا المرام على اكمل صور الثبات فاستنفرت من في جهات اللواء التعزي من المقاتلة والرجال ، ونشر رسائله الى جميع الاعمال ، ورتب

مكانه في تعز مأمور المال القاضي احمد بن محمد الانسي واعانه بعامل التعزية السيد محمد بن احمد على عبد الجبار . وجلب من القضوات من الاجناد الباقية . فاجتمع لدى الامير جيش عظيم رؤساؤه ابطال القتال ، وفرسان ميدان النزال ، مثل حاكم العدين السيد حمود بن محمد ، والسيد عبد الجليل بن احمد بن عبد الله بن سعيد ، وعبد الله عثمان ، واحمد بن عبد العزيز المجاهد وغيرهم . فتجهز الامير للمسير واستصحب كل لازم من المهمات وذخائر الحرب ، ومن الحملة المدفع السريع ، والطلقات المتعددة في الوقت القصير ومترالبوز . ولم يأت سابع وعشرين شهرى ذى الحجة الحرام الاوقد وصل الامير بجمعه الغفير ، وجيشه الكبير الى مركز قضاء الحجرية . وهناك كان اجراء التدابير في ما يكون عليه التعويل .. واستصوب الامير اعادة ارسال الرسائل الى اولئك المخالفين ، لعلهم ينقادوا ، فانقضى ما بقي من ايام العام قبل اكمال العمل الموافق للمرام ، ولذلك كان تأخير بيانه الى سياق حوادث سنة اربعين لوقوعه في اول شهوره وسيأتي ان شاء الله تعالى . (ورقة ٧٧) .

الاستيلاء على قلعة المقاطرة

وفي اوائل محرم الحرام من هذه السنة (١٣٤٠هـ) وردت البشرى من امير الجيش سيدى جمال الدين علي بن عبد الله الوزير باستيلائه على قلعة المقاطرة وما حولها عنوة . وتفصيل ما جرى هنالك انه لما وصل امير الجيش الى مركز قضاء الحجرية ، وتم له ما أراد ، من جميع الاجناد وما يحتاج اليه من المؤن ، بادر الى ما ذكرناه من مراسلة الباغين واستحالتهم الى جانب الحق ، وتخويفهم من الاصرار الاشق . وقد كان قبل ذلك وصل الى مقام الامير شمسان عبد الله من المكابرة ، ساعيا في الاصلاح ، وطالبا رفع الكفاح . فارسله ايضا مع كتبه ودارت المراجعة بين الامير وبينهم . فانكشف من نهايتها انهم على العصيان مصرون ، وبقلعتهم وما حولها من الحصون ممتنعون ، وانهم لايرضون بتمكين الحق من قلعتهم . وظهر منهم العزم على غدر من كان قد أرسله الامير اليهم لقبض رهاينهم ان أطاعوا . ولم ينج منهم الا بالاحتراز من مكرهم ووسائل غدرهم . ولمّا تيقن الامير بذلك ،بادر بنقل محطته نحو تلك الجهة فاستقر في محل قريب من محلات الغاة ، وعبى الجنود وقوى المراتب . فجعل في الجهة الغربية عامل الحجرية ، والسيد عبد الجليل بن احمد بن علي عبد الجبار ،ومعهم جيش نافع واحد المدافع . وفي الجهة العدنية السيد يحيى بن محمد الوادعي وجيش وافر واحد المدافع . وفي الجهة الشرقية عدد كبير تحت قيادة السيد حسن بن محمد عثمان الوزير ، ومعهم مدفع ايضا . ولم يبق سوى الجهة القبلية وقد رفع الى الامير ان منها يمتاز البغاة ، ولا يتم حصار بدون ترتيبها ومضايقة الاعداء من جهتها . وترجع لدى الامير ان المهاجمة والاخذ عنوة هو اصوب من العدول الى الحصار ،وانتظار ما يؤل اليه حال البغاة من الاضرار ، ولما في المناجزة من الاقتراب الى منح الرب الوهاب . ولم يرجح ذلك الا بعد الاستشارة وتكرير الاستخارة ، والتقرب الى الله تعالى بتفريق الصدقات ، وتلاوة كتاب الله تعالى استمدادا لتعجيل النصر والظفر ، واعانة التالين بالاموال . وفي خلال ذلك ورد على الامير كتاب من حاكم صبر ، والسيد علي بن احمد ، السابق ذكره ، قد اودعه نظاما بديعيا . فكان فالا على النصر وقرب الفتح ومطلعه :

تقدم فقد ثلت عروش الجبابرة
ودكت رواسي بغيهم في صاغرة

واخرها

وتاريخ حم ان امامنا
سيملك جبل شمسان بعد المقاطرة

وجبل شمسان الذى ذكرة الناظم وعناه هو الجبل المطل على عدن ومن يملكه يكون ما لكا لعدن وهو مراد الناظم . ولما تم للامير ما ذكرناه من ترتيب الجهات الثلاث انتدب للجهة القبلية السيد الاجل حمود بن محمد ، حاكم العدين مع جند كثيف ، فيه من روءساء المجاهدين (ورقة٨٧) جماعة من اهل البصائر والثبات . واصحبهم المدفع السريع ، والزمهم الامير بالمهاجمة وترك الحصار ، وعيّن لهم الجهة المقصودة . فبادر بالعزم ، وارتقعوا من محل الجاهلي الى المحل المقصود . فقربوا بذلك من الحصون الاربعة المسماة باللّيمّ وهي اربعة حصون شواهق ، لايمكن الوصول الى القلعة وحصنها المسمى بالشميدني بدون الاستيلاء عليها . وقد كان الاعداء حصنوها تحصينا باهرا ، وعمروا المتاريس في جوانبها ، واوقفوا فيها رجال القتال . وجميع هذه الحصون يحمي بعضها البعض الاخر . فلما راى الاعداء طلائع المجاهدين ، بادروهم بالحرب ومتابعة الرمي . وتوقف امجاهدون الى ان تكاملت عدتهم . ورتبهم قائدهم فجرى بين الفريقين حرب عظيم . وصبر فيها المجاهدون صبر الحر الكريم ، واقدموا فيه اقدام الاسود ، وبذلوا كل مقدور ومجهود . وكان للمدفع السريع اثر كبير في تقوية القلوب ، وصبرها على تلك الكروب والخطوب . فانه نسف بعض نوبهم المستحكمة ، وصدّ الغارات . فلم تغرب شمس ذلك اليوم الا وقد يسر الله للمجاهدين الفتح ، وعظيم المنح ، باستيلائهم على الحصون المسماة باللّيمّ ، والجا من فيها من البغاة الى التروى من شواهقها او الاستلام الى ايدى المجاهدين . وعم من فيها القتل والاسر والتروى . وفي ذلك اليوم تقدم ايضا المجاهدون الذين بالجهة الغربية على قريتي الخرفار والقاعدة . وبعد حرب غير يسير ، استولى المجاهدون عليهما . وفرّ منهما الاعداء ، وتقدموا في تلك الجهة ، الى ان تيسر لهم الاتصال بالمجاهدين الذين استولوا على اللّيمّ . ولمّا تم لهاتين الطائفتين القيام بهذا العمل المبرور ، ورفع امراوءها خبر الفتح الى الامير ، وساقوا الاسارى اليه . فشحذ الامير عزائم الجنود الذين في الجهات الباقية ، ونسب اليهم التواني ، والزمهم بالبدار واللحوق باخوانهم . وقرب بنفسه من احدى الجهات .وفي اليوم الثاني تقدم جميع الجيش من جميع الجهات على القلعة وحصن الشميدى . وكان من فيها من البغاة قد اجمعوا على عدم تسليمه او الموت دونهما . ولم يفت في اعضادهم ما جرى على من في اللّيمّ لانهم كانوا على غاية من الجهل ، وضعف الاحلام . ومن ظنونهم الفاسدة ، انهم لايقدر عليهم احد ، ولا توءخذ قلعتهم عنوة ومن الغريب ان نساءهم كن اكثر منهم جراة . فانهم في اثناء الحرب كانوا يسمعون منهن من التوبيخ والتقريع ، ما يحملهم على معاودة الجد في الحرب ، ودوام الاصرار والامتناع . فنهض اليهم المجاهدون بنيات صادقة واقدام الى الفوز متسابقة

فاستمر الحرب نهار ذلك اليومْ من قبيل الفجر . وكان يوما مهولا ، ابلى فيه المجاهدون ولم يهابوا المنون . ولم يصدهم عن الاقدام او التسابق في الارتقاء الى تلك الشواهق ما كان يقذفه عليهم الاعداء من الاحجار ولا الصخور التي ارسلوها على المجاهدين من مدقات البارود . واعظم الافعال كان لهذه الصخور والاحجار في هذه الحرب . وما زال المجاهدون في تقدمهم الى ان دخلوا القلعة وحصن الشميدني في عنوة . وحينئذ آيس الاعداء من الخلاص الا بالاستسلام ، والنزول على

حكم الامير وخابر في ذلك من دخل اليهم . وخضعوا بعد الاباء الشديد والاصرار الاكيد . فبادر الامراء الى اعلام الاجناد بذلك ، ووقفت الحرب وكان اخراج النساء والاطفال وايداعهم الى محل الصون عمابشين ، وجمع الاسارى ، وقد بلغوا الى ما ئتين وخمسين نفرا . وبلغ عدد القتلى منهم في هذين اليومين الى المائتين . واما شهداء المجاهدين فكانوا عددا غير كبير ، وذلك من وقاية اللطيف الخبير . والغنائم الذى ظفر بها المجاهدون لا تحصى . وفي اليوم الثاني من الفتح ، وصل الامير الى القلعة وحصونها . وطافها ورأى ما هي عليه من المناعة والحصانة . فكان اخذها عنوة لديه بعد المشاهدة من غرائب صنع الله وتيسيره ولم يرجع منها الا بعد ترتيبها (ورقة ٨٨) وتقرير امورها ، واصلاح احوال الناحية المذكورة .

وارتفع الى قضاء الحجرية ، ووصل اليه اهل الزعازع مذعنين للطاعة ، والدخول في سلك الجماعة . فامرهم بعمارة المساجد ، وتشييد المعابد وكان الفتح المذكور فتحا عظيما ، انتظمت به احوال قضاء الحجرية ، وهابه البعيد والقريب ، وتحدثت به الركبان ، واذهل من قلوبهم مرض ضعيف الايمان وارتاع له من عدن من عبدة الصلبان . وقوى به جانب الحق ، وانهدر به ركن الباطل وانشق ، ثم كان من الامير ارسال الاسارى صحبة ثلة من عسكر النظام الى حضرة مولانا الامام عليه السلام فوصلوا الى الحضرة الشريفة ،والامام مقيم بداره السعدة . بمحروس الروضة ،وقد عمهم الخوف والفرق ، واستولى عليهم الجزع وحلق ، لما اسلفته ايديهم من الذنوب . فحين وقعت عين الامام عليهم ، بادرهم مولانا الامام بما جبل عليه من مكارم الاخلاق ،وازال عنهم ما داخلهم من الفزع والاشفاق . وامنهم وسكن روعتهم . واسمعهم من العتاب اللطيف ، ما اخذ بمجامع قلوبهم . فدعوا للامام واعتذروا مما جرى منهم بما كان يحل اليهم من التخويف من ذوى الاغراض . ثم امر مولانا الامام في تلك الحال بفك اغلالهم ، واطلقهم من عقالهم . وامر لهم بالكفايات ، وكساهم جميعا . واذن لهم بالعودة الى اوطانهم وديارهم . فمضوا سراعا وكانوا قبل ذلك لا يصدقون بالنجاة ، ولا يؤملون الفكاك مما نسجته ايديهم على انفسهم من شباك الاسر وبلواه . وبعد مدة وصل ايضا مقام مولانا الامام الشيخ شمسا عبد الله ومعه جماعة من اصحابه وقد خاض احشاء تهامة وغيرها هائما على وجهه . فقابله مولانا الامام بالتأمين ، واسعفه بمراده من الاذن له بالعودة الى بلده . والامر برعايته ، والاغماض عما سلف من ذنوبه . وقد قيل ان هذا الفتح من الاشعار وبنات الافكار ، ما يناسب ما له من العظيم وعلو المقدار . فمن ذلك ما نظمه سيدى العلامة عبد الوهاب بن احمد بن علي بن يحيى بن احمد بن محمد بن اسماعيل بن عبد الله بن الامام المنصور بالله القاسم بن محمد عليه السلام وانما قدمت قطعته على غيرها لجلالة قدر قائلها من العلم والورع والشحيح وتحرى مرضاة الرب عزّ وجل ووجه بها الى سيدى الامير جمال الدين حفظه الله تعالى وهي كما تراها .

نهني جمال الدين بالفتح انه
لفتح عظيم موجب اعظم الشكر .

ومن نظم في هذا الفتح العظيم والنصر الجسيم القاضي اسماعيل بن عبد الرحمن الاكوع الذيبي وذلك قوله من قصيدة طويلة مطلعها :

الهي لك الحمد الذى انت اهله
بمنك والاحسان جدت بافضال

.. ومن نظم في هذا الباب واتى بالعجاب من

محاسن الاداب السيد الحمالي علي عبد الله الشامي وذلك قوله من قصيدة طويلة الباع في نادى الفصاحة ومجال الاحسان والملاحة .

يامنزء الحي ان الورق والبانـا
زهت قدودا والحانا والوانـا

ومارال ناظم هذه الدور ساحبا ذيول النسيب والتشبيت حتى تخلص الى مدح الامير وما تم على يده من الفتوح والخير الممنوح الى ان قال :

ما للمقاطرة الفيحاء هاج بهـا
هوج الضلال فأبدت منك عصيانا
وغيرها منك بالجيد المطوق ما
لايستطيع اليه الطرف امعانـا
وأوثقت اهلها في عز منعتهـا
ولا يعز رداء الكبر شـيطانـا
حتى دعتك بجيشما قصدت به
الا تشييد للا سـلام اركانـا

ومنها

ان المقاطرة الفيحاء ما نظمـت
كفوا سواك ولا اولته امكانـا
نثرت في القبض هام المارقين لها
درا ومن علق الاوداج مرجانا

ومما قاله الشيخ الاديب اسماعيل بن احمد بن قاسم بن حسن بن يحيى علي سعد الجماعي مهنيئا للامير :

لله در امير الجيش انسـانـا
ولا يزال لعين الدهر انسـانـا

ومنها

وما المقاطرة القصوى بقاصيـة
عن بأسة بل كساها الدرقمصانا
وهاهي اليوم في ابواب دولتـه
تعلي الاذان لشكوى مرما كانا
من بعد ما كانت الاتراك تاركـة
لها وأخلاصها صيدا وفرسـانا

وهي طويلة .. وقد قيل في هذا الفتح من الاشعار ما لا تسعه هذه الصفائح المقصورة على سلوك جادة الاختصار . وقد اثبت منها ما يدل على جسامة هذا الفتح المستجاد وان الظنون كانت تحيل التمكن منه وابدال صعوبته بالانقياد والانخراط في سلك ما منّ الله به على مولانا الامام من التمكين والاسعاد وعلى مقدار ما كان فى النفوس للمقاطرة من الصعوبة وبُعد المنال . كان تأثير صدى الفتح اعظاما له في قلوب الرجال ولا سيما في عدن وما جاوره فانه اذعر الافرنج ومن والاهم ودك من آمالهم بنيانها الشامخ وابلاهم ولله الحمد والمنة (ورقة ٩٠) ...

مكانة الهمداني في تاريخ

تطوّر مفهوم الإنسان لظاهرة الجاذبيّة

محمود ابراهيم الصغيري

وصف عام لمشكلة العلم :

تتركز مشكلة العلم في قضيتين رئيسيتين :

القضية الاولى :

وتظهر في " التوصيف " الخاطيء الذى يقول به الانسان حين يصف ظاهرة من ظواهر الطبيعة ، ومع المستقبل يعاد النظر في ذلك "التوصيف" على ضوء دراسات جديدة وأسس تجريبية .

ونقصد بالتوصيف : تلك العمليات الوصفية التي نحدد بها نقل صورة علمية عن ظاهرة معينة في الطبيعة . وعلى سبيل المثال " التوصيف الخاطيء " الذى نص عليه ارسطو حين زعم – متخطيا التجربة – ان الجسم "الاثقل " يسقط بسرعة اكبر من الجسم "الاخف" اذا سقط الجسمان سقوطا حرا من ارتفاع واحد .

وينسب الى جاليليوجاليلي انه اقام تجربة من فوق "برج بيزا" المائل – كما يشاع غالبا – وأثبت أن جميع الاجسام – على اختلاف انواعها وموادها – اذا تركت تسقط سقوطا حرا – فانها تسقط بسرعة واحدة الى سطح الارض ، بسبب ثبات تسارع الجاذبية الارضية لجميع الاجسام الحرة ، ولا علاقة لهذا التسارع الجاذبي الثابت بأنواع الاجسام الساقطة الى سطح الارض او بحجومها .

وهكذا نجد ان القضية الاولى هي بالتحديد :

*** أن نصف ظاهرة من الظواهر الطبيعية بشكل خاطيء – بسبب اهمال دور التجربة في المعرفة البشرية – الامر الذى يؤدى بالضرورة الى الوقوع في حالات متعددة من الاخطاء والاغاليط .**

ولعل ازمة العلاقات البشرية ترتد الى هذه القصة لانها في الاصل تنشأ بسبب اطلاق احكام يقول بها الوهم والتحمس ولا تنطق بها التجارب والممارسات .

* * واما الفئة الثانية :

فتظهر في التوصيف الصحيح للظاهرة ، ولكن تعليلها او تفسيرها يكون خاطئا . وسنحاول لخطورة هذه المسالة ان نرسم صورة لتطور مفاهيم الانسان باتجاه تحديد التعليل الحقيقي لظاهرة سقوط الاجسام الحرة .

ومن يتأمل في فروع العلم النظرية والتطبيقية يكتشف دائما وجود ثغرة - على شكل سؤال او اكثر - بين وصف الظواهر من جهة وتعليلاتها من جهة اخرى . وهذه هي حقيقة " الجاذبية الارضية " .

ارسطو

ارسطو: (٣٨٤-٣٢٢) ق.م

* لايشك احد في ان الانسان القديم قد لاحظ سقوط الاشياء من الاعلى الى الاسفل ، ثم تعامل مع الموجودات على ضوء هذه الملاحظة . ان ذلك امر طبيعي وله علاقة بالبنية المعروفة للذهن البشري . غير اننا لانعرف - على الاقل الكاتب - متى بدأ تفسير هذه الظاهرة الخالدة .

ومن المناسب في تاريخ العلم الابتداء بارسطو، كواحد من اوائل البشر الذين قالوا - عن ابداع او نقل - بتفسير للظاهرة المذكورة .

* * اعتقد ارسطو بان سبب سقوط الجسم الى الارض يعود الى ما يمكن ان يقال عنه "الوحشة الطبيعية" . فالطفل - على سبيل المثال - يميل الى حضن امه ، وبالتالي فان امه هو المكان الطبيعي لازاحة وحشة الطفل الطبيعية .

ان الطفل يخشى ان يظل في الفراغ او البعيد .

ولهذا فان اتجاه حنينه يدفع به الى مقاومة حالة الوحشة وطردها .

ويرى ارسطو ايضا ، يجد الجسم المادى الصغير مكانه الطبيعي حين "يسقط" في حضن امه : كوكب الارض .

* * * لقد لاحظ كثير من مؤرخي العلم ان ارسطو قد طبق الاحاسيس الانسانية على ظواهر الطبيعة وسلوك اشيائها . ان ارسطو ، برأى بعضهم ، قد تاه حين امعن في "انسنة" الطبيعة .

" كان يصف حركات الاجرام السماوية بذات العبارات التي يصف بها افعال المخلوقات الحية ، فكما ان الكائن

الحي يتجه الى غاية يسعى للوصول اليها ، فكذلك تفعل المادة الجامدة . فاذا ما ساله سائل : لماذا يصيب السهم صدر الجندى ؟ ـ اجابه على الفور ، وبكل بساطة : لان المكان الطبيعي لهذا السهم هو صدر الجندى العدو. واذا سئل : لماذا تسقط الاجسام الثقيلة على الارض ؟ اجاب : تسقط هذه الاجسام على الارض لتحتل مكانها الطبيعي ، كالفأر يبحث عن حفرة يختبيء بها . وكذلك النار تصعد الى اعلى لتنطلق الى عالمها الطبيعي وهو عالم الافلاك ، كالنسر يأوى الى عشه في اعالي الجبال " ـ هكذا لخص الدكتور مارسيل داغر راى ارسطو في ظاهرة الجاذبية في كتابه " النسبية من نيوتن الى اينشتين " الصفحة ١٧ . وبهذا المعنى ايضا قال الفيلسوف والرياضي برتراند رسل في دراسة له نشرتها مجلة الهلال المصرية تحت عنوان "معارك العلم والخرافة " .

ولخطورة نظرة ارسطو السابقة من المناسب الاستشهاد بكلمة ذكرها الدكتور داغر ، وذلك كي نتمكن من استخلاص القانون الكلي الذى كان يقول به ارسطو .

ونجد ان البشرية لم تتخلص نهائيا من تاثيرها به الا في هذا القرن. وبالتحديد في عام ١٩١٦ . ويرى ارسطو ـ كما يقول د. داغر ـ " ان كل جسم ـ اذا ترك وشأنه ـ يفتش عن مكانه الطبيعي " الصفحة ١٧ من المصدر المذكور .

وهكذا نجد ان النظرة الارسطية ، بكلمة واسعة ، تطالبنا بان نسلم بوجود قوة خفية وكامنة في الاجسام المادية تقوم بتحريكها وتوجيهها الى " المجرى الطبيعي لها " ـ ولقد استخدمنا لفظة "المجرى" تمشيا مع الترجمة العربية التي قام بها اسحق بن حنين ، حين نقل من اليونانية الى العربية كتاب " الطبيعة " لارسطو . (انظر الصفحة ٨٠ من الجزء الاول من كتاب الطبيعة لارسطو تحقيق وتقديم د . عبد الرحمن بدوى) .

واذا تأملنا في السؤال التالي : متى يكون المجرى الطبيعي طبيعيا ؟ فلن نجد جوابا علميا واضحا في كتب ارسطو التي نعرفها . على الاقل الكاتب .

وعلى الرغم من ذلك فلنتوقف عند نصوص ارسطو والشروح العربية عليها .

يقول ابو الفرج بن الطيب في شرحه للتعليم الارسطي الرابع :

انه " ان لم يكن سكون لم تكن حركة قسرا ، ولو لم تكن حركة قسرا لم يكن الكون ولا النمو ، لان النمو انما يكون بحركة الغذاء الى فوق البدن والى اسفل ، وحركته الى فوق خارجة به عن المجرى الطبيعي " الصفحة ٨٣٢/ج٢ " وكان ارسطو قد قرر " في الصفحة ٨٠/ج١ : " انا حين نقول ان " للنار السمّو الى فوق ، فان هذا المعنى ليس هو " طبيعة" ولا " ماله طبيعة" بل انما هو " بالطبع " و" على المجرى الطبيعي " .

وهذا يعني ان " الطبع " و"المجرى الطبيعي" عنده شيء واحد .

ولكن ما معنى " الطبع " الارسطي؟

في الصفحة ٨٣٤ من الجزء الثاني يقول ارسطو :
" فان الذى يتحرك من تلقائه فانما يتحرك طبعا ، مثل كل واحد واحد من الحيوان . فالحيوان هو من تلقائه يتحرك . وكل ما كان مبدأ حركته فيه فانا نقول في ذلك انه يتحرك طبعا . ولذلك فان الحيوان بأسره طبعا يتحرك هو ذاته . فاما جسمه فقد يمكن ان يتحرك طبعا وخارجا عن طبعه ، فان ذلك يختلف بحسب الحركة التي يتفق ان يتحركها ، ثاني حركة هي " ص(٨٣٤-٨٣٥) وبعبارة اوضح من السابق يقرر ارسطو : ان " النار والارض تتحركان عن شيء اما قسرا اذا تحركتا خارجا عن طبعهما ، واما طبعا اذا تحركتا الى افعالهما التي لها بالقوة " الصفحة ٨٣٩.

وورد في شروح الدكتور بدوى ان المراد بافعالها هو" اما كنهما" . واستنادا الى المفردات الارسطية يمكن صياغة العبارة التالية :

ان اى جسم ارضي يتحرك الى الاسفل بتاثير قوة " الطبع " التي تحاول اعادته الى مكانه الخاص به . كما ان اى تحريك في الاتجاه المضاد لقوة " الطبع " يستلزم قوة قسرية .

وهذا يعني ان " توازن " الجسم الارضي لايكون الا حين يتخذ هذا الجسم "مكانه الخاص" به .

وعند هذه النتيجة ينشأ سوءال : لم يغب ايضا عن ذهن المعلم الاول وهو :
" لم صارت الخفيفة انما تتحرك الى موضع واحد بعينه ، وكذلك الثقيلة ؟ "ص(٨٤٠). ولنتأمل طويلا في الجواب الارسطي . يقول ارسطو :
" والسبب في ذلك انها مطبوعة على ان تكون بحيث ما . وآنية الخفيف والثقيل هي هذا : اعني انحياز ذلك بفوق ، وانحيار هذا بأسفل "

اذن . هي " مطبوعة" على ان تتخذ طريقها الى الاسفل (لكل ما هو ثقيل) والى الاعلى (لما خف وزنه كالنار) ..

ولم يترك لنا ارسطو تعليلا واضحا وصريحا يفسر لنا سبب هذه "المسالك " . ولكن بعض شارحيه وجدوا في النصوص الارسطية ما يعينهم على اكتشاف المخارج الفلسفية .

يقول شارح التعليم الخامس ابو الفرج الطيب : " واما المتحرك لامن سبب من خارج فضربان : ذو نفس ، وغير ذى نفس . اما ذو نفس فظاهر من امره انه محرك ، وهو نفسه كما تتحرك السفينة من قبل الملاح . واما بلا نفس له كالاستقسات فالامر فيها يغمض ، وذلك انها لو تحركت عن غيرها كما قلناه في الاشياء ذوات الانفس لكان خليقا ان يظن بما يحركها الى جهة ومكان ان يحركها تارة الى جهة اخرى ومكان آخر فيكون

النار كما ان لها ان تتحرك علوا كذلك لها ان تتحرك سفلا وايضا كيف يظن بها ، مع انه لها (من خارج ان يكون لها محرك) لان هذا القول يوجب ان يكون محركها منها ؟ . وكيف يجوز ذلك وهي متشابهة الاجزاء وليس يجوز مع تشابهها ان تفترق في ان يكون بعضها محركا وبعضها متحركا . الا ان الامر ، وان كان على هذا الغموض ، فليس يتعذر علينا ان نعلم ان لهذه الاشياء محركا ، وذلك ان لها قوى تحركها هي كالنفوس للاشياء ذوات الانفس ولما لم تكن هذه القوة ظاهرة لنا عندما يستحيل الماء الى الهواء سببا المحرك لها الى الامر الظاهر وهو الشيء المحيل للماء الى الهواء وهذا الذى اكتسب الخفة وهي القوة التي بها يحرك الى فوق ...ص (٨٤٢ – ٨٤٣) .

ثم يتابع ابو الفرج شرحه حتى يصل الى تقرير هذه النتيجة الهامة :
" فقد بان ان كل متحرك فانه متحرك عن شيء " .

ولكن ابا الفرج لم يحاول ان يخرج على ارسطو ولو انه فعل لوجد ان ذلك الشيء الذى يحرك المتحرك ليس " الطبع " الذى برع في عدم استخدامه كمفرده ، وانما الارض ذاتها .

وبامكاننا ان نستبدل اللفظتين " طبع " و"مجرى" ونضع مكانهما لفظة اخرى وهي " وضع " : وبهذا الابدال نحد الصورة الارسطية كالتالي :

ان الاجسام تسقط الى الاسفل لان هذا هو وضعها .

ومن الواضح الان ان الابدال اللفظي قادنا الى عبارة هي في الاصل من باب تحصيل الحاصل ، و"مصادرة على المطلوب " .

والخلل المنطقي الناشيء من استخدام طريقة " المصادرة على المطلوب " يجعل من السوءال – الذى هو مطلوب – جوابا استمد مادة محتواه من معلومات السوءال .

وبالرغم من هذا الخلل في الروءية الارسطية ظلت البشرية قرونا عديدة اسيرة لمداها المحدود . ويظهر ان الفيلسوف الذرى ابيقور (٣٤١ – ٢٧٠) ق.م هو الوحيد الذى حاول ان يقدم فهما جديدا للظاهرة على ضوء منظومة افكار المذهب الذرى ، بل انه الاضافة الاساسية في تاريخ هذا المذهب بعد ديمقريطس وليوقبس .

ففي الطور الاول (ويمثلانه ديمقريطس ولوقبس) تختلف الذرات بصفات هي اولا : المقدار ، وثانيا : الشكل ، وثالثا : صفة الوضع ،

ويعود الى هذا ابيقور – في الطور الثاني – وضع صفة هامة وهي الثقل . " ولو ان ديمقريطس وليوقبس لم يوضحا توضيحا تاما فكرة الثقل ، فان هذه الفكرة فكرة اساسية في المذهب الذرى كما تبين بكل وضوح

لابيقور " ولكن بعضهم ينكر ذلك قائلا : " ان ابيقور لم يوضح القول في هذا الامر كنتيجة لنقد ارسطو لفكرة الذرات كما تصورها ديمقريطس ولبوقبس ، وعلى هذا فمن الممكن الا يكون ديمقريطس ولبوقبس قد قالا بمسألة الثقل " ـ الصفحة ١٥٣ من " ربيع الفكر اليوناني " للدكتور عبد الرحمن بدوى .

ولكن هل حسمت لنا فكرة الثقل عند ابيقور ـ على افتراض انها اصلية في المذهب الذرى ـ ما يدعم القول بوجود منظومة افكار ذرية لتفسير ظاهرة الجاذبية ؟

نعم . يمكننا ذلك على رغم اختلافات الدارسين الواضحة في نصوص الدكتور بدوى السابقة .

فالاستاذ بدوى نفسه يذكر في كتاب آخر له بعنوان " خريف الفكر اليوناني " ان ابيقور آمن بقوة " الميل " كقوة مسؤولة عن احتماع "الاجزاء التي لاتتجزا " او الذرات ـ انظر الصفحة ١٦٩ . قسم شتاء الفكر اليوناني (من الكتاب المذكور) . وكما تجتمع الذرات وتتجمع بفعل قوة الميل الابيقورية يمكننا ايضا اعتبار سقوط الاجسام المادية الصغيرة الى الارض نوعا من انواع تأثير تلك القوة الخاصة .

ولقد تبين بالمتابعة التاريخية ان فكرة "الميل" الابيقورية قد انفصلت عن مذهبه الذرى وظهرت في تعليلات عدد لابأس به من فلاسفة الاسلام ، بل انها ايضا تشكلت كمترادفات لدى كوبرنكس القائل بالقوة الالهية المغروسة في الاشياء ، ولدى كبلر القائل بالالفة ، وظهرت عند جاليليو واضحة حين قال بالميل الطبيعي .

ونرى ان المرحلة التاريخية العريقة بين فلاسفة اليونان وعلماء اوربا في العصر الحديث ـ ونعني بها مرحلة الحضارة العربية الاسلامية ـ قد خضعت خضوعا فلسفيا محكما برز فيها ارسطو كمرجع فلسفي لايطال . والاختراق الوحيد الذى حدث للرؤية الارسطية المحدودة ـ فيهذا المجال تحديدا ـ من قبل الهمداني ـ صاحب الاكليل ـ والبيروني وابي البركات البغدادى انما هو الاستثناء . ولانه كان استثناء ظهر منقطعا ، غير مؤثر في دراسات معاصريه ، او قابل للانتقال عبر المؤلفات العربية الى علماء العصر الحديث في اوربا .

وما اكثر الاكتشافات في تاريخ البشرية التي جاءت قبل اوانها .

ولا يفوتنا هنا ان نوضح الاضافة الهامة التي انجزها ابيقور حين قرر وجود قوة خاصة تحملها الذرات ، واطلق عليها : " الميل " .

فلقد لوحظ ان عددا من الدارسين قد استخدموا المدلول اللفظي لفكرة الانحراف . حتى انهم حين ابدلوا " الانحراف " "بالميل " ظل مفهوم الانحراف هو العمق النظرى لقوة الميل . فالاستاذ بدوى في الصفحة ١٦٩ من " خريف الفكر اليوناني " يستخدم الميل ، وفي الصفحة ٥٧ يستخدم الانحراف .

واما الاستاذ يوسف كرم في " نشاة الفلسفة اليونانية " ـ الصفحة ٢١٧ ـ فلقد اكتفى بمصطلح " الانحراف "

ومع ان هذا هو المصطلح الذى تم تعريبه الى لغتنا العربية الا ان معناه يرتبط ارتباطا وثيقا با " الميل الى " وليس با "الميل عن " .

ولنتأمل في شروح الاستاذين . يقول الاستاذ كرم في الصفحة المذكورة : " والجواهر متحركة ابدا في خلاء لا متناه وعلة الحركة باطنة فيها فترك الحركة من غير علة . بالثقل اذن تتحرك الجواهر في خط مستقيم من اعلى الى اسفل (كما يشهد به سقوط الاجسام) وبسرعة واحدة مع اختلاف مقاديرها ـ كذا ـ فان تفاوت السرعة انما يأتي عن تفاوت مقاومة الاوساط التي يجتازها الجسم المتحرك ، والخلاء عديم المقاومة ، فالسرعة فيه متساوية . غير ان **للجواهر انحرافا عن خط سقوطها ، تنحرف من تلقاء نفسها مقدارا صغيرا للغاية فتلتقي وتؤلف المركبات** . ولا يحتج بأن التجربة لاتقهرنا على هذا الانحراف ، فلولاه لاستمرت الجواهر تسقط في الخلاء بلا انقطاع دون أن تلتقي ابدا لتأليف الاشياء موجودة ، فيلزم ان شرط وجودها حقيقي . من حيث ان الانحراف هو الغرض الوحيد الذى يفسر تلاقى الجواهر " .

وهكذا نجد ان الفكرة الابيقورية المضافة الى المذهب الذرى لا تحمل مفهوم الانحراف بمعناه الوصفى . وانما " تنطق " بشيء قريب من " الميل الى " .

فقوة الميل الى هي التي تدفع بالاجسام الى ان " تلتقي وتؤلف المركبات " .

فالانحراف اذن .. مدلول وصفي . ولكنه لايتضمن تعليل أبيقور التحليلي .

ويقول الاستاذ بدوى في الصفحتين ٥٦ ، ٥٧ :

" وصعوبة اخرى نشأت عن هذا التصور لحركة الذرات في الخلاء ، وهى ان هذه الذرات عند ابيقور مادامت تسقط في الخلاء فلا بد ان تسقط بسرعة في الخلاء فلا بد ان تسقط بسرعة واحدة لانها في الخلاء ـ كذا ـ وهي اذن لم تصطدم بعضها مع بعض وتكون من ذلك دوامات كما قال ديمقريطس من اجل تفسير نشأة الكون ، وانما ستضطر هذه الذرات الى ان تسقط وبسرعة واحدة في الخلاء .: فلا مجال اذن للتلاقي .

فكان على ابيقور بعد هذا ان يفسر نشأة الاشياء وتكوينها من اجتماع الذرات ، فاضطر من اجل هذا الى ادخال فكرة جديدة كانت في الواقع ثغرة كبيرة في هذا المذهب الالى ، ونعني بهذه الفكرة : فكرة الانحراف فهو يقول : انه كي يفسر امكان اجتماع الذرات بعضها مع بعض من اجل تكوين الاجسام ، لابد من افتراض ان في الذرات قدرة خاصة على الانحراف عن مسقطها الطبيعي " .

وهكذا نستطيع بكل اطمئنان ان نعتبر الابيقورية تعليلا للنظرة الارسطية ليس الا . فارسطو يقول " بالطبع " او "الميل الى " . والفكرة الابيقورية تتجه كلها الى وضع تعليل فلسفي متكامل لعمليات التلاقي والتكاثف

الطبيعة .

بحوث العرب
في العصر الوسيط

لانستطيع ان نقدم دراسة وافية عن مجمل المنجزات العربية في علوم الميكانيكيا ، غير ان ماتم اكتشافه الى الان يعتبر بحد ذاته تاريخاحديدا ونوعيا لتاريخ التطورات العالمية التي اصابت علوم الميكانيكيا .

ولعل غياب اهتمامات الباحثين المعاصرين بمنجزات العرب الميكانيكية النظرية ناشيء عن التصنيف العربي القديم لعلم الميكانيكيا . فلقد كان هذا العلم مرتبطا لديهم بقسم الطبيعيات لذا وردت الدراسات النظرية لفرعي الحركة والسكون في موءلفاتهم الفلسفية . وسيبدو هذا واضحا في الكتب التي سنستشهد بها في هذا القسم من الدراسة .

والباحث العربي الوحيد الذي نجح الى الان في استخراج النظريات الميكانيكية من الكتب الفلسفية هو العلامة العربي المصري . د . جلال شوقي ، وقد نشر في سنوات وجوده كأستاذ زائر في كلية الهندسة بجامعة حلب ، ثلاث دراسات هامة وهي :

" اصول الميكانيكا في الفكر العربي " نشر ضمن بحوث اسبوع العلم الثالث عشر / حلب من ١٨ الى ٢٤ تشرين الثاني ١٩٧٢ / المجلد الرابع / من صفحة ١٦٣ الى صفحة ٢٦٢ .

" دراسات العرب في سلوك الاجسام المتحركة " مجلة " عاديات حلب " الكتاب الاول عام ١٩٧٥ من صفحة ٣ الى صفحة ٥١ اصدار معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب . لايفوتنا ان نقول هنا ان هذا البحث اجترا مدروس من البحث الاول .

" دراسات البيروني في الطبيعيات " .

بحث منشور في المجلد الاول لابحاث الندوة العالمية الاولى لتاريخ العلوم عند العرب ، والتي انعقدت في جامعة حلب عام ١٩٧٦ م من الصفحة ٢٥١ الى الصفحة ٢٧٣ ـ اصدار معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب .

ويمكن اعتبار دراسات العلامة شوقي دراسات رائدة بحق ، لانها في ابسط التقديرات غير مسبوقة .

فنحن لانكاد نجد شيئا يذكر ، في هذا الحقل من منجزات العرب ، في كثير من بحوث المستشرقين والباحثين العرب ؟ وعلى وجه الخصوص " مقدمة في تاريخ العلم " لجورج سارثون ، و"تراث الاسلام " في مجموعتي : شاخت وبو زورث ، وثوماس ارنولد . وكلا المجموعتين لها نفس العنوان المذكور ، بالاضافة الى

مئات الدراسات التي نشرها كبار المستشرقين في " دائرة المعارف الاسلامية " .. وغيرها من الموسوعات والمطولات والبحوث .

وككل الدراسات غير المسبوقة ظهرت بعض النتائج قلقة مضطربة حتى ان العلامة شوقي في حديثه عن القانون الثاني للحركة مثلا بدا متساهلا حين اغفل الابتعاد العربي شبه التام عن المحتوى الفيزيائي للقانون المذكور ونقول " شبه التام " لان هذا القانون ليس فكرة واحدة وانما هو منظومة من الافكار يلعب في اقرار ناظمها الرياضي تجريب ضروري معروف وهو تحديد قيمة تسارع الجاذبية الارضية الثابت .

ولا ينبغي بأي حال ان ينشأ في الذهن وهم يتجه الى التقليل من عبارة واحدة كتبها علامتنا العربي الجليل ولكننا نطمح الى اعادة تنظيم النصوص المكتشفة حتى تنجح هذه المحاولة في وضع نصوص الهمداني في مكانها المناسب من تاريخ تطورات مفهومنا لظاهرة " سقوط الاجسام الحرة الى الارض " خاصة وان العلامة شوقي قد اعتبر البيروني رائدا للجاذبية في دراسته عن طبيعيات البيروني المشار اليها سابقا .

* * * *

ان ابرز الافكار والنظريات التي قدمها الدارسون العرب تدخل في هذه الموضوعات :
اولا : حركة التساقط الحر للاجسام .
ثانيا : حركة الاجسام المقذوفة الى اعلى .
ثالثا : قوانين الحركة الثلاثة .
رابعا : مفاهيم العرب : للمبدأ والميل والاعتماد .. والجاذبية الارضية .

وجميع هذه الموضوعات الاربعة تشكل تفرعات ثانوية لظاهرة " قوة الجاذبية المركزية " للارض .

فالموضوعان الاولان مترابطان من حيث كونهما حركة جسمية في اتجاهين متضادين ولولا ظاهرة سقوط الاجسام الى الارض وارتفاع الابخرة الى الاعلى لما كان تاريخ تأملات الانسان في " الجاذبية الارضية " قديما جدا . واما الموضوع الثالث فيرتبط ارتباطا مباشرا بقوة الجاذبية الارضية وحسابها ايضا ، وهذا هو ما ينص عليه القانون الثاني للحركة الذى يعود فضل صياغته الى الرياضي الانجليزى اسحق نيوتن .

واما الموضوع الاخير فيبين تطور الفهم العربي "لسبب " ظاهرة السقوط الى الاسفل والارتفاع الى الاعلى للجسمين : الثقيل والخفيف على التوالي .

وسنرى ان العلماء ظلوا في غالبيتهم خاضعين للنظرة الارسطية من خلال تبنيهم لمفاهيم : المبدأ والميل والاعتماد . ولم نجد غير عالمين خرجا على المفاهيم السابقة وهما ابو محمد الحسن الهمداني صاحب

الاكليل وابو الريحان البيروني . ولاهمية الفهم العربي للميل (او المبدأ او الاعتماد) سنقف عند تعريفاتهم له اولا :

مفهوم الميل :

ميز العرب بين نوعين من الميل . وهما : الميل الطبيعي ، والميل القسرى .

وجاء الميل الطبيعي لديهم " بمعنى القوة " التي توءدّي الى الحركة الطبيعية حتى يستعيد الجسم موضعه الطبيعي (١) او التي توءثر على الجسم لتعيده الى موضعه الطبيعي ، فالميل الطبيعي هنا بمعنى السعي الى الوضع الطبيعي .

وقال الشيخ الرئيس ابن سينا : (٢)

"ان الاجسام الموجودة دوات الميل كالثقيلة والخفيفة ، اما الثقيلة فمما يميل الى اسفل ، واما الخفيفة فمما يميل الى فوق ، فانها كلما ازدادت ميلا كان قبولها للتحريك القسرى ابطأ ، فان ثقل الحجر العظيم الشديد الثقل او حره ليس كثقل الصغير القليل الثقل أو حره".

وفي " الاشارات والتنبيهات " يقول الشيخ الرئيس : (٣)

" وانما يكون الميل الطبيعي – لامحالة – نحو جهة يتوخاها الطبع ، فاذا كان الجسم الطبيعي في حيزة الطبيعي لم يكن له – وهو فيه – ميل ، لانه – لامحالة – انما يميل بطبعه اليه لاعنه . وكلما كان الميل الطبيعي اقوى ، كان امنع لجسمه عن قبول الميل القسرى ، وكانت الحركة بالميل القسرى افتر وابطأ " .

واما الامام فخر الدين الرازى فانه في كتابه " المباحث الشرقية في علم الالهيات والطبيعيات " يوءكد على ان سبب الحركة الطبيعية هو الميل ، فيقول : (٤)

.. " فان الثقل قوة محركة الى اسفل ، وهي اما الطبيعة وهي صور جوهرية ، او الميل الذى هو السبب القريب للحركة ، وهو في مقولة الكيف "في الصفحة ٢١٩ يقول الرازى " :

" كل ماله مكان فلا بد وان يكون له مكان طبيعي ومكان غريب ، ويكون له لا محالة ميل الى المكان الملائم وميل الى المكان الغريب ، الميل هو الثقل والخفة ".

واذا تابعنا التأمل في النصوص العربية التي يعود الفضل الاول في نشرها الى العلامة جلال شوقي نجدها **تتفق على اعتبار الميل قوة طبيعية مادية توءثر في الجسم في الحالات التي يظهر فيها انتزاع الجسم عن "وضعه" الطبيعي او الاصلي .**

مثال ذلك .

يقول الشيخ الرئيس في " الشفاء " (٥)

" وكل جسم ينتقل بالقسر ففيه مبدأ ميل ما ، اما الانتقال المكاني فقد بيناه ، واما الانتقال القسرى الوضعي

فلان ذلك الجسم ان كان قابلا للنقل عن مكانه فقد ظهر ، وان كان غيرقابل له ، فله ـ لامحالة ـ قوة بها يثبت عن مكانه ويلزمه ، ويختص به ، وهو غير جسميته ".

ويلاحظ أن ابن سينا يستخدم في النص السابق مفهوم الميل القسرى كغيره من العلماء العرب . ويتفق استعمالهم لهذا المصطلح على انه القوة الخارجية عن الجسم التي تحرك الجسم وتدفع به الى تحريك قسرى ـ رغما عنه . وبهذا المعنى فان " الجسم الذى لا ميل فيه ، لا بالقوة ولا بالفعل ، لايقبل ميلا قسريا يتحرك به ، وبالجملة لا يتحرك قسرا ، كما يقول ابن سينا في الفصل الثامن من "الاشارات " .

ويكاد مفهوم الدارسين القدماء للميل يتفق تماما مع مفهوم الاعتماد . وهو الاتفاق الذى يتضح في نصوص ابن سينا والامام الغزالي .

يقول ابن سينا في " الرسالة الرابعة في الحدود " : (٦)
" الاعتماد والميل هو كيفية يكون بها الجسم مدافعا لما يمانعه عن الحركةالى جهة ما " .

ويقول الغزالي في " معيار العلم " الصفحة ٢٩٦ :
" الاعتماد والميل هو كيفية بها يكون الجسم مدافعا لما يمنعه عن الحركة الى جهته " (٧)

ويقول الطوسي في معرض شرحه للفصل الاول من النمط الاول في طبيعيات كتاب " الاشارات والتنبيهات " لابن سينا :
" الاعتماد عندهم هو ما يسمية الحكيم ميلا " والحكيم هو ابن سينا .

وهذه النصوص تعني ان الميل والاعتماد مفهوم واحد او انهما متطابقان . بل هذا ما ينبغي ان يستخلصه المرء من قراءته لنصي ابن سينا والغزالي . فهما معا يقولان : " الاعتماد والميل هو " وكأن واو العطف قد انقلبت الى حرف تخيير " او " ، بل ويضعان تعريفا واحدا تكاد مفرداته ان تتطابق .

ولنحاول معا ان نحدد درجة اقتراب او ابتعاد المفاهيم الفلسفية العربية السابقة عن مفاهيم ارسطو تحديدا فماذا نجد ؟

ان ابن سينا وهو الشيخ الرئيس لفلاسفة الاسلام قد برهن في كثير من نصوص " الشفاء" تخصيصا على انه ارسطي حتى العظم . بل ان عباراته ومصطلحاته تكاد تتطابق مع عبارات ومصطلحات " الطبيعة " بتعريب اسحق حنين .

يقول ابن سينا في قسم " الطبيعيات " من " الشفاء " ـ بتحقيق د . محمود القاسم ـ ان : "

" الخفيف المطلق هو الذى في طباعه ان يتحرك الى غاية البعد عن المركز . ويقتضي طبعه ان يقف طافيا بحركته فوق الاجرام كلها . واعني – وردت خطا واعقي – بالطافي ليس كل وضع فوق جسم ، بل وضعا يصلح ان يكون منتهى حركة " الصفحة ٦٤ .

ولكن ما هو تعريف الثقيل ؟

يتابع ابن سينا في ذات الصفحة فيقول :

"والثقيل المطلق ما يقابله حق المقابلة ، فتكون حركته أسرع حركة ، لميله الى غاية البعد عن المحيط خارقا كل جسم غيره ، فيقتضي أن يقف راسبا تحت الاجسام كلها " .

وبعد عدة أسطر يستخدم ابن سينا مصطلحات أرسطية بحتة من مثل "المستقر الطبيعي " أو " الوضع الطبيعي " وكذلك " الميل الطبيعي " ونحوها .

بل انه يحمل الينا رأيا أرسطيا محضا عن التفاوت الظاهرى في سرعات الاجسام الساقطة الى الارض في السطرين الاولين من الصفحة ٦٦ .

والشيخ الرئيس في مجموع رأيه يرى ما يلي :

"وأما نحن فنقول ان كل حركة من هده فانما هي تتم للمكان الطبيعي ، وان كل جسم ادا حصل في حيّزه الطبيعي لم يبق له ميل . فاذا كان الخشب يرسب في الهواء لم يكن للهوائية التي فيه ميل البتة ، فلم يكن له مقاومة للارضية والمائية التي فيه البتة ، فغلبت تلك بميلها الموجود بالتعل (؟) فاذا حصل في الماء انبعث الميل الطبيعي للهواء الى فوق ، فان قوى وقاوم دفع الخشب الى فوق ، وان عجز أذعن للهبوط قسرا " . (ص ٦٨ – ٦٩) .

ولنقف قليلا ونسأل : ما هو الاشكال الطبيعي الفلسفي الذى حصر النظرات اليونانية والعربية الاسلامية في مفاهيم – لانجازف ادا قلنا انها مختلقة – من أمثال "طبع " و "ميل" و"ميل طبيعي" ونحوها ؟ .

ان كل التخبطات الفلسفية – ذات الهدف الفيزيائي أصلا – قد نشأت ، كما نرى ، من فكرة بالغة الخطورة ، الا وهي : "المكان الطبيعي للاجسام " .

فكل النصوص التى اعتمدناها والتي وقفنا عليها انما كانت تحاول تعليل حقيقة فيزيائية ثانوية تشكل

جزءا من ظاهرة الجاذبية . ونعني بهذه "الحقيقة الفيزيائية الجزئية" ما يعرف بطاقة "الوضع" والتي تعرف أيضا بطاقة "الكمون" الناتجة أصلا عن "الارتفاع" .

فمثلا حينما نرفع حجرا ونضعه على عائق مادى – طاولة ، كرسي ، رف ، .. – نجد أن الحجر يستقر بوجود هذا العائق ولكن الخبرات البشرية – عبر التاريخ – قد اكتسبت ما يؤكد لها "دائما" على عودة "الحجر الى "ذات الارتفاع" الذى بدأت منه.

وتعرف هذه الحقيقة الفيزيائية الجزئية بطاقة "الوضع" أو "الكمون" ؟ وهي جزئية لانها مرتبطة بالظاهرة الشاملة المعروفة بالجاذبية .

فعندما "نرفع" جسما ماديا الى أى علو وليكن خمسة أمتار من مستويات مختلفة – بمستوى سطح البحر ، وعلى سطح بناء من عدة طبقات ...الخ فماذا نجد ؟ – ليكن الحديث عن حالة نستخدم فيها سطح البناء الموصوف .

حين نقذف الجسم الى ارتفاع مقداره خمسة أمتار فان الجسم يعود الى ذات النقطة التي انطلق منها ، ويبقى مستقرا على سطح البناء ، بل ويظهر لنا أنه "ساكن" ولكن ماذا يحدث لو أزحنا بسرعة خارقة العائق المتمثل في البناء الموصوف ؟ لماذا نجد الجسم يسقط وكأنه يبحث أو يعود الى "مكان تحتي هو استقراره الاخير ، على مستوى الارض.

هنا وقف الفلاسفة القدماء – قبل الهمداني – عند الرأى الذى ذكرناه وهو "المكان الطبيعي" .

وهو ذات الرأى الذى نطقت به أيضا نصوص الشيخ الرئيس .

(الجاذبية عند الدارسين العرب)

*** اشارة خفيفة**

يقول الامام الرازى (٨) في الكتاب الثاني الفن الخامس ، الفصل الثاني عشر ، الصفحة ٥٧٨ ان "انجذاب الجسم الى مجاوره الابعد" .

ومن المعلوم ان قوة التجاذب اعتمادا على قانون نيوتن – تزداد بتقارب الجسمين او الكتلتين الماديتين وتقل بتباعدهما . وبصيغة اخرى ان قوة التجاذب تتناسب عموما بشكل عكسي مع المسافة التي تفصل الكتلتين

الماديتين وهذا هو بالتحديد ما رمى اليه الامام الرازى في عبارته المذكورة .

ويحق لنا ان نعتبرهده العبارة العلمية اقدم فكرة موضوعية اقتربت من التوصيف الصحيح لظاهرة الجاذبية .. او بمعنى آخر .. ان الرازى انما قدم لنا " وصفا " حقيقيا لظاهرة نطق بها قانون الجاذبية بعده بعدة قرون .

وهنا لا بد من توضيح امرين :
اولا : ان تاكيد الامام الرازى على ان الجاذبية هي قوة طبيعية او ميل طبيعي في الاجسام المادية ليس الا ترجمة عربية للفهم الارسطي ، كما اشرنا اليه سابقا .
ثانيا : ان اضافة الرازى المذكورة هي جوهر الطبيعة الرياضية لقانون نيوتن في الجاذبية العالمية . ومن يشتغل بالرياضيات يدرك تماما ان الصيغة التالية :

$$ق = ثا \frac{ك_١ \times ك_٢}{ف^٢}$$

قد اعتمدت على وجود الثابت ، هو ثابت نستطيع ان نعينه بسهولة اذا حددنا نوع الوحدات التي نمنحها للكتل المادية ـ وهما كتلتان في القانون (ك١ ، ك٢) ثم نوع الوحدة الممنوحة للمسافة الفاصلة بين الكتلتين وهي (ف) .

غير ان ما ينبغي توضيحه هنا هو ان رأى الامام الرازى على اهميته هو رأى منقطع ، كما ان نيوتن لم يصل بالسهولة التي تهدف اليها قصة التفاحة التي سقطت على رأسه . فالصيغة التي انتهى اليها قد تحقق منها بعد ان اشتغل فترة طويلة في مثال شيق وهو مسار حركة القمر حول الارض ، كما هو موضح في عديد من المصادر ابرزها "محاضرات فانيمان ".

هل البيروني رائد الجاذبية ؟

اما البيروني العظيم فانه بلا منازع قد اكتشف الحقيقة الفيزيائية لالية سقوط الاجسام الى الارض . واكد من جديد انه " اكبر عقلية في التاريخ " كما قال عنه المستشرق الالماني الكبير الدكتور سخاو .

ولقد ورد رأى البيروني بوضوح عند مناقشته لافكار علماء .. اعترضوا على دوران الارض حول نفسها . وكان لسانهم يقول :
" ان الارض لو هكذا دارت اذا لطارت من فوق سطحها الاحجار ، واقتلعت الاشجار "

ويفند البيروني هذا القول مذكرا بان قوة الجاذبية الارضية تمسك بالاجسام التي عليها ، وقال مانصه :
" هذا لايقع لانه لا بدّ لنا ان ندخل في الحساب ان الارض تجذب كل من عليها نحو مركزها " . ويعود

البيروني فيؤكد المعنى في كتابه " القانون المسعودى ـ الصفحة ٢٢ من الجزء الاول ، " فيقول :
" والناس على الارض منتصبو القامات على استقامة اقطار الكرة وعليها ايضا نزول الاثقال الى السفل " (٩)
ولقد استخلص العلامة شوقي في بحثه عام ١٩٧٦ رأيا يذهب الى ان ابا الريحان البيروني هو رائد مفهوم الجاذبية لانه نظر اليها كقوة طبيعية فاعلة اولا ..ومركزية ثانيا ..

ولا شك ان الفهم الذى قدمه البيروني خير جواب على الذين امتنع على تفكيرهم الايمان بدوران الارض حول نفسها بل وكرويتها ايضا .

ولكن البيروني لم يكن الرائد الاول لهذا الفهم الجديد .. وتكاد عباراته السابقة تطابق تماما ما قال به عالم عربي آخر لايقل عنه موسوعية وهو ابو محمد الحسن الهمداني ـ صاحب الاكليل ، والمولود (١٠) عام ٨٩٣ م .

ولا ينبغي ان ينظر الى هذا الاستدراك على انه تقليل من شأن " اكبر عقلية في التاريخ " ـ فلا يمكن ان يتحرك فينا دافع كهذا ـ وعلى العكس تماما ان هذا الاستدراك الذى نقدمه تنبيه الى ان ادراك العرب للجاذبية كقوة مركزية فعالة لايعود الى القرن **السابع** عشر الميلادى ، وانما الى القرن الميلادى **التاسع** والنصف الاول منه تحديدا .

الهمداني رائد مفهوم الجاذبية :

يعتبر الحسن الهمداني صاحب الكتاب الخالد الاكليل عالما من اكثر علماء العرب موسوعية . اثارت كتبه في عصره ، عواصف سياسية كادت ان تمزقه ، وما زالت اهتماماته وموضوعاته التي تزخر بها كتبه المكتشفة مثار دهشة الباحثين والمؤرخين وعلماء الاثار . فلقد ترك للاجيال محصولا هائلا غطى به علوم عصره ، نثرا وشعرا . ففي الاثار تبين انه اول عالم ـ ربما في العالم ـ نادى باستنطاق الحجارة كما يقال لدراسة آثار القدماء ، ولا يمكن النظر الى ما تركه من كشوفات في اللغة اليمنية القديمة وآثار اليمن الا الدليل الساطع على زيادته في هذا الفرع من علوم الانسان .

وفي الفلك نقلت الينا بعض اوراقه المكتشفة صورة ـ ولو جزئية ـ عن عالم متمكن في الحسابات الفلكية .. وفي علوم اللغة والانساب وتواريخ المدن والجغرافيا ونحوها من العلوم الانسانية . كان الهمداني نموذجا لذلك الانسان الذى كان عليه عرب العصر الوسيط .

ولقد سبق لكاتب هذه السطور ان توقف عند نظرية هامة في كتب الهمداني ، واظهر العقلية العلمية الحادة التي تميزت بها مناقشات وتجارب ونقول الهمداني ـ انظر العدد الثاني من مجلة الاكليل اليمنية ، دراسة بعنوان " نظرية الاحتراق للهمداني ومكانتها في تاريخ العلم " .
ونخلص الى القول من هذه التقدمة الصغيرة الى ان العالم الذى نتحدث عنه لم يكن شخصا عاديا .

ـل هذا ما سيستخرجه القارئ من النص الذى سقدمه للقارئ عن نسخة لمخطوطة " كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين من الصفراء والبيضاء " ـ نسخة كريستوفر تول .

يقول الهمداني في الصفحة ١١٥ ، او ١٧ ب بترقيم تول ، في سياق حديثه عن الارض وما يرتبط بها من اركان ومياه وهوا ..

.. " فمن كان تحتها ـ تحت الارض ـ فهو في الثبات في قامته كمن فوقها ، ومسقطه وقدمه الى سطحها الاسفل ، كمسقطه الى سطحها الاعلى ، وكثبات قدمه عليه . فهي بمنزلة حجر المغاطيس الذى تجذب قواه الحديد الى كل جانب . فاما ما كان فوقه فان قوته وقوة الارض تجتمعان على جذبه وما دار به فالارض اغلب عليه اذا كان الحديد مثلا يسر اجزاء الحجر والارض اغلب عليه بالجذب لان القهر من هذه الحجارة لايرفع العلاة ولا سفلة الحدّاد " .

ان النص واضح وجلي . ومع هذا فلنقل ان الهمداني قد اكتشف حقيقة خطيرة وهي ان الكرة الارضية ـ وكان هذا ايمانه ـ تجذب الاجسام في كل جهاتها ، وهذا الجذب انما هو قوة طبيعية مركزة في الارض وتترك حول الارض مجالا فعالا اشبه بذلك المجال الذى تتمتع به القطعة المغناطيسية .

ولهذا السبب فان من يعتبر نفسه فوق الارض يتساوى مسقطه عليها مع مسقط من يعتبر نفسه تحتها . وهذه الخاصية في الجذب الارضي هي السبب في كون الذى الى اسفل ـ اصطلاحا ـ لاينزلق الى الفراغ الذى " تحت " الارض .

ولولا هذه الخاصية لكانت كروية الارض ودورانها سببين اساسيين في " طيران " ما على سطح الارض من كائنات ومحيطات ، واشياء غير ملتصقة بها طبيعيا .

ولكن ما مكانة هذه النظرة الهمدانية من الفهم النيوتوني للجاذبية ؟ .

واضح ان النص السابق لايحتمل التأويل التعسفي . لذا نقول ان الهمداني قد "ربط" الخاصية بالارض . ولم يقل بالنص ان الاجسام تجذب بعضها البعض ـ وهو المفهوم الذى يشكل اساس قانون نيوتن للجاذبية العالمية .

وهنا نقف لنسأل :

كيف نفهم نصوص الهمداني والبيروني على ضوء تلك الاشارة الخطيرة الى قال بها الامام الرازى والتي لا تعني سوى ان الاجسام تتجاذب ، وتزداد قوة الجاذبية بين جسمين بنقص المسافة الفاصلة بينهما ؟

ربما كان السؤال سهلا . ولكن الاجابة علية تقتضي الكثير من التحفظ وعدم المغامرة برأى لم نجد ما ينص عليه حتى الان .

وحرصا منا على استكمال المتابعة التاريخية " العملية لاغراض عديدة ابرزها وضع تصور شبه تام عن كل الاطوار التي مرت بها مفاهيم الانسان للظاهرة المدروسة ، علينا ان نتحقق من الاطوار الاخيرة ، بدءا من القرن الثاني عشر الميلادى وحتى الايطالي العظيم جاليلو : الذى يعتبر مدخلا رئيسيا لفهم نيوتن (بالاضافة الى كوبر نيكس الذى لن نتطرق الى قوانينه الثلاثة)

وبهذه المتابعة نكون قد وضعنا البرهان الحاسم على ان الهمداني غير مسبوق وتأخر عنه ركب اللاحقين قرونا عديدة .

* * * * *

الفيلسوف هبة الله البغدادى .

كان ابو بركات البغدادى هو اول عالم في تاريخ العلم قال بما ينسب عادة الى جاليلو جاليلي ، الذى ولد بعد وفاة البغدادى بنحو اربعمائة عام ميلادى ..و نتيجته هي بالتحديد :

ان جميع الاجسام ، على اختلاف اشكالها ، اذا سقطت من ارتفاع واحد ، وكان عامل الهواء معدوما تصل الى سطح الارض في لحظة واحدة ـ ان عبارات الفيلسوف البغدادى واضحة وجلية ولا تقود الا الى الفهم الذى نحمله في العصر الحديث عن " التساقط الحر للاجسام " .

يقول ابو البركات هبة الله البغدادى في كتابه " المعتبر في الحكمة " (١١) :
" وايضا لو تحركت الاجسام في الخلاء لتساوت حركة الثقيل والخفيف والكبير والصغير والمخروط المتحرك على رأسه الحاد ، والمخروط المتحرك على قاعدته الواسعة ، في السرعة والبطء ، لانها انما تختلف في الملاء بهذه الاشياء بسهولة خرقها لما تخرقه من المقاوم المخروق كالماء والهواء وغيره .. " نص من مخطوط مكتبة احمد الثالث رقم ٣٢٢٢ المجلد الثاني ـ الفصل الرابع عشر ـ الورقة ٤٩ .

ويلاحظ ان ابن ملكا يشير في موضع آخر من كتابه المذكور الى مسألة تاريخية هامة وهي ان النتيجة الفيزيائية السابقة ليست له ، وانما هو واحد من القانعين والمبشرين بها معا . ولكن باستطاعتنا ان نعتبره صاحب الوعي العملي لالية سقوط الاجسام " الحرة " .

يقول ابن ملكا بالنص : (١٢)
" وقولهم ان الاجسام لو تحركت في الخلاء لتساوت حركة الصغير والكبير منها والخروط على رأسه وقاعدته يسلم لهم في هذا الخلاء الخالي حتى لايطول الكلام ، واما الخلاء الذى فيه ما فيه مبثوثا ، يصادف المتحرك ويصادمه مصادمة بعد مصادمة فلا يلزم منه هذا " الصفحة ٣٥ من مجلة عاديات حلب المذكورة .

ان النص الاول كما سبق ذكره قد اقتبسه الاستاذ الباحث من الورقة ٤٩ من مخطوط البغدادى واما النص الثاني فانه مقتبس من الورقة ٦٠ . من يتامل النص الثاني لابد ان يقف عند هذا السوءال :

من هم اولئك الذى ذكر لهم البغدادى " قولهم " ؟ ومع اننا لانعلم حتى الان .. ولم يلتفت الى ذلك الاستاذ الباحث الا ان طبيعة مناقشة البغدادى "لهم" توحي برجل عالم يتقن الربط بين " الفكرة النظرية " و الظاهرة الطبيعية مع أنه يوءمن بامكانية تحقيق التساقط الحر للاجسام في الخلاء الخالي كما يحدده بدقة في عبارته ، غير انه يستدرك بواقعية واعية ان ما هو مبثوث في الخلاء يمنع تحقيق الفكرة النظرية ، وتلك ذروة الفكر النظرى التطبيقي التي لم تصل اليها البشرية ـ كما هو شائع ـ الا في القرن الخامس عشر الميلادى في تجربة برج بيزا المائل .

** ومن الدراسات التي خاض فيها علماء حضارة القرون الوسطى وتتعلق بالتحديد بموضوع ظاهرة الجاذبية بحثهم في " حركة الحجر المرمي الى اعلى " من حيث ان حركته تعاكس " فعل " قوة التثاقل الارضية . او ان القوة القسرية هنا تعمل في تضاد مع " قوة الجاذبية " الارضية .

وقبل ان نصل الى النصوص المكتشفة علينا ان نوضح هذا الجانب :

ان الحجر المقذوف ، بشكل شاقولي او رأسي الى الاعلى ، يرتفع ارتفاعا معينا حسب قوة الرمية ثم يرتد راجعا نحو سطح الارض بفعل تأثير "قوة " الجاذبية الارضية .

والسوءال الذى وقف عنده الفيلسوف هبة الله البغدادى هو : هل يقف الحجر في اعلى نقطة يصل اليها حين يبدأ في الارتداد الى سطح الارض ؟

في كتابه " المعتبر في الحكمة " الورقة ٨٩ يقول البغدادى بالنص الواضح والصريح :
" من توهم ان بين حركة الحجر علوا المستكرهة بالتحليق ، وبين انحطاطه ، وقفة فقد اخطأ " .

لنسأل البغدادى : ولكن لماذا لاينبغي للجسم او الحجر ان يقف طالما ان هناك انقلابا في اتجاه حركته ؟ انه انقلاب في اتجاه المسير .

بهذا التعليل المذهل ـ اكمل البغدادى عبارته السابقة :
" وانما تضعف القوة المستكرهة له وتقوى قوة ثقله ، فتصغر الحركة وتخفى حركته على الطرف ، فيتوهم انه ساكن .

وفي الورقة ٩٤ ـ كما اوردها الدكتور جلال شوقي ـ يقدم لنا البغدادى فهمه لماهية الجاذبية حيث يقول :

" فكذلك الحجر المقذوف ،فيه ميل مقاوم للميل القاذف ، الا انه مقهور بقوة القاذف ، ولان القوة القاسرة عرضية فيه ، فهي تضعف لمقاومة هذه القوة والميل الطبيعي ولمقاومة المخروق ".

ثم يقول بعد عدة كلمات :

" فيكون الميل القاسر في اوله على غاية القهر للميل الطبيعي ، ولا يزال يضعف ويبطىء الحركة ضعفا بعد ضعف وبطئا بعد بطء حتى يعجز عن مقاومة الميل الطبيعي ، فيغلب الميل الطبيعي فيحرك الى جهته ".

وهنا يتضح ان البغدادى لا يستخدم مفهوم " الميل " كقوة خفية بل كقوة مادية . ودليلنا على ذلك قوله " ان الميل القاسر في اوله على غاية القهر للميل الطبيعي " فالميل القاسر هنا ليس الا قوة قذف الحجر وهي قوة ينبغي ان تتغلب على قوة التثاقل حتى يصعد الحجر الى الاعلى عمليا ".

وعند هذه النقطة نصل الى ما يلي :

ان بعض النصوص العربية تؤكد على ان كثيرا من النظريات الارسطية عن ظاهرة الجاذبية قد ابطلت في العصر العربي ، في حدود القرن الثاني عشر الميلادى ، وان استخدام المفهوم الارسطي لم يكن سائدا على كافة علماء القرون الوسطى ، فبينما نجد اسحق بن حنين يستخدم المجرى الطبيعي والقوة الطبيعية ، نجد فيلسوفا مثل البغدادى – برغم انه اعتمد على ثابت بن قرة كما يفهم من نصوص اخرى – يستخدم لفظة "الميل " الطبيعي ويمنح المصطلح العام فهما ماديا صرفا ، كما توضحه النصوص المقتبسة السابقة .

بحوث الغربيين قبل نيوتن

نيكولا كوبرنيك :
(١٤٧٣ – ١٥٤٣) م

يقول نيكولا كوبرنيك في مقالته المنشورة تحت عنوان " نظرية ان الارض تدور حول الشمس " :

" انه نظرا لوجود العديد من النقط المركزية لايستطيع احد من غير سبب او علة التاكد مما اذا كان مركز الكون هو مركز جذب الارض ، او اية نقطة اخرى متوسطة ، وانا على الاقل ارى ان الجاذبية ما هي الا قوة طبيعية غرستها العناية المقدسة في كل جزء من اجزاء هذا الكون ، وبواسطتها ، وبفرض ان الكون كروى الشكل تكون تلك الاجزاء ، وحدة وكلا . ومن المفروض كذلك ان القوة الدافعة كامنة في الشمس والقمر والكواكب الاخرى وانه عن طريق فعل هذه القوة تحتفظ الاجرام بشكلها الكروى الذى نراه ، ظاهرا ، في حين انها مع ذلك تكمل دورانها بطرق مختلفة " من المقال المنشور في كتاب " العلم اسراره وخفاياه " الجزء الاول ، تحرير : هارلو شابلي وصمويل رابورت وهيلين رأيت . ترجمة الدكتور محمد صابر سليم ، الدكتور محمد جمال الفندى مراجعة الدكتور حسين سعيد ، الصفحة – ٥٨ –

من الواضح ان كوبرنيك يقصد بمركز الكون المعنى الذى نتداوله الان حين نقول بمركز المجموعة الشمسية

اى الشمس .

كما انا نعتقد أن عباراته كما وردت في مقاله المنشور في الكتاب المذكور — عن احتمال انجذاب الارض باتجاه مركز الكون " الشمس " تنطوى على افكار مثيرة لا شك ان نيوتن قد توقف عندها في مرحله ما من مراحل عمله .

غير ان كوبرنيك ، من جديد يؤكد في كلماته السابقة على وجود قوة خفية في الاجسام ولكن غرستها العناية المقدسة ، ولا يوجد اختلاف جوهرى في طبيعة القوة الخفية بين ارسطو وكوبرنيك ، والخلاف الظاهرى الوحيد هو أن تكون تلك القوة الخفية الكامنة فى الاشياء والاجرام السماوية هي " طبيعية " او ان تكون نتيجة غرس " قامت به العناية المقدسة .

ويلحظ أن الانسان حتى القرن السادس عشر الميلادى ، ورغم أنه قد توصل الى "وصف "علمي ناجح لظواهر الطبيعة الا أنه لم ينجح مطلقا في تقديم نص علمي واحد يحمل "التعليل" المعزول عن "الانسنة" وقاموس الانفعال البشرية ونزوعاتها .

واذا أردنا تقدير حجم ثورة كوبرنيك على ضوء قوتها العلمية لهالنا أنها كنظرية لم تكن جديدة في تاريخ العلم ، فالنظام الشمسي بمفهومه الكوبرنيكي يرتد الى ما قبل نيكولا كوبرنيكس بنحو ثمانية عشر قرنا . وأريستارخوس الساموسي — كما ظهر حديثا ، وبعد اكتشاف نصوص لارخميدس ، هو مؤسس هذا النظام والمنادى به . فلماذا "نام" هذا النظام كل هذه القرون ؟ .

ان التعليل الذى يقدمه مؤرخ العلم الشهير جورج سارتون في كتابه "تاريخ العلم" يبدو منطقيا ومتماسكا . فلقد رفضت نظرية أريستارخوس لان أشهر فلكي يوناني وهو هيبارخوس قام برفضها رفضا صارخا . وفي الصفحة ١١٩ من الجزء الرابع من الكتاب المذكور يقول سارتون :

" اذا رجعنا الى رجال العلم مرة أخرى وجدنا أن النظام الذى يقضي بأن تكون الشمس في مركز الكون قد وجد تأييدا من سليبوكس البابلي الذى عاش في النصف الاول من القرن الثاني قبل الميلاد . ولكن لم يلبث أن رفضه هيبارخوس الذى عاش في النصف الثاني من القرن الثاني ق.م وكان في رفضه قضاء نهائي على هذا النظام ، لان هذا الرفض قد صدر من هيبارخوس وهو أكبر فلكي عند القدماء . وقد أيده في ذلك بطليموس الذى عاش في النصف الاول من القرن الثاني ق.م وأكده في رفضه . لذلك لم يشأ كل من هذين العالمين أن يوجه أى التفات الى آراء هيراكليدس فأوقفا بذلك تطور كل نظام فيما عدا النظام الذى يقضي بوضع الارض في مركز الكون " .

ان ظاهرة سقوط الاجسام الى الارض لم نجد لها في النصوص التي أوردها أرخميدس عن أريستارخوس ما يمكن أن يمنحها تعليلا او محاولة في التعليل . غير أن من الواضح أن البحث في هذين السؤالين : لماذا تتحرك الكواكب ؟ وكيف تتحرك ؟ والسؤال الثاني هو جوهر ما حاول أريستارخوس أن يجيب عليه — يقودان الى البحث في مسارات الكواكب وحجومها وكتلتها وسرعاتها في الفضاء الكوني .

** لقد خاض البيروني في ايجاد البراهين على/ دوران الارض اليومي حول نفسها وكان أبو سعيد السنجري ـ كما تشير بعض المصادر ـ مؤمنا بالنظام الشمسي بمفهومه الحديث ، ودرس جاليلو ممن جديد براهين مماثلة لبراهين البيروني وجاء كوبرنيك ليضع الصورة الاخيرة للمفهوم المركزي الحديث للنظام الذي يحكم المجموعة الشمسية ، ورغم كل هذه الجهود التي تنطلق بدرجة رئيسية من أسس السؤالين المذكورين سابقا حول مسارات الكواكب وكيفية هذه المسارات ـ نقول ان كل هذه الجهود كان أريستارخوس قد توصل اليها في النصف الاول من القرن الثالث ق.م وذلك في رسالة له بعنوان : "أحجام الشمس والقمر وأبعادهما" . أو الى ما أشار اليه أرخميدس في كتابه ـ حساب الرمل ـ الذي لا بدّ أنه وضعه قبل سنة ٢١٦ ق.م كما يذكر سارتون/.

ان مثل هذه القصة تثير دهشة الباحث خاصة وأنها حدثت ـ ولعلها تحدث دائما ـ في تاريخ العلم .

يوهـان كبلر : (١٥٧١ــ ١٦٣٠) م

* حاول يوهان كبلر أن يقدم تعليلا جديدا للظاهرة ، فقال :

"ان القوى الجاذبة التي يؤثر بها جسم على آخر ليست سوى تعبير عن الالفة المتبادلة بين جسمين من نوع واحد وما الجاذبية المغناطيسية الا نوع من أنواع هذه الالفة . فالارض تجذب الحجر اليها ويتجه هذا الحجر نحو الارض بدافع الالفة بين مادة الارض والمادة المماثلة المؤلفة للحجر" صفحة ٢٣ وما بعدها" ـ النسبية من نيوتن الى اينشتين، الدكتور مارسيل داغر.

ويبدو أن كبلر لم يكتف بالصورة التي نقلتها العبارات السابقة ، بل اضطر الى التصدي على ضوء مفهومه الجديد ـ للمدرسيين من أتباع أرسطو . وفي كلماته التالية ما يؤكد على حجم الصراع الدائر في نهاية القرن السادس عشر بين المفهوم الارسطي للكون وبين المفاهيم الجديدة، بما فيها مفاهيم كبلر حيث يقول :

يعلل المدرسيون سقوط الاجسام على الارض بكون كل جسم يفتش عن مكانه الاصلي وهو مركز العالم . وقد ثبت خطأهم عندما أبينا أن الارض لا تبقى ثابتة في مكانها ، فهي لم تعد تمثل ذلك المكان المرموق الثابت الذى سمّي بمركز العالم ورغم انتقال الارض ثابرت هذه الاجسام في سقوطها نحوها" ـ صفحة ٢٤ ، المصدر السابق للدكتور داغر.

ان ملاحظة **كبلر** التي تتجلى بشكل واضح في السطر الاخير مدهشة للغاية . رغم أن كبلر نفسه لم يخرج في تعليله على "الانسنة" التي قال بها أرسطو وأتباعه من بعده .

لنقل ان كبلر أراد أن يقول في نهاية السطر الاخير : أين أيها المدرسيون ذلك المحرك الطبيعي طالما أن الارض تنتقل من مكانها . فهل يوجد للجسم أكثر من محرك طبيعي ؟.

ولنقف الان عند هذا السؤال :

هل هناك أي اختلاف بين القول بالمكان الطبيعي - والقول بالالفة - ؟ وهل ينبغي أن تتصرف الطبيعة أو تسلك بالطريقة ذاتها التي يتصرف بها الانسان في كوكب الارض ؟

* * من الواضح أن معلومات كبلر الفلكية قد فاقت بكثير معلومات أرسطو . رغم ذلك وجدناه يقول بنفس التعليل الذي قال به أرسطو . ويرتد سبب هذا الخطأ الذي وقع فيه كبلر الى عدم وجود مفارقة واضحة وحاسمة بين قاموس تعبير الانسان .. وقاموس التعبير عن ظواهر الطبيعة.

واذا كان معلوما أن مسارات كبلر الاهليلجية والتي توضح "خطوط سير" الكواكب حول الشمس قد قامت اعتمادا على تيخو براهي وحساباته وأرصاده (١٣) ، فاننا - من جديد - نجد اغفالا أوروبيا واضحا لنتائج غياث الدين الكاشي الذي انتهى في الالحاق الثاني من كتابه "نزهة الحدائق" الى كيفية رسم اهليلجي القمر وعطارد . ويرى بعض المصادر أن حياة الكاشي العلمية تقع عام ١٤٢٩ م - كما يذكر محققا كتاب مفتاح الحساب للكاشي ، وهما الاستاذان : أحمد سعيد الدمرداش ومحمد حمدي الحفني الشيخ ، الصفحة ٢٠ طبعة مارس/ آذار عام ١٩٦٧م.

وأما التحقيق الجديد لمفتاح الحساب - الصادر في دمشق عام ١٩٧٧ بتحقيق الاستاذ نادر نابلسي ففيه تقديم بديع للحياة العقلية في عصر الكاشي كتبها الاستاذ الدكتور عبد الكريم اليافي ، الصفحة ٣ وما بعدها . رغم أن المحقق لم يشر الى كتب الكاشي بشكل دقيق وخاصة "نزهة الحدائق" .

غاليليو غاليلي (١٥٦٤ - ١٦٤٢)م

" كان أرسطو قد شاهد ورقة شجرة وحجرا أثناء سقوطهما الى الارض ، فاستنتج نتيجة عامة بأن سرعة الجسم الخفيف تكون أبطأ من سرعة الجسم الثقيل لدى سقوط الحجر . ولكن هذا يرجع الى مقاومة الهواء وهو عامل قد أغفله أرسطو . وتساءل غاليلو عما اذا كانت نتيجة أرسطو صحيحة حين يكون الجسمان الساقطان ثقيلين الى درجة كافية لاهمال مقاومة الهواء . وتذهب القصة - ولعلها أسطورة - الى أن غاليلو أسقط كرتين مختلفتي الوزن من برج بيزا المائل المشهور وجمع أساتذة جامعة بيزا كلهم حول البرج فوصلت الكرتان الى الارض في وقت واحد ". الصفحة ٦١ من كتاب - عباقرة العلم - تأليف فيليب كين ، ترجمة أديب يوسف مراجعة الدكتور عبد الرزاق قدوره.

ان هذه الرواية التي ذكرها فيليب كين - وهي جزء من روايات عديدة حاولت أن تحيط بما يقال انه جرى في التاريخ قد الهمت ، في القرون الثلاثة الاخيرة ، الكثير من العلماء والمؤرخين .. والشعراء أيضا . ولعلها في أبسط التقديرات التاريخية تكشف لنا عن اهتمام غاليلو بسقوط الاشياء الى الاسفل . فالرواية

في محملها تؤكد على حقيقة علمية واحدة وهي : ثبات تسارع الجاذبية لجميع الاجسام .

غير أن جاليلو لم يخرج مرة أخرى على مفهوم الاسبقية – حين قال بالميل الطبيعي للجسم حين يتجه نحو الارض .

ان الجسم المادي الساقط الى الارض برأى جاليلو يحمل في داخله " ميلا طبيعيا " يدفع به الى الهبوط "نحو الارض " .

وهنا نلاحظ أن جاليلو جاليلي لم يستوعب آلية سقوط الاجسام الى الارض . ولكن شجاعته في اظهار مبدأ مناقض كليا لمبدأ أرسطو ، قد أثارت علماء الفيزياء الميكانيكية بعده ، خاصة وأنه قدم ولاول مرة في التاريخ وصفا نادرا لمفهوم العطالة في مثاله الشيق عن السفينة ذات الحركة المنتظمة .

ولقد أوضح الدكتور سميلجا (١٤) في كتابه البديع عن النسبية أن جاليلو لم يقدم لنا مفهوما دقيقا لمبدأ العطالة فحسب ، بل قدم لنا أيضا ، ولاول مرة في التاريخ ، فهما كليا لظاهرة العطالة ، حيث تترابط فيها مبدأ العطالة ، بمبدأ النسبية .

وعلى الرغم من أن مفهومنا الحالي للنسبية يختلف عن المبدأ النسبي الذي قدمه جاليلو لتعليل ظاهرة حركة الارض حول الشمس ، الا أن مثاله عن السفينة بحد ذاته ، يشكل أساسا لملاحظتنا المعاصرة حين نجد تماثلا بين الحركات النسبية على ظهر سفينة تسير بحركة منتظمة وما يحدث على سطح الارض .

مثال ذلك :

لنفترض أن رجلا (س) وقف على ظهر سفينة تتحرك حركة منتظمة مستقيمة – عمليا لا تهم الاستقامة – ثم قذف الى الاعلى وبشكل عمودي بكرة حديد متوسطة الثقل .. فماذا يحدث ؟ هل تسقط الكرة وتقع على سطح السفينة بحيث تمر من النقطة التي انطلقت منها أم انها تكتسب حركة اضافية فتسقط – نتيجة حركة السفينة الى الامام – في نقطة أبعد بقليل من الاولى ؟

ان التأملات والتجارب تقول بأن الكرة ستمر بذات النقطة التي انطلقت منها . وهذا هو أيضا ما يحدث لو ان الكرة قذفت من على سطح الارض ، التي يعتبر وقوف الرجل عليها ساكنا .

ومن الحالتين نستنتج أن قوانين الميكانيك التي تكون صالحة لجملة عطالية ما تبقى أيضا صالحة لجملة عطالية أخرى تتحرك وفق حركة منتظمة وتسير بخط مستقيم بالنسبة للجملة العطالية الاصلية .

ولكن الاشكال العلمي التاريخي هنا هو أن جاليلو سحب نتائج الحالتين المذكورتين على حركة الارض ، في محاولة منه لتعليل "مرور" الكرة المقذوفة الى الاعلى بشكل عمودي بذات النقطة التي انطلقت منها

على رغم حركة الارض في الفضاء .

فاذا كان التماثل تاما بين نتائج السكون النسبي – الحالة رقم ١ للرحل – ونتائج الحركة المنتظمة – كما يتضح في الحالة رقم اثنين – اى حالة رجل على ظهر سفينة ، فان حركة الارض الدائرية حول الشمس لا ينبغي لها أن تكون مطابقة للحالتين السابقتين . رغم أن حركة الارض شبه الدائرية هي أيضا حركة منتظمة . ففي الحالتين السابقتين لم يكن هناك وجود لقوى مركزية طاردة ، كما هو الحال في كل الحركات الدورانية المنتظمة .

وهذا يعني أننا لو جعلنا السفينة المذكورة في الحالة رقم اثنين تسير وفق حركة دورانية حول مركز ما ، فان هذه الحركة وحدها تكفي لاحداث تغير في حركة الجسم المقذوف الى الاعلى ، ومن خلال انزياح ملحوظ في مسارى صعود وهبوط الجسم المقذوف .

ولكن الخطا الذى ارتكبه جاليليو حين لم يميز بين الحالات الثلاث المذكورة هو بالتاكيد اقل من الاخطاء الفاحشة التي قادت اليها روءية أرسطو .

اذ يكفي جاليليو أنه أول عالم في التاريخ استخرج التماثل التام بين السكون النسبي والحركة المنتظمة المستقيمة . وهو تماثل هام وخطير على صعيد تطور الافكار العلمية عبر العصور .. بل انه الاساس الذى تقوم عليه ثورة النسبية في القرن العشرين .

* *

وفي السنة التي توفي فيها جاليليو . قال الله – بتعبير جورج جاموف في "قصة الفيزياء" فليكن نيوتن .

وبدأ عصر جديد بالسير اسحق نيوتن الذى ولد في يوم عيد الميلاد لعام ١٦٤٢ م كهدية للعالم ، على رغم أن حجمه كان لدى ولادته صغيرا جدا .. حتى قيل "انه كان بالامكان وضعه في ابريق حجمه ربع جالون " .

ولكن هذا الجسم الصغير كان أعظم من ملايين العمارات البشرية .

---

(١) الصفحة ٢١٦ / بحث اسبوع العلم الثالث عشر .

(٢) شوقي (المصدر السابق) الصفحة ٢١٧ / وانظر الشفاء / المقالة الرابعة ، الفصل الرابع عشر .

(٣) المصدر السابق ٢١٧ / وانظر المقالة الرابعة – الفصل الرابع عشر للكتاب المذكور .

(٤) المصدر السابق ٢١٨ وانظر الصفحة ١٨٧ من الكتاب المذكور للامام الرازى .

(٥) المقالة الرابعة / والمصدر السابق ٢١٩

(٦) د . شوقي ٢٢٢/ اسبوع العلم الثالث عشر .

(٧) د . شوقي ٢٢٢ اسبوع العلم الثالث عشر .

(٨) " المباحث الشرقية في علم الالهيات والطبيعيات " .

(٩) " دراسات البيروني في الطبيعيات " الصفحة ٢٦٣ ، المجلد الاول من ابحاث الندوة العالمية الاولى لتاريخ العلوم عند العرب – جامعة حلب عام ١٩٧٦.

(١٠) حول ولادته وحياته انظر الدراسة التي قدمناها في العدد الاول من مجلة الاكليل اليمنية بعنوان " مصادر دراسة ابي محمد الهمداني " .

(١١) من حياة " اوحد الزمان ابي البركات هبة الله بن علي ملكا " انظر الصفحة ٣٧٤ وما بعدها من " عيون الانباء في طبقات الاطباء " لابن ابي اصيبعة .

(١٢) نص مأخوذ من دراسة العلامة شوقي ، بمجلة عاديات حلب .

(١٣) اجرى تيخو براهي سلسلة طويلة من الارصاد لدراسة اوضاع الكواكب السيارة دامت عدة سنوات وذلك في مرصده في جزيرة "هفن" قرب كوبنهاجن . وبعد وفاته درس مساعده الرياضي كبلر جداول براهي واكتشف قوانينه الثلاثة الشهيرة – أنظر على سبيل المثال " محاضرات فاينمان في الفيزياء " – الاول من القسم الاول ، الميكانيك ، الصفحة ١٨٥ وما بعدها . والموسوعة الدولية ، المجلد الثالث ، مادة (براهي) .

(١٤) لمزيد من التفاصيل حول حياة جاليليو ومحاكماته ومفهوم العطالة لديه أنظر :

"Relativity and Man" by V. Smilga

بين مؤتمري مراكش وصنعاء :

تقرير المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

تقرير المنظمة عما تم تنفيذه من برامج الاثار والمتاحف بين المؤتمر الثامن (المملكة المغربية : مراكش ١ – ٩ فبراير (شباط) ١٩٧٧) والمؤتمر التاسع (الجمهورية العربية اليمنية : صنعاء ٢٩ ربيع الاول – ٦ ربيع الاخر ١٤٠٠ – الموافق ١٦ – ٢٢ فبراير (شباط)

بوثيقتين منفصلتين .

أولا : اللجنة الدائمة للاثار والمتاحف :

عقدت اللجنة دورتها الثالثة في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية في مدينة سيئون (بالمحافظة الخامسة) في الفترة : ٨ – ١١/١٢/ ١٩٧٧ م .

كما عقدت دورتها الرابعة ، في الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية ، في مدينة بنغازي ، في الفترة : ١ – ١٩٧٩/١٠/٧.

وترفق المنظمة بهذا التقرير ، التوصيات الصادرة عن اللجنتين

ثانيا : الدورة التدريبية على الوسائل العلمية الحديثة المستخدمة في التنقيب عن الاثار :

تحقيقا للتوصية (ج ٤) التي قدمها المؤتمر الثامن للاثار والداعية " لان تهتم المنظمة بالدورات التدريبية في مجال التنقيب " ، والتوصية (د) الخاصة بالاساليب العلمية الحديثة واستخدامات التكنولوجيا في مسح الاثار ،

١ – أقيمت دورة تدريبية في الكرنك

في شهر فبراير ١٩٧٩ والتحق بها بعض المدربين من البلاد العربية .

٢ ـ أما دورة قرطاج فقد صادف موعد تنفيذها ظروف انتقال مقر المنظمة ، فأجلت عن الوقت الذى كانت تجرى فيه حفريات متعددة في منطقة قرطاج تسهم فيها الخبرات التونسية الى جانب البعثات الاجنبية .

وحرصا على انجاز هذه الدورة قبل نهاية سنة ١٩٧٩ أمكن الاحتفاظ بمواد تتعلق بالموضوع الاصلي الخاص بالتنقيب ، ووقع توجيه الدورة الى مواد الثقافة الاثرية عامة حتى يدرك المدربون آفاق العمل الاثرى ومناهجه وأساليبه . وعلى ذلك ضبطنا موضوعنا في اطار : " التعرف على مجالات العمل الاثرى والطرق المستخدمة فيه"

وتمت هذه الدورة في الفترة ما بين ٧٩/١١/١٢ و ٧٩/١٢/٢ ، وقد استجاب لها : الاردن ـ الامارات ـ (الشارقة ـ العين) ـ تونس ـ الجزائر ـ جيبوتي ـ السعودية ـ السودان ـ العراق ـ الكويت ـ ليبيا ـ اليمن الجنوبي ـ اليمن الشمالي . واعتذر عن الحضور كل من البحرين وسلطنة عمان .

٣ ـ أما دورة تلمسان فقد طلبت الجزائر تأجيلها الى الدورة القادمة ١٩٨١/١٩٨٠ وأدرجت في مشروعات برامج المنظمة لسنتي ١٩٨١/٨٠ .

ثالثا : ايفاد خبراء في الاثار الى بعض البلاد العربية :

قامت (ادارة الثقافة) بتوجيه تعميم الى جميع الدول العربية لتحديد حاجاتها من الخبراء في هذا الشأن ، مرة أخرى من مقرها الحالي في تونس ولم نتلق طلبا من أى قطر عربي سوى جمهورية موريتانيا الاسلامية .

وقد تعاقدت المنظمة مع خبيرين : أحدهما في الاثار ، والاخر في شؤون المخطوطات ، وسيتجهان الى هناك اثر انعقاد هذا المؤتمر مباشرة .

رابعا : مدونة النقوش اليمنية :

بدأ هذا المشروع مع ميزانية المنظمة لعامي ١٩٧٧/٧٦ في أثناء اللجنة الدائمة للاثار (الدورة الثالثة) بسيئون : ٨ ـ ١٢ نوفمبر (تشرين الثاني ١٩٧٧) . قدم الاستاذ الدكتور محمود الغول دراسة لهذا المشروع أوضحته بصورة كافية ، وشكلت لجنة لدراسة الموضوع من حيث ضمان الانجاز خلال سنوات معقولة .

وأوصت اللجنة الدائمة للاثار في أثناء دورتها الثالثة ، بأن تستمر المنظمة في دعم هذا المشروع لاهميته .

خلال المؤتمر الثامن للاثار (مراكش ١ ـ ٩ فبراير/شباط ١٩٧٩) تكونت لجنة استشارية للمدونة ، وكلفت

الاستاذ الدكتور محمود الغول الذى حضر هذه اللجنة ، بالشروع في وضع المادة العلمية اللازمة للمدونة ، وتجميعها ، ودراستها ، اعتبارا من أول مارس (آذار) ١٩٧٩ ، واتفق أن يتابع الدكتور الغول مهمته العلمية ، وفق نظام تشارك فيه كل من المنظمة والمركز اليمني للابحاث الثقافية والاثار في عدن بجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، وأن يكون انجاز هذه المدونة خطوة تعقبها دراسة اصدار مدونة في المستقبل ، لنقوش شبه الجزيرة العربية كلها . وقد رصدت ميزانية اتفاق لعامي (٧٦ - ١٩٧٧) قدرها ٢٠،٠٠٠ دولار أمريكي .

وفي الفترة ٣ - ٦ مارس (آذار) ١٩٧٩ تم عقد اجتماع حول المدوّنة في مدينة عدن وذلك بين مندوب عن المنظمة والمركز اليمني للابحاث الثقافية والاثار حضره الاستاذ الدكتور محمود الغول ، وتم التوصل الى خطة عمل للنهوض بالمشروع ، وأن يعقد اجتماعات آخران لمتابعة خطوات التنفيذ ، أحدهما في (عمان) بالاردن والاخر في (كمبردج) ببريطانيا وذلك قصد اصدار الكراس الاول من المدوّنة في دورة ١٩٨١/٨٠ ، على أن يتضمن الكراس الاتي :

١ - نقوش حضرمية :
(وهو عبارة عن رسالة ماجستير تقدم بها السيد الاستاذ عبد الله محمد باوزير ، الى جامعة باريس وقد اطلع عليها الاستاذ الدكتور محمود الغول وأقرّ بأنها مناسبة) .

٢ - نقوش عماقين وذى يزن :
(من النقوش السبأية)
من اعداد السيد الاستاذ محمد عبد القادر با فقيه .

٣ - نقوش قتبانية :
(من اعداد الاستاذ الدكتور محمود الغول) الذى وعد بأن تكون جاهزة قبل نهاية شهر أبريل (نيسان) ١٩٧٩ .

والحقيقة أن المركز اليمني للابحاث الثقافية والاثار في عدن ، بعد اصدار "ريدان" - حولية الاثار والنقوش اليمنية القديمة - العدد الاول ١٩٧٨ وما لقيه من رواج وتقدير ، كان متحمسا لاصدار "المدوّنة" ، ولكن ظروف انتقال المنظمة من القاهرة من جهة ، وحرص كل من المركز والاستاذ المشرف على اخراج عدد أول أقرب الى الكمال أدى بهما الى التفكير في اعادة النظر في المادة التي كان مقررا اصدارها فيه ، وقد نقل مشروع المدونة الى برامج المنظمة لعامي ١٩٨١/٨٠ بالميزانية المرصودة سلفا ، انتظارا في تحرك العمل في اصدار العدد الاول وقد لا ترى المنظمة الاستمرار في ادراج المشروع في برامجها بعد دورة ١٩٨١/٨٠ ، وتنقل ميزانيته الى الاحتياطي ، ان لم تتم أى تحرك فيه في أثناء هذه الدورة .

خامسا : الندوة الدولية عن الاثار الفلسطينية:

أوصى المؤتمر بما يلي :

١ – أن يتم تنظيم هذه الندوة بالتعاون بين المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وبين منظمة التحرير الفلسطينية .

٢ – اشراك منظمة اليونسكو في هذه الندوة ، تاكيدا لطابعها العلمي الدولي .

٣ – أن تدرج المنظمة (الكسو) في ميزانيتها لعامي ١٩٧٩/٧٨ الاعتمادات المالية اللازمة لهذه الندوة .

٤ – اعتبار اللجنة الثالثة المنبثقة عن هذا المؤتمر (الثامن للاثار) لجنة تحضيرية لهذه الندوة ، واعتماد التوصيات التي وردت في التقرير الصادر عنها فيما يتعلق بموضوعات الندوة ، ومدتها ، وموعدها ، ومكان انعقادها ، والشخصيات والمؤسسات التي تدعى لحضورها .

وتنفيذا لما أوصي أعلاه :

١ – عقدت اللجنة التحضيرية لهذه الندوة اجتماعها الاول في جامعة حلب بسوريا (٢٩ – ٣٠ يوليو (تموز) ١٩٧٩) بدعوة من المنظمة (الكسو) ودائرة التربية والتعليم العالي في منظمة التحرير الفلسطينية ، برئاسة الاستاذ الدكتور محمد علي حورية ، رئيس جامعة حلب .

٢ – تم تحديد النقاط التالية :

– اعداد قائمة المشاركين في الندوة .
– تاريخ عقد الندوة ومدتها .
– شعار الندوة .
– اللغات المتداولة فيها .

٣ – عقدت اللجنة اجتماعا آخر في حلب في أواخر شهر نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٩ ، لمتابعة الاعداد للندوة ، وتكليف الباحثين .

٤ – وجهت الدعوات الى الاساتذة الخبراء العرب باسم المدير العام بتاريخ ١٩٧٩/١٢/١٤ ووجهت دعوات مماثلة الى الخبراء الاجانب .

٥ – طبعت جامعة حلب مطوية تعريفية بالندوة وأرفقتها بالدعوات التي وجهت الى المشاركين في الندوة باسم رئيس جامعة حلب ورئيس اللجنة التحضيرية وتتضمن هذه الدعوات معلومات تفصيلية وفنية عن الندوة .

٦ – وجهت الدعوة الى ٢٧ أستاذا عربيا و ٢٠ أستاذا اجنبيا والى الجامعات العربية والى ١٢ من المعاهد والمؤسسات والمنظمات الدولية .

٧ – ستعقد الندوة في رحاب جامعة حلب في شهر سبتمبر ١٩٨٠ ، وقد أعد برنامج الندوة وأرسلت الدعوات للمشاركين فيها من عرب واجانب .

سادسا : اصدار كتاب "الاثار الفلسطينية" :

أوصى المؤتمر بما يلي :

١ – اعتماد ما أوصت به اللجنة الثالثة

المنبثقة عنه وما اقترحته بشأن هذا الكتاب ، والتي تتناول : تحريره ، وموضوعاته ، واعداد مادته .

٢ – تتابع المنظمة (ألكسو) اتصالاتها بحكومة المملكة العربية السعودية للحصول منها على موافقة رسمية بالصرف على الكتاب ومعرفة قيمة اسهامها لادراج ما قد يحتاج الكتاب من نفقات اضافية في ميزانيتها لعامي ١٩٧٩/٧٨ .

١) عقدت لجنة تحضيرية لتاليف الكتاب ، وذلك بمقر دائرة التربية والتعليم العالي بمنظمة التحرير الفلسطينية في شهر أغسطس ١٩٧٨ (دمشق) .
٢) كلف الباحثون المعنيون بوضع فصول الكتاب .

سابعا : دعم مؤسسة ماكس فان برشيم بسويسرا ١٩٧٨ :

أوفدت المنظمة خبيرا الى هذه المؤسسة لدراسة محتويات مكتبتها ، وأهمية هذه المحتويات ، وذلك لتقرير مبدأ الدعم للمؤسسة أو عدمه في ضوء تقرير الخبير .

استعرض الخبير محتويات الاقسام في مؤسسة ماكس فان برشيم التي تضم قسم الرسائل ، وقسم الصور ، ومواد الدراسات الاثرية التاريخية المخطوطة وقسم الكتابات المطبوعة طبعا مجسما على الورق .

ثم انتهى الى القول :

" انه مع اقتناعي بأن هذه المؤسسة تحاط بأهمية مبالغ فيها ، وأن ليس من مهمتنا أن ننساق عن غفلة لدعم بقايا عمل استنفد مهمته وخرج أكثره الى الناس ، وان في العالم العربي العديد من الاعمال العربية المتميزة تقبع في كهوف النسيان ، وتحيطها بالعقوق الشديد .

ان القيمه الحقيقية لهذه المؤسسة أنها ليست أكثر من متحف للاعمال ، وبطاقات العالم فان برشم ، وان هدف السيدة ابنته في العرب هدف مادى مع حصرها المشاركة العلمية على غير العرب " .

ويضيف الخبير :

أ – تتأكد الملاحظة أن السيدة مارغور مارغوريت فان برشيم ابنة العالم السويسرى ذات نشأة بورجوازية تعاطت فيها العمل الاثرى ، وكتبت بعض البحوث عن فسيفساء جامع دمشق ، وأجرت حفرية قديمة بسدراتة من بلاد الجزائر ، لا نعلم شيئا عن الظروف التي سمح لها بها الفرنسيون بالقيام بذلك ، ثم توقفت ، ولم تصنع لنفسها مجدا علميا تستند اليه ، ويلاحظ أنها تتخذ في مشروعها هذا وجهة مزدوجة تسترعي الاهتمام .

ب – فعلى الصعيد العلمي الخالص تتجه الى المؤسسات الغربية تستمد منها العون والدعم لتحفظ لمؤسستها اطار المجد الاستشراقي كما كان في طليعة هذا القرن ، ويلاحظ ذلك في اتجاهها الى عون مركز النقائش

العربية بالمعهد التطبيقي للدراسات العليا بباريس (القسم الرابع) ، والى الاشخاص الذين عهد اليهم ببحوث منطلقة من رصيد المؤسسة (أنظر نشرة المؤسسة ، جنيف ١٩٧٦) . وكلهم أوروبيون .

حـ - على حين تبدو علاقتها مع العالم العربي علاقة استفادة وبحث على الدعم المالي ، دون أن تنزل هذا العالم العربي منزلة المشاركة والتقدير المباشر لعلمائه الذين أصبحوا على رأس اختصاصات كان الغرب المستعمر يوقفها حكرا عليه .

د - ولقد استفدت من المصادر الموثوقة أن مقدار المنح التي تلقتها بعد حملتها الدعائية لفائدة مؤسستها وجولاتها واتصالاتها وتأثيراتها على بعض السفراء العرب كانت كالتالي : (هذا الى شهر نوفمبر /تشرين الثاني ١٩٧٧)

- ٢٧٠ ألف فرنك سويسري من المملكة العربية السعودية .
- ٢٠٠ ألف فرنك سويسري من الاعلام العربي عن طريق السيد أكرم ديري .
- ٧٠٠ ألف فرنك سويسري من رجال أعمال عرب .

هذا عدا المبالغ التي لم تصل أخبارها والمتوقع أن تكون أكثر من الاحتياجات الحقيقية للمؤسسة .

ان الاطار العام في مجال البحث الفلسطيني في اسرائيل واستفاقتها المتأخرة على جهدهم تجعل من الرأي ألا تركب القطار وهو يمشي ، بل علينا وعلى اخواننا الفلسطينيين أن نقوم بخطة طويلة المدى تهدف الى تطهير هذا العمل ودعمه بتجريد كل النصوص ذات الصبغة التوثيقية والمودعة في طيات المصادر العربية وغيرها لنقدم عملا محترما لائقا جديرا باحترام كل مراكز العلم . وأعتقد أنه من المؤكد أن يحال هذا المقترح الى لجنة فلسطينية فتنظر فيه ، وتأخذ برأي واضح ومستند الى أسس صحيحة .

ويتساءل الخبير :

- ما هي الاعمال المحددة التي يجب أن ندعمها؟
- ماذا يترتب لنا من حقوق بهذه المؤسسة ؟
- لاى مدى يجب أن نمضي في هذه القضية ؟

ففي صورة تحقيق دعمنا الرسمي لها من الطبيعي أن يكون للجانب العربي تمثيل في مجلس الادارة ويدعى بانتظام . وقد علمت أن الدكتور عبد الله حسن مصري ، مدير آثار المملكة السعودية ، وعضو مجلس الادارة ، لم يدع للحضور .

كما يجب أن يوجد الجانب العربي في المجلس العلمي بشكل متوازن ويسهم في التخطيط ووضع الميزانية

ومراقبتها. وأن تحمل المطبوعات الصادرة عن المؤسسة ما يشير الى اسهام المنظمة في دعمها ومشاريعها.

ويمكن هنا أن نجيب عن السؤال الثالث : " الى أى مدى يجب أن نمضي في هذا الدعم ؟"

سبق أن أشرت الى دور السفراء العرب الذين كثفوا الضجة حول هذا الموضوع ، والى الحملات المركزة التي قامت بها السيدة فان برشيم نفسها ، ولقد أشرت الى القيمة الحقيقية لرصيد هذه المؤسسة ، التي ليست اكثر من متحف لاعمال فان برشيم وبطاقاته . كما اشرت الى هدف السيدة ابنته من اتصالها بالعرب ووقف المشاركات العلمية على غيرهم

وكل هذا يجعل المنظمة باعتبارها التعبير الرسمي عن العمل الثقافي المشترك والواعي في موقف يقظ بالمسوءولية ، وبعيد عن الغفلة ، وأن تتخذ ما يأتي :

– اما ان نوجد بالشروط التي سبق الاشارة اليها ، وأن نسهم اسهاما نسبيا في اعداد الاعمال المحددة ، واني أستبعد ان تقبل السيدة مارغوريت فان برشيم بذلك .

– واما أن نقدم عونا ماديا محدودا لمرة واحدة ، وبذلك نحد من طبع هذه المشروعات التي يحتاجها العرب انفسهم .

ثامنا : جائزة أحسن فيلم تسجيلي عن الاثار الاسلامية :

اوصت اللجنة الدائمة للاثار والمتاحف : في دورتها الثالثة المنعقدة بسيئون (جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية: ٨ – ١٢/١١/ ١٩٧٧) أن تقدم في أثناء انعقاد موءتمر الاثار التاسع بصنعاء جائزة لاحسن فيلم تسجيلي عن الاثار الاسلامية.

وفي وثيقة مصاحبة من وثائق موءتمرنا هذا ، رصدت المنظمة كل الترتيبات الخاصة بهذا الشأن ، وما أسهمت به الدول العربية في هذا المجال واقتراح المنظمة الطريقة التي توجه بها الجائزة .

تاسعا : التراث العلمي

تاسعا : التراث العلمي عند العرب :

أتم الدكتور ميشيل الخورى تحقيق كتاب " التيسير في المداورة والتدبير" لابن زهر ، والكتاب بصدد الطبع . كما أتم الدكتور سلمان قطاية اعداد دراسة عن علي بن رضوان ، أحد كبار أطباء مصر .

عاشرا : صيانة مدينة القيروان :

تنفيذا لقرار الموءتمر العام في دورته الاولى ، غير العادية ، المنعقدة بالخرطوم (٢٩/٧– ١٩٧٨/٨/٢) التوصية خامسا ، بدعوة المدير العام الى تبني حملة قومية عربية اسلامية

لصيانة مدينة القيروان وافتتاح هذه الحملة باسم المنظمة ،

وتطبيقا لقرار المجلس التنفيذى ، في دورته الحادية والعشرين (تونس ٨ – ٧٩/٧/١٥ – قرار : مت /د ٢١/ق ٩ (ك) حول الموضوع نفسه ،

فمن بين وثائق هذا المؤتمر ثلاث : في مجال ما نفذ بهذا الصدد :

١ – النداء الذى وجهه الاستاذ الدكتور محيي الدين صابر ، المدير العام للمنظمة ، من جامع عقبة بن نافع في القيروان لصيانة المدينة وتراثها.

٢ – خطبة السيد احمد مختار امبو ، المدير العام لمنظمة الامم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) .

٣ – الحملة العربية الاسلامية لصيانة القيروان : الوثيقة التي تبين ما تم تنفيذه من خطوات في هذا المجال ، وذلك في بيان صيغة التعاون بين الحكومة التونسية والمنظمة.

حادى عشر: المؤتمر التاسع للاثار في البلاد العربية :

اقترح الموضوع الرئيسي للمؤتمر التاسع للاثار في الدورة الثانية للجنة الدائمة للاثار والمتاحف بالبتراء (الاردن – اكتوبر ١٩٧٦) ليكون "الاثار الاسلامية في البلاد العربية " ورات اللجنة أن يعمل هذا المؤتمر على اثارة الاهتمام بالاثار الاسلامية والدعوة الى نظرة متكاملة لدراستها .

وقد استجاب المؤتمر الثامن للاثار (مراكش – فبراير ١٩٧٧) للدعوة الكريمة التي قدمها باسم حكومة جمهورية اليمن العربية القاضي اسماعيل الاكوع رئيس الوفد وسجل شكره للحكومة اليمنية تقديرا لهذه المبادرة . وتحدد موعده لسنة ١٩٧٩ .

ونظرت اللجنة الدائمة للاثار والمتاحف في اجتماعها الثالث بسيئون (نوفمبر ١٩٧٧) في عناصر الموضوع ، وعدلت الموعد ليكون في شهر سبتمبر ١٩٧٩ ليأتي في موعده الجديد مظهرا من مظاهر الاحتفاء بمرور أربعة عشر قرنا على الهجـــرة الشريفة .

وتولت اللجنة نفسها في دورتها الرابعة ببنغازى (اكتوبر ١٩٧٨: الوثيقة : ٩/ل ا/د ٤) تقديم مذكرة تضمنت موافقة المؤتمر العام على عقد المؤتمر وموعده الذى أقرته اللجنة في اجتماع سيئون .

وقد عممت المنظمة الدعوة الى الدول الاعضاء لحضور المؤتمر وتشكيل وفودها من العناصر المتخصصة والمختصة بالاثار الاسلامية .

ودعت المنظمة الى :

أ) المشاركة في معرض صور الاثار الاسلامية في ثلاثين لوحة من كل دولة (مقاس ٤٩ × ٦٠ سنتمتر) وذلك في

حدود المواصفات التى أشارت بها اللجنة في سيئون .

ب) الاشتراك بفيلم تسجيلي عن الاثار الاسلامية اسهاما في التعريف بالجهود العربية المبذولة ، وقد خصصت جائزة تشجيعية لذلك .

ورغم ما حدث بعد ذلك من ظروف انتقال مقر المنظمة الى تونس فقد جدت المنظمة فى عقد المؤتمر في موعده الا أن ظروفا طارئة دعت الدولة المضيفة الى طلب تأجيله لفترة قصيرة . وهو يتحقق الان بفضل جهدكم وعزمكم .

مطالعة تاريخيّة:

على هامش كتاب «المعتمد في الأدوية»

د. نوال نحلاوي
كلية الطب - جامعة دمشق

يعود نسب بني رسول الى جبلة بن الايهم آخر ملوك غسان في الجاهلية الذى ادرك الاسلام ايام عمر بن الخطاب ثم ارتد والتحق بالروم في قصة مشهورة وكتب علي بن الحسن الخزرجي في صفحة (٢٦ -٢٧) من " العقود اللوءلوءية في تاريخ الدولة الرسولية" فقال " كان اسم رسول " محمد بن هارون بن ابي الفتح بن يوحىٰ بن رستم وهو من ذرية جبلة بن الايهم بن الحارث بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن عمر بن جفنة بن عمر ومزيقياء ابن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس البطريق بن ثعلبة البهلول بن مازن زاد السفر ويسمى قاتل الجوع ايضا ابن الازد بن الغوث بن نبت بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان " .

لما تنصر جبلة بن الايهم لحق بالروم وبقي هناك الى ان توفي قيل وهو متنصر وقيل على الاسلام . لانه كما يقال ندم على ارتداده وكتب قصيدة قال في اولها :

" تنصرت الاشراف من اجل لطمة " . فلما مات اقام ولده من بعده في بلاد الروم اما ابن الابن فقد انتقل ومن انضم اليه من قومه الى بلاد التركمان حيث سكنوا هناك مع قبيلة من اشرف قبائل التركمان وعندما ذهبوا الى العراق نسبهم من يعرفهم الى غسان ومن لا يعرفهم الى التركمان . وكان محمد بن هارون جليل القدر فيهم فادناه الخليفة العباسي وآنس به واختصه بنقل رسالته الى الشام ومصر . فاطلق عليه اسم رسول واشتهر به وترك اسمه الحقيقي حتى جهل فلا يعرفه الا القليل من الناس

ثم انتقل مع اولاده من العراق الى الشام ومن الشام الى مصر وهناك اجمع بنو ايوب على تسييرهم الى اليمن في صحبة تورانشاه بن ايوب بعد ان استحلفهم اخوه الناصر يوسف بن ايوب ، واوصاهم بحسن صحبته وخدمته ، وكانوا خمسة رجال هم :

١ ـ شمس الدين بن علي بن رسول
٢ ـ بدر الدين الحسن بن علي بن رسول
٣ ـ نور الدين عمر بن علي بن رسول
٤ ـ فخر الدين ابو بكر بن علي بن رسول
٥ ـ شرف الدين موسى بن علي بن رسول .

يدل قول الخزرجي على ان بني رسول هم يمنيو الاصل ويؤيده في ذلك صالح بن الحامد العلوى فقد كتب في " تاريخ حضر موت " ص ٥٤٧ ، عن الملك المظفر الرسولي " هذا هو الملك الثاني من ملوك الرسوليين وهو المظفر يوسف بن الملك المنصور عمر بن علي بن رسول الغساني الجفني"

وكذلك الزركلي في اعلامه ص ١٢٨ الجزء السابع فانه يقول : " محمد بن هارون بن ابي الفتح بن يوحى من ذرية جبلة بن الايهم الغساني جد الامراء بني الرسول واصحاب اليمن واليه نسبتهم وكان آباؤه قد سكنوا بلاد التركمان ولما نشا ادناه الخليفة العباس واختصه برسالته الى الشام ومصر فانطلق عليه لقب رسول ثم انتقل باهله من العراق الى الشام ومنها الى مصر فمات فيها وكان جليل القدر عالي الهمة " .

اما الاستاذ عبد الله الحبشي في كتابه " حياة الادب اليمني في عصر بني رسول " فهو لم يشر الى التمهيد الى اصل الرسوليين وانما اكتفى بذكر كيف استولوا على حكم اليمن ، بينما يذكر في الصفحة ٢٣ من الكتاب المذكور وتحت عنوان " الدولة الرسولية بين يدى التاريخ " ، " الا ان مؤسس الدولة الرسولية عمر بن علي الرسولي كان لايزال مشبعا بالفكرة الايوبية اذ كان هو نفسه احد القادمين الى اليمن وقد كان منهج اسلافه في الاعتماد على غير القوى الوطنية " . وجاء في مكان آخر من نفس الصفحة :

" وافرطت الدولة في ذلك حتى اصبح اعداؤها يطلقون عليهم دولة التركمان ولم يغن عنهم قولهم في الانتساب الى الغساسنة اليمنيين " .

وعلى غرار ما كتب الاستاذ الحبشي جاء في دائرة المعارف الاسلامية الجزء العاشر ، صفحة "١٠١" تحت عنوان " رسول" " وفدت اسرة بني رسول الى اليمن مع تورانشاه الفاتح الايوبي والراجح ان رسولا كان من التركمان ولو ان ثمة قولا يصل نسبه بامراء غسان ولقد لقب بهذا لان خليفة من الخلفاء اتخذه رسولا " .

كيف توصلوا الى حكم اليمن ؟

قدم الرجال الخمسة مع تورانشاه الى اليمن عام ٥٦٩ هـ فاقام تورانشاه عاما ثم رجع الى مصر سنة ٥٧١ هـ بعد ان ترك في اليمن نوابا له يحملون خراج اليمن كل عام . وعندما توفي في سنة ٥٧٦ هـ اختلف النواب فيما بينهم واستاثر كل منهم بما تحت يده . فارسل الملك الناصر اخاه طغتكين بن ايوب الذى دخل اليمن سنة ٥٧٦ هـ واقام فيها حتى وفاته سنة ٥٩٣ هـ وبعد وفاته تولى ابنه المعز اسماعيل بن طغتكين بن ايوب الذى توفي مقتولا بيد الاكراد سنة ٥٩٨ هـ فتولى بعده اخوه الناصر ايوب بن طغتكين بن ايوب ولكنه توفي مسموما سنة (٦١٠ هـ) وقال الجندى سنة (٦١١) ثم تولى

اليمن الملك المسعود صلاح الدين يوسف ابن الملك الكامل محمد بن الملك العادل ابى بكر بن ايوب سنة (٦١٢) وبعث الملك العادل ابو بكر بن ايوب ملك مصر حينئذ الى شمس الدين علي بن رسول الى سائر الامراء المصريين في اليمن يأمرهم بحسن صحبته والقيام بما يجب من خدمته . وكان قد قدم قبل الملك المسعود بعد وفاة الناصر سليمان ابن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب المعروف بالصوفي ومعه جماعة في زى الصوفية فاستدعته ام الناصر وكانت في حصن تعز وقالت له " نخشى ان يطمع فينا العرب ونحن نساء فقم بملك ابن عمك " وكان ضعيفا لادراية له بالحكم فانصرف الى اللهو والشراب حتى اهتز الملك واستولى المنصور عبد الله بن حمزة على صنعاء وذمار وعندما وصل الملك المسعود زبيد سنة ٦١٢ هـ بعث الى سليمان تقي الدين يخاطبه بالصلح على ان تكون الجبال لسليمان والتهائم للمسعود . عندما سمع بذلك الامير بدر الدين الحسن بن علي بن رسول نزل الى الملك المسعود وحثه على الطلوع الى تعز فطلع وحط على حصن تعز ولقيه عساكر اليمن باسرها فقال له الامير بدر الدين اكتب الى الجند الذين هم في حصن تعز كتابا تقول فيه (اقسم بالله تعالى لئن لم تمسكوا سليمان تقي الدين لأصبتم مني عاقبة) عندما وصل كتابه الى الجند نهضوا الى سليمان بن تقي الدين فاغلقوا باب المجلس عليه وارسلوا الى الملك المسعود يعلموه بذلك فارسل نائبه الذى امسك سليمان وقيده ثم ذهب الى حصن تعز سنة (٦١٢ هـ) واستولى على اليمن باسره . بينما ارسل سليمان بن تقي الدين الى مصر مقيدا .

اما شمس الدين علي بن رسول واولاده فقد ظلوا مقيمين في اليمن مع بني ايوب على احسن سيرة وقد توفي شمس الدين سنة ٦١٤ هـ . وفي سنة ٦١٢ هـ ارسل الملك المسعود الاتابك جمال الدين فليتا لمحاربة الامام المنصور عبد الله بن حمزة واسترجاع صنعاء فقامت الحرب ولم يزل حتى توفي الامام المنصور سنة ٦١٤ هـ والاتابك ايضا مات في نفس العام بعد وفاة الامام المنصور بعدة اشهر . عندها خرج الملك المسعود الى صنعاء ودخلها وتسلم حصن الكوكبان واصطلح مع الاشراف وعندما رجع الى اليمن في نفس العام ولى الامير بدر الدين صنعاء وجعلها اقطاعا له وولى الامير نور الدين عمر الحصون الوصابية فاقام فيها مدة ثم ولاه مكة فاقام فيها وخلال فترة ولايته ولد ابنه يوسف بن عمر سنة ٦١٩ هـ . ثم نقله من ولاية مكة وجعله اتابكه ومتولى امر عساكره واموره كلها وفي سنة ٦٢٠ هـ وبعد ان استقرت الاحوال وهدأت الحروب والفتن رحل الملك المسعود الى مصر وترك في اليمن نور الدين عمر بن علي بن رسول نائبا نيابة عامة وترك اخاه بدر الدين في صنعاء خاصة . وبعد سفره قامت عدة فتن عندما سمع بها الملك المسعود رجع الى اليمن ودخل حصن تعز سنة (٦٢٤ هـ) وقبض على الامير بدر الدين حسن بن علي وفخر الدين ابا بكر بن علي وشرف الدين موسى بن علي وقيدهم واودعهم السجن ويقال انه قبض ايضا على نور الدين عمر ثم اطلقه وكان يأنس به لذلك استعان به في سفرته الاولى والثانية وجعله اتابكا بينما ارسل اخوته مقيدين الى عدن ثم الى مصر .

وفي سنة (٥٢٦ هـ) عزم الملك المسعود على العودة الى مصر فاستدعى اتابكه نور الدين عمر وقال له " قد عزمت على السفر وقد جعلتك نائبي في اليمن " ثم سافر من اليمن وكان مريضا وعندما وصل مكة اشتد به المرض فاقام في مكة اياما ثم توفي . ولما علم الامير نور الدين بموته اضمر الاستقلال بالملك واظهر انه مازال نائبا للمسعود ولم يغير سكه

ولا خطه وجعل يولي في الحصون والمدن من يرتضيه ويثق به ويعزل من يخشاه ومن ظهر منه عصيانا . ثم بدأ يستولي على الحصون والمدن حتى دانت له اليمن وفي عام ٦٣٠ هـ امر بضرب السكه على اسمه وامر الخطباء ان يخطبوا باسمه في سائر اقطار اليمن .

وهكذا بدأ حكم الرسوليين في اليمن والذى استمر حتى عام ٨٥٨ هـ اى حوالي ٢٣٢ عاما عاشت خلاله اليمن فترة من الاستقرار واسست خلال هذا الحكم دولة نظامية رفعت من شأن اليمن بين الاقطار المجاورة . فقد نشطت السياسة الخارجية وتوالت الوفود من قبل الحكومات القريبة والبعيدة تطلب ود المملكة اليمنية فجاءت الرسل من ملك الحجاز ومصر وبغداد والهند ومن ملك الصين كما ان العلاقات بين اليمن وجاراتها كانت حسنة فتقدمت التجارة وادى ذلك الى فتح الموانيء لاستقبال التجار من مختلف الجنسيات حتى اصبحت البلاد مقصدا لكل مرتاد (١) .

اما في الداخل فقد شهدت البلاد نهضة عمرانية ضخمة لم تعرفها اليمن في اى عصر من العصور السابقة حيث بنيت فيها المدارس الكبيرة فقد بلغ عدد المدارس التي بنيت في عهدهم ما ينوف عن اربعين مدرسة عرفت كل العلوم الاسلامية على مختلف انواعها كالعلوم الشرعية واللغوية والادبية وشهدت تلك المدارس دراسات خاصة في علم الفلك والطب والحساب والمنطق وكان يقوم على التدريس اساتذة من اهل اليمن ومن غيره . وكان الاساتذة يتقاضون مرتبات سنوية وشهرية تقتطع من اوقاف المدارس وغالبا ما تكون عينية ونقدية تدفع من خزانة الدولة كما اسسوا المرافق العامة وبنوا المساجد والقصور الفخمة ومن اهم القصور التي بنيت قصر

المعلّق " الذى اجمع ارباب اختراق الافاق انه لامثيل له في شام ولا عراق .. الخ . "

الخزرجي ج١ صفحة ٣٣٧

وبلغ عدد القصور التي بنتها الدولة الرسولية حوالى ٢٣٠ قصرا كما بنت بيوتا خاصة تعنى باستقبال الضيوف كالدار التي انشأها المظفر لاطعام الواردين " وقد انتشر العلم في عصر بني رسول وقوى شأنه اصبح له مراكز كثيرة يؤمها الطلبة من كل صوب بل اصبحت مدينة زبيد ثالثة المدن العلمية في جزيرة العرب وكان لتشجيع ملوك الدولة الرسولية للعلماء اثر في احياء تلك النهضة الفكرية الكبيرة في اليمن ومنهم من تشرب بحب العلم وساهم فيه بالعديد من المصنفات كالملك المظفر يوسف المتوفي سنة (٦٩٤ هـ) والذى صنف علم الفلك والطب كتبا كثيرة منها كتاب (تيسير المطالب في تيسير الكواكب)و(المخترع في فنون الصنع)و(العقد النفيس في مفاكهة الجليس)وغيره من الكتب " الحبشي ص ٦٠ وجاء في كتاب الاعلام للزركلي الجزء ((٨)) ص ٢٤٣ عن الملك المظفر " وكانت له عناية بالاطلاع على كتب الطب ومعرفة الحديث مصنف (المعتمد في الادوية المفردة ط) و(المخترع في فنون الصنع خ) و(العقد النفيس في مفاكهة الجليس خ) في خزانة مجلس الشورى الوطني بطهران " كما في مجلة معهد المخطوطات ٣ : ٣١ " و(البيان في كشف علم الطب للعيان خ) مجلدان ضخمان رأيتهما في خزانة عبيكان بالطائف وجمع لنفسه اربعين حديثا كما يقول ابن الكثير) " بينما صنف ابنه الاشرف عمر بن يوسف المتوفى سنة ٦٩٦ كتابا في (الاسطرلاب) وكتاب (التبصرة في علم النجوم) وكتاب (الجامع في الطب) و(المعتمد في الادوية المفردة) و(طرفة الاصحاب وتحفة الاداب في

الانساب) وغير ذلك من الكتب " .
عبد الله الحبشي صفحة ٦٠

اما في اعلام الزركلي الجزء الخامس صفحة ٦٩ فوردت الكتب التالية :
" كان عالما فاضلا حسن السيرة اكثر من الاطلاع على كتب الانساب والطب والفلك وانتدبه ابوه المظفر للمهمات ثم نزل له عن الملك قبيل وفاته سنة ٦٩٤ فاستمر قرابة سنتين وتوفي بتعز . له كتب منها (الاسطر لاب ــ ط) و (طرفة الاصحاب في معرفة الانساب ط) و (المعتمد في مفردات الطب خ) و (التبصرة في علم النجوم خ) و (المغني في البيطرة خ) " .

وجاء في كتاب الحبشي ايضا .

" اما اخوه المؤيد علي بن داوود المتوفي سنة ٧٦٤ اهتم بوجه خاص بطب الحيوان فألف (كتاب الاقوال الكافية والفصول الشافية) بحث فيه الوباء العام الذي وقع في اليمن في عصره واهلك الكثير من خيول الدولة والف الملك الافضل عباس بن علي المتوفي سنة ٧٧٨ مصنفات في عدة علوم كعلم السياسة وصنف فيه كتاب (نزهة الظرفاء وتحفة الخلفاء) وهو صنف على فصول وفي علم الزراعة وضع كتابا عنوانه (بغية الفلاحين في الاشجار المثمرة والرياحين) ووضع في علم التاريخ عدة كتب جيدة ككتابه (العطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية) وكتاب (نزهة العيون في طوائف القرون) وفي الانساب كتاب (بغية ذوى الهمم في معرفة انساب العرب والعجم) وغيره .
الحبشي صفحة ٦٠

ويقول الحبشي ان هناك من المؤرخين من يشكك في نسبة تلك الكتب الى الملك الفاضل ويزعم انها من تأليف قاضي تعز الفقيه ابي بكر بن محمد ابن يوسف الصبرى وضعها على لسان الملك الافضل اما مصدره في ذلك الكلام فهو الفاسي في العقد الثمين في تاريخ البلد الامين الجزء الخامس صفحة ٩٦ .

مما تقدم تبين لنا اهتمام بني رسول بالاقبال على العلوم والاشتغال بها فكتبوا في الطب والفلك والبيطرة والزراعة والسياسة والانساب وغيرها من المواضيع العلمية كما شجعوا على انتهال العلم وقد بلغ من حرصهم على العلم ان يتفرغوا هم انفسهم للدراسة على يد فقهاء اليمن كالملك المظفر الذى قرأ الحديث على الفقيه محمد بن اسماعيل الحضرمي وعلى الفقيه محمد بن ابراهيم الفشلي وعلى الفقيه محب الدين الطبرى وفي علم النحو على الفقيه ابن العمك وعلى الفقيه محمد بن عبدالله الريمي الذي يقول (طالعت كتب الملك المظفر فوجدتها كلها مضبوطة بخطه حتى من رآها يقول لم يكن له شغل طوال عمره الا العلم) بل بلغ الامر بالملك المظفر ان يبعث الى خرسان برساله للبحث عن النسخة الاصلية من تفسير القرآن للامام الرازى بسبب وجود نقص في نسخته عندما ظفر بها وجد بها نفس النقص كما كانوا يحرصون على مجالس العلم والمشاركة فيها حتى انهم جعلوا من شهر رمضان بعد الافطار خاصاً بمقابلات العلماء والاجتماع بهم .

وقد شجعت الدولة الرسولية العلماء واكرمتهم فقد كرمت الدولة الرسولية الفقيه العلامة محمد بن عبد الله الريمي على موسوعته الفقهية (التفقيه شرح التنبيه) كوفيء عليها بمائة واربعين الف درهم ويقال انه اول ما دخل على الملك المجاهد اعطاه اربعة شخوص ذهبية وزن كل منها مائة مثقال (   ) كما كافأ الاشراف الفيروز آبادى على كتابه الاصعاد في الاجتهاد بثلاثة آلاف دينار .

وكان ملوك الدولة الرسولية يرغبون في العلماء ولا يسمحون لهم بالسفر من اليمن " العقود اللوءلوءية " الجزء الثاني صفحة ٢٩٧

ومن اشهر من عرف الطب منهم اثنين الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول وابنه الاشرف عمر بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول .

وجاء في (العقود اللوءلوءية) للخزرجي الجزء الاول ص ٢٧٨ انه " لما افتتح الملك المظفر مدينة ظفار ذكر في كتابه الى الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر انه يحتاج الى طبيب لمدينة ظفار لانها وبئة وقال : ولا يظن المقام العالي انا نريد الطبيب لانفسنا فانا نعرف بحمد الله من الطب ما لا يعرفه غيرنا وقد اشتغلنا فيه من ايام الشبيبة اشتغالا كثيرا وولدنا عمر الاشرف من العلماء بالطب وله كتاب الجامع ليس لاحد مثله "

نسب البعض كتاب المعتمد في الادوية المفردة الى الملك المظفر بينما نسبه البعض الاخر لابنه الاشرف . فقد ذكره الاستاذ عبد الله الحبشي من بين كتب الاشرف اما الزركلي فقد ذكره مع ترجمة كل منهما تحت اسم المعتمد في الادوية المفردة في ترجمة الملك المظفر . وتحت اسم المعتمد في مفردات الطب في ترجمة الاشرف . وقد كتب في فهرس ترجمة الاشرف " وعلق احمد عبيد على كتابه (المعتمد في مفردات الطب) بانه طبع منسوبا الى ابيه يوسف بن عمر والارجح ما هنا "

اما الكتاب المطبوع للمعتمد في الادوية المفردة بين يدي . هو الطبعة الثالثة عن دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان تمت عام (١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م) وقد قام بتصحيحه وفهرسته الاستاذ مصطفى السقا . الاستاذ بجامعة فوءاد الاول . اما الموءلف فقد كتب على الغلاف .. تاليف الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول الغساني التركماني صاحب اليمن المتوفي سنة ٦٩٤ هـ تمت الطبعتان الاولى والثانية لكتاب المعتمد عن شركة آل الحلبي فقد جاء في المقدمة " هذه الطبعة الثانية من كتاب المعتمد في الادوية المفردة تدبعها بين رواد النفائس القديمة شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي واولاده بالقاهرة . وصدرت الطبعة الاولى منه سنة ١٣٢٧ هـ عن شركة آل الحلبي " .

وقد اعتمد في ظهور الطبعة الثالثة على الطبعة الثانية بمقارنتها مع النسختين للمعتمد الموجودتين بدار الكتب المصرية والمرقومتين ٨٨ : ١٣٠ طب وجاء بالمقدمة صفحة (د)

" وقد عارضت الطبعة الاخيرة من المعتمد على هاتين النسختين واصلحت كثيرا من مواضع الخلل التي تبينت لي مستعينا على ذلك بالجامع لابن البيطار والمناهج لابن جزلة ، وغيرهما من مراجع المادة . كالقانون لابن سينا ونهاية الارب للنويرى (١١ – ١٢) وتذكرة الالباب للشيخ داوود الانطاكي . وبمعاجم اللغة : كالمخصص لابن سيده ، والقاموس المحيط للفيروز آبادى ، وتاج العروس للزبيدى ومعجم اسماء النبات للمرحوم احمد عيسى بك " .

اما الطبعة الاولى للكتاب فيعتقد الاستاذ مصطفى السقا انها منقولة ايضا عن المخطوطتين المحفوظتين بدار الكتب المصرية والسابق ذكرهما .

من هو موءلف كتاب المعتمد ؟

هو الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول

الغساني اعظم ملوك الدولة الرسولية التي حكمت اليمن من عام ٦٢٦ – ٨٥٨ هـ وهو ثاني ملوك بني رسول ولد عام ٦١٩ هـ في مدينة مكة لذلك سمي بالمكي تسلم الحكم بعد مقتل ابيه عمر بن علي عام ٦٤٧ هـ . وتوفي عام ٦٩٤ .

كان سياسيا بارعا وقائدا شجاعا وعالما يحب العلم والعلماء فقد تفقه وتأدب على ايدي عدد من الفقهاء كما جاء سابقا وقد اطلع على معظم الكتب كما انه الف كتبا في الطب والفنون وعلم الفلك وغيرها كما ذكرنا وقد وصفه الخزرجي في كتابه " العقود اللوءلوءية " الجزء الاول صفحة ٢٧٥ " كان الخليفة ملكا كريما جوادا حليما بذالا للاموال خاصة في الحروب واعطي من السياسة وتدبير الملك ما لم يعط غيره من الملوك ولما توفي قال الامام مظهر بن يحيى حين اتاه : مات السبع الاكبر . مات معاوية الزمان . مات من كانت اقلامه تكسر سيوفا ورماحنا " . ثم يعدد الاثار الحسنة التي خلفها من بعده وهي المدارس والمساجد والاستراحات التي بنيت في عهده .

ويتابع في صفحة ٢٧٧ من الكتاب المذكور وصفه فيقول : " كان اقرب الى العدل والرأفة يجالس العلماء والصالحين . وكان رحمه الله مشتغلا بالعلم اخذ من كل فن نصيب . " وكانت له عناية بالاطلاع على كتب الطب والفنون ومعرفة بالحديث فصنف (المعتمد في الادوية المفردة ط) و (المخترع في فنون الصنع – خ)

يعتبر كتاب المعتمد من احسن الكتب واجمعها لمفرداته استخرجه الموءلف من اهم الكتب الطبية ١ – من كتاب الحكيم الفاضل عبد الله بن البيطار المغربي المعروف بالعشاب " الجامع لقوى الادوية

وقد جاء في كتاب صالح الحامد العلوي . تاريخ حضرموت ص ٥٤٧ تحت عنوان الملك المظفر الرسولي .

" هذا هو الملك الثاني من ملوك الرسوليين هو المظفر يوسف بن الملك المنصور عمر بن علي بن رسول الغساني الحنفي صاحب اليمن وله نيفا واربعين سنة واقطعه ابوه المهجم وتوفي ابوه وهو في المهجم عام ٦٤٧ هـ فوصل الى الشيخ ابي الغيث بن جميل فقال له الشيخ ما تطلب قال : الملك قال وليتك فقدم الى زبيد فتسلمها ثم الى تعز فتسلمها ثم تسلم الجبال ودان له اليمن جميعه وكان له مشاركة في العلوم يحب مجالسة العلماء ويعتقد بالصالحين سمع من المحب الطبري توفي الملك المظفر سنة ٦٩٤ هـ) وكتب الزركلي في اعلامه الجزء الثامن الصفحة ٢٤٣ الطبعة الاخيرة

" يوسف (المظفر) بن عمر المنصور نور الدين ابن علي بن رسول التركماني اليمني ثاني ملوك الدولة الرسولية في اليمن وقاعدتها صنعاء ولد بمكة وولي بعد مقتل ابيه (سنة ٦٤٧ هـ) بصنعاء واحسن صيانة الملك وسياسته وقاتل في ايامه فتن وحروب فخرج منها ظافرا . وكانوا يشبهونه بمعاوية في حزمه وتدبيره . وطالت مدته واستمر الى ان توفي بقلعة تعز . قال ابن الفرات . كان جوادا عفيفا عن اموال الرعايا حسن السيرة فيهم " وهو اول من كسا الكعبة من داخلها وخارجها سنة (٦٥٩ هـ) بعد انقطاع ورودها من بغداد سنة (٦٥٥ هـ) بسبب دخول المغول بغداد وبقيت كسوته الداخلية الى سنة ٧٦١ ولا يزال على احد الالواح الرخامية في داخل الكعبة الى اليوم النص التالي " امر بتجديد رخام هذا البيت المعظم العبد الفقير الى رحمة ربه وانعمه ، يوسف

والاغذية) .

٢ – كتاب ابن جزلة المعروف بالمنهاج .

٣ – من كتاب الحكيم ابي الفضل حسن بن ابراهيم التفليسي.

٤ – من ابدال الزهراوى .

٥ – من ابدال احمد بن خالد المعروف بابن الجزار

كما جاء في مقدمة مؤلفه الملك المظفر ص ( ) وحسبنا ان اعتمد على كتابين هامين حصهما كثير من المؤلفين في مادة الطب بأعظم الثناء لغزارة مادتهما . وحسن ترتيبهما . وفائدتهما الاكيدة . وهما :

١ – الجامع لمفردات الادوية والاغذية" لعبد الله ابن احمد الاندلسي المالقي العشاب المعروف بابن البيطار كتب عنه الدكتور محمد زهير البابا في تاريخ وتشريع آداب الصيدلة ص٩٦ " هو ضياء الدين ابو محمد عبد الله بن احمد بيطار المالقي ولد بمدينة مالقا في جنوب الاندلس . درس كتب ديسقوريد وجالينوس والرازى والزهراوى وابن وافد والغافقي وابن سمجون واقتبس عنهما رحل الى المغرب وسورية واليونان ثم عاد الى مصر واستقر فيها حيث عينه الملك الكامل بن الملك العادل رئيسا للعشابين واصحاب البسطات في الديار المصرية . له مؤلفات قيمه اشهرها (الكتاب الجامع في الادوية المفردة ، الذى يعتبر اهم مؤلف في العقاقير ظهر في اللغة العربية حتى زمنه وصف فيه ما ينوف عن /١٤٠٠/ عقار منها ٣٠٠ عقار لم يرد ذكرها في المؤلفات الاخرى . له أيضا كتاب المغني في الادوية وشرح كتاب ديوسقوريد وغيرهما من المصنفات).

وجاء في كتاب اثر العرب في الحضارة الاوربية لجلال مظهر ص٢٧٣ . ان ابن البيطار (١١٩٠ – ١٢٤٨) قد ولد في اسبانيا واشتهر بسوريا ومصر وطبقت شهرته على جميع الصيادلة في القرون الوسطى كان اعظم صيدلي منذ عصر ديسقوريدوس حوالي ٤١ م .) حتى العصر الحديث تقريبا . صنف مؤلفه الهام " كتاب الاقرباذين" في اثناء اقامته في مصر على الارجح . اى مجموعته في الادوية المفردة مقسم اربعة اقسام ويشتمل على وصف جميع النباتات والاحجار والمعادن والحيوانات التي لها خواص طبية ، كما ان مؤلفات ديسقوريد وجالينوس' واوريباسيوس كثيرا ما كانت موضع تصحيحاته ، كما نجد عنده ايضا كثيرا من الحقائق والتفاصيل التي لا نجدها عند هؤلاء . وقارن ابن البيطار مجموعته عن النباتات والعقاقير بأكثر من ١٥٠ مؤلفا من مؤلفات الاقدمين و العرب . ويدل هذا المؤلف على سعة العلم وقوة الملاحظة وهو اعظم كتاب عربي في علم النبات . ويشتمل كتاب الجامع لمفردات الادوية والاغذية على ١٤٠٠ دواء منها ٤٠٠ كانت جديدة تماما . وقد ترجم هذا الكتاب القيم الى اللاتينية فنجد طبعات مختلفة في عام ١٥٩٨ في البندقية وعام ١٦٠٢ م في باريس وعام ١٧٥٨ في كريمونا . والترجمة الكاملة ظهرت في المانيا عام ١٨٤٢ م.

والكتاب الثاني الذى اعتمد عليه الملك المظفر كتاب منهاج البيان فيما يستعمله الانسان لابي علي يحيى بن جزلة الطبيب البغدادى المتوفى سنة ٤٩٣ هـ. وقد جاء في كتاب للدكتور محمد زهير البابا انه قرأ الطب على نصارى الكرخ وكان نصرانيا فاسلم اشترك في الدراسة مع ابي الحسن سعيد العشاب ومن اشهر مؤلفاته (منهاج البيان فيما يستعمله الانسان) ضمنه ذكر جميع الادوية والاشربة والاغذية مرتبة حسب حروف

المعجم وذكر الى جانب كل منها درجته من الحرارة والرطوبة واليبوسة . كما ذكر منافعه ومقدار ما يتناول منه وكيفية استعماله وغشه ومضاره واصلاحه وابداله وان كان له عدة تسميات اخذ اكثرها شيوعا ووضعها تحت الحرف اللائق مع شرحه واشار الى بقية الاسماء في مكانها .

وقد ذكر ابن جزله في كتابه اسماء من اقتبس منهم من اطباء كابقراط وديوسقو ريدس وردفوس وجالينوس واوريباسوس وبولس وحنين وابنه اسحاق والرازي والمجوسي وغيرهم .

وقد صنف الادوية حسب تأثيرها الدوائي وجعلها على شكل فصول يضم كل منها زمرة من الادوية المتشابهة بالتأثير كالادوية المفتحه والملينه والمفتته للحصى والمدرة للبول .

اعتمد المؤلف في كتابة المعتمد في الادويه المفردة على مجموعة من الكتب اشرت اليها سابقا واخصها كتاب ابن البيطار فقد اخذ اكثر ما فيه واحسنه وانفعه للممارس العام ثم اضاف الفوائد الجيده والبنود المحققه النفع من منهاج البيان ومن ابدال الزهراوي وابن الجزار والتفليسي . واضاف الى بعض المواضيع من تجربته الخاصه . اذ كان يعزو كل الاقوال والتجارب الى اصحابها . وقد رمز لكل اسم اخذ عنه رمزا فابن البيطار ع وابن جزله ج والحرف ف لابي الفضل حسن بن ابراهيم التفليسي والحرف ز للزهراوي اما ابن الجزار فكان يثبته باسم ابن الجزار ، وهذا يدل على الامانة العلمية والاخلاق العالية التي يتمتع بها المؤلف وعلى احترامه لحقوق الغير في التاليف . اخلاق نادرة الوجود في عصرنا هذا .

وكل كلام لا نجد اشارة الى كاتبه هو اضافة من المظفر من خبرته العملية في الطب .

مثلا في الصفحة ٦٠ من المعتمد في الادوية المفردة يكتب المؤلف تحت اسم ثوم : منه بستاني ومنه بري وهو اقوى . يسخن ويجفف في الدرجة الثالثة ، وعلل النفخ ، وينفع في القولنج الريحي وقال محرك للريح في البطن . والسحوية في الصدر والثقل في الرأس والعين وهو ردئ في البلدان والابدان والازمان الحارة .. الخ .

ثم يثبت وصف الثوم لابن جزله فقد وضع الحرف الدال على المصدر "ج" الثوم : منه بستاني ، ومنه بري ، ومنه كراثي . والبري فيه حرارة وقبض ، ويسمى ايضا ثوم الحية ، والكراثي مركب القوى من الثوم والكراث .. الخ .

اي انه كتب خلاصة تجربته عن الثوم ثم اضاف من تجارب الاخرين كابن جزله .

كما كتب تحت اسم ثمام : هو معروف بمصر والحجاز يستعمل في علاج العين لازالة البياض . وهو من المرعى وهيئة ورقه على هيئة ورق الزرع وينبت مندوحا ، وأصوله لحمية متشعبة ويخرج على شكل سنابل الدخن البري . طعمه حلو .

وهناك مواضيع كثيرة جدا اضاف اليها المؤلف او كتبها هو دون الاعتماد على مصادره السابقه .

لم يشتمل المعتمد من المواد الطبية الا على خلاصتها فقط فقد جمع المظفر كل ما ثبت منفعته وتجنب ذكر المواد الطبية المحدودة الاستعمال او غير الموفرة أو المعروفة واضاف البنود من خبرته العملية اذن فقد كان أسلوبه أسلوبا مدرسيا نعتمد

الممارس العام كما يفيد طالب الطب .

من مزايا المعتمد ايضا جمعه بين فروع المادة الطبيه : النبات والحيوان والجماد . فمن النباتات كتب عن الخضار والفواكه والاعشاب والازهار والاشجار ولم يترك منه تقيد لم يذكرها اما الحيوان مثل لحم الابل ولحم الغزال لحم الحصى الى موس . الغنم والماعز .. الخ .

اما الجماد فقد كتب عن اللوءلوء – الاثمد – الغراء – طالقون – (جنس من النحاس – صدأ الحديد ..الخ .) على حين ان كثيرا من المؤلفين قبله كانوا يخصون بالتأليف كل نوع منها وكل من جمعها في كتاب واحد كابن جزله في منهاج البيان وابن البيطار في الجامع لمفردات الادوية .

اتبع الاسلوب العلمي فى وصف المادة الطبية فهو يصف الشكل الخارجي وأين ينبت واسمه فى الاصقاع الاخرى والقسم المستعمل منه خاصة في المداواة ولماذا يفيد وطريقة الاستعمال والمقدار الدوائي وهل هو حار ام يابس . اى انه لا يترك شاردة او واردة تتعلق بالمادة الطبيه وتفيد القارئ لا يذكرها مثلا تحت اسم اطريلال كتب "وهذا النبت يعرف في الديار المصريه برجل الغراب وبعضهم يعرفونه بجزر الشيطان وبذره هو المستعمل منه خاصة في المداواه ، ينفع في البهق واوضح نفعا منا شربا وهو حار يابس في آخر الثانية والشربة منه من درهم الى مثقالين " وتحت اسم .

اثمد كتب

" هو حجر الكحل الاسود وهو صلب ملمع ، وبراق كحلي اللون واجوده الذى يتفتت سريعا ، ويكون لفتاته بريق ولمع وكان ذا صفائح وما داخله املس . ولم يكن فيه شئ من الاوساخ . وقوة الاثمد معرية قابضه مبردة تذهب باللحمه الزائد في القروح وتدملها ، وتنقى أوساخها واوساخ القروح العارضه في العين ، ويقطع الرعاف العارض في الحجب ، فاذا خلط ببعض الشحوم الطرية ، ولطخ على حرق النار . لم تعرض له الخشريكة . والاكتحال به ينفع العين وينفع في كثير من الاكحال ، ويقوى اعصاب العين وينفعها ويدفع الافات من الاوجاع عنها ، وينفع من الحرارة والرطوبه العارضه للعين كحلا ويقطع سيلان دم الطمث اذا احتمل وهو بارد يابس في الدرجة الرابعة (ف) بارد يابس في الثانية الشربه منه : نصف درهم (ز) بدله وزنه توتياء ، ووزنه لوءلوء غير مثقوب " .

اما ترتيب المادة العلمية في كتاب المعتمد فقد جاء حسب الترتيب الابجدى أ – ب – ت – ث – ج – ح – خ – .. الخ . بحسب الحرف الاول من الكلمة فقط كما جاء في كتاب الجامع لابن البيطار والبيان لابن جزلة مثل المعاجم اللغوية الحديثة وهذا الترتيب اسهل على الباحث من ترتيب حروف ابجد هوز .. كما في كتاب القانون لابن سينا أو بحسب الامراض وحاجتها الى انواع العلاج .

ويمتاز كتاب المعتمد ايضا بوجود ملحق ضمنه المؤلف او بعض المؤلفين من ابنائه – اسماء بعض المفردات الطبيه وتفسيرها بما اصطلح عليه اهل اليمن حتى يتمكن الباحث او الطالب اليمني معرفة المفردات التي تختلف تسميتها عما هي عليه في اليمن ويعتبر هذا الفهرس انجازا هاما للطب في اليمن ، وقد اتبع في ترتيبه ايضا الترتيب الابجدى واضاف الى جانب المواد الطبيه المتوفره في اليمن أماكن تواجدها وزراعتها وبذلك يتمكن طالب الطب والباحث معرفة اسم النبات والمادة الطبية واماكن تواجدها فضلا عن فوائدها العلمية الطبية .

تقرير

اللجنة الدائمة للآثار والمتاحف

سيئون

بسم الله الرحمن الرحيم

أولا : حول تنفيذ مشروعات برنامج الاثار والمتاحف لعامي ١٩٧٦/١٩٧٧ :

استعرضت اللجنة الوثيقة المقدمة من ادارة الثقافة حول هذا الموضوع ، وقد احاطت علما بما نفذ من هذه المشروعات وما صادف منها بعض العقبات ، والخطوات المتخذة أو المقترحة لتذليل هذه العقبات .

واللجنة اذ تعرب لقسم الاثار بإدارة الثقافة عن تقديرها للجهد المبذول في هذا الشان والذى أدى الى تنفيذ الجانب الاكبر من هذه المشروعات بكفاءة عالية محققة أطيب النتائج .

فان اللجنة وقد أجرت مناقشات مسهبة مستفيضة حول المشروعات التي لم تنفذ كاملة حتى الان ، لاسباب متعددة اذ ترى أنّ قسم الاثار بالمنظمة ل(م تقصر جهوده عن بذل كل ممكن لتذليل العقبات التي صادفتها ، توصي ـ فيما يتعلق بهذه المشروعات ـ بما يلي :

(١) المشروع الخاص بتقديم معونات فنية :

أن تتعاقد المنظمة بصفة عاجلة على الادوات والاجهزة المطلوبة لمدينة القيروان

وتوريدها الى المعهد القومي للاثار والفنون في تونس ، وذلك بعد أن سلم السيد ممثل الجمهورية التونسية في اللجنة الى السيد ممثل المنظمة قائمة تحدد انواع هذه الادوات والاجهزة ٠

(٢) المشروع الخاص باصدار نشرة للتعريف بموقع تمنع الاثرى في جمهورية اليمن الديمقراطية :

أ ـ مع تقديرظاللجنة للظروف التي أرجأت اصدار هذه النشرة حتى الان ، فانها ترجو من المركز اليمني للابحاث الثقافية والاثار والمتاحف أن يبذل جهده للفراغ من اعداد هذه النشرة واصدارها ٠

ب ـ أن تسعى المنظمة لدى الدول العربية الاعضاء لتقديم مساهمتها الفنية والمادية ـ عن طريق المنظمة ـ في ايفاد بعثة تنقيبية عربية مشتركة تتولى ـ وفق خطة زمنية طويلة الاجل ـ التنقيب في هذا الموقع الاثرى الهام اظهارا لحقائق التاريخ العربي القديم ، مع ضمان استمرارية الحفر في هذا الموقع حتى نهايته ٠

(٣) المشروع الخاص باصدار سجل الاثاريين والمتحفيين العرب :

أ ـ توجه اللجنة انتباه الجهات ذات العلاقة باصدار هذا السجل الى أهميته الكبرى على النحو المبين في الوثيقة المقدمة من قسم الاثار بادارة الثقافة وتدعوها الى المسارعة بموافاة المنظمة ببطاقات المعلومات الخاصة به مستوفاة وأن تتخذ من التدابير ما يضمن وصولهاظالى جميع الاثاريين والمتحفيين العاملين فيها وقيامهم بملئها ٠ وذلك باعتبار أن هذه البطاقة هي وسيلة المنظمة لاعداد هذا السجل ٠

ب ـ تكرر اللجنة شكرها لحكومة الجمهورية التونسية الكريمة التي حددت ـ على لسان الاستاذ ابراهيم شبوح ـ استعدادها لطباعة هذا السجل ـ بعد اعداده ـ على نفقتها ٠

ج ـ يتم الاتفاق بين الجهات المختصة في الحكومة التونسية والمنظمة على الطريقة المثلى لاعداد المادة العلمية للسجل وكيفية تنسيقها طباعيا ٠

د ـ أن تعيد المنظمة طباعة البطاقة بهذا السجل على أن يوضع في ديباجتها ما يفيد أنها وضعت للاثاريين المؤهلين وللاثاريين الذين اكتسبوا خبرة معترف بها في بلادهم عن طريق الممارسة للعمل الاثارى ٠

ثانيا : حول الخطوات التنفيذية لمشروعات برنامج الاثار والمتاحف لعامي ١٩٧٨، و١٩٧٩:

استعرضت اللجنة الوثيقة المقدمة اليها في هذا الخصوص بعد مناقشة مستفيضة لكل الجوانب المتعلقة بتنفيذ هذه المشروعات . وتوصي اللجنة بما يلي :

١) المؤتمر التاسع للاثار في البلاد العربية :

الموعد : يعدل موعد هذا المؤتمر - بناء على طلب الاستاذ اسماعيل الاكوع ممثل الجمهورية العربية اليمنية - بحيث يعقد خلال سبتمبر ١٩٧٩ بدلا من ربيع ١٩٧٩ ليأتي في موعد الجديد مظهرا من مظاهر الاحتفاء بمرور الاحتفاء بمرور اربعة عشر قرنا على الهجرة الشريفة .

الموضوع الرئيسي :

ان يبقى الموضوع الرئيسي في جدول اعمال هذا المؤتمر بصيغته التي عرضت على المؤتمر الثامن للاثار في مراكش وهي :

الاثار الاسلامية في البلاد العربية "

عناصر الموضوع الرئيسي :

ان تعدل عناصر الموضوع ومحاوره الرئيسية لتصبح كما يلي :

١ - اوضاع الاثار الاسلامية في الوطن العربي .
٢ - تقييم البحوث العربية في الاثار الاسلامية .
٣ - تقييم البحوث الاستشراقية في الاثار الاسلامية .
٤ - اثر فنون الجزيرة العربية قبل الاسلام في الفن الاسلامي .
٥ - المسالك والدروب الاسلامية وأهميتها .
٦ - دور الفنون الاسلامية واثرها على الفنون الحديثة .
٧ - المسكوكات في الحضارة الاسلامية .
٨ - الخط العربي في الحضارة الاسلامية .
٩ - صيانة المدن الاسلامية .
١٠ - الاثار الاسلامية في فلسطين المحتلة .

الندوة المصاحبة للمؤتمر :

ان يكون موضوع الندوة العلمية التي تصاحب عقد المؤتمر :

" الفنون الاسلامية في اليمن "

اعداد البحوث :

أ) تفويض المنظمة اختيار الباحثين الذين يكلفون على نفقتها اعداد البحوث حول

عناصر الموضوع الرئيسي .

ب) يطلب من الجهات الاثرية المختصة في الدول الاعضاء اعداد تقرير عن اوضاع الاثار في كل منها بحيث يغطي العنصر (١) من عناصر الموضوع الرئيسي (وتوافى المنظمة في وقت مبكر يتيح لها وضع دراسة مقارنة عن اوضاع الاثار الاسلامية في الوطن العربي مستقاة من هذه التقارير ، اذا رأت ضرورة لذلك .

توجيه الدعوة :

يراعي ارسال الدعوات في موعد اقصاه شهر اكتوبر ١٩٧٨م حتى تدرج الدول في ميزانيتها المبالغ اللازمة لايفاد ممثليها تحقيقا لاكبر قدر ممكن من النجاح لهذا المؤتمر .

المعرض الذى يصحب المؤتمر :

أ) يكون هذا المعرض ـ اساسا ـ معرضا لصور الاثار الاسلامية في حدود (٣٠) لوحة من كل دولة (مقياس ٤٠ × ٦٠) .

ب) يترك للدول حرية عرض نماذج مصغرة لبعض الاثار الاسلامية فيها .

ج) يخصص مكان لكل دولة طوال ايام المؤتمر .

واذا لم يتسع المكان لعروض كل الدول الاعضاء مرة واحدة ، يتم العرض على مرتين مرة كل منها موازية لنصف ايام المؤتمر .

جائزة الفيلم التسجيلي :

أ) تبلغ المنظمة الجهات المختصة في البلاد العربية في وقت مبكر بالامر .

ب) تشكل لجنة تحكيم من رؤساء الوفود الى المؤتمر التاسع للاثار .

ج) ان يدور موضوع الفيلم ومادته حول الاثار الاسلامية .

د) الا يكون قد مرّ على انتاج الفيلم اكثر من ثلاث سنوات .

٢) تنظيم دورة تدريبية على الوسائل العلمية الحديثة المستخدمة في التنقيب عن الاثار :

أ) الاتصال بالدول التي يتم فيها التدريب لمعرفة طبيعة الموقع والبعثة التي يلحق بها المتدرب والموعد المناسب لوصوله .

ب) يتم التدريب عن طريق الالتحاق بالبعثات الوطنية او الاجنبية دون تنظيم دورة خاصة .

ج) يتم ايفاد المتدربين الى الدول فرادى او في حدود العدد الذى تقرره الدول المستضيفة .

د) يترك لكل دولة اختيار المتدرب وفقا لما تراه جهات الاختصاص من مصلحة على ان يكون المتدرب حديث العمل في مجال الاثار .

هـ) بحث امكانية تحمل المنظمة لقيمة بطاقة سفر كل متدرب .

٣) الدورة الرابعة للجنة الدائمة للاثار والمتاحف :

أ) تعقد هذه الدورة في مدينة بنغازى بالجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية استجابة للدعوة الكريمة التي وجهتها الحكومة الليبية على لسان الدكتور صلاح الدين حسن السورى ممثلها في هذه اللجنة .

ب) يكون موعد عقدها اوائل اكتوبر ١٩٧٨.

ج) تقدم اللجنة شكرها للحكومة الليبية لتفضلها باستضافة اللجنة فوق اراضيها .

٤) ايفاد خبراء الى بعض البلاد العربية :

أ) تؤكد اللجنة ان الهدف الاسمى من ايفاد هؤلاء الخبراء عن طريق المنظمة هو ابراز مفهوم التضامن واتاحة الفرصة امام الدول لتبادل الخبرات العلمية في مجال الاثار .

ومن المستبعد بالضرورة ان ينطوى هذا الايفاد على معنى عدم استطاعة الدول التي يوفد اليها الخبراء استقدامهم على نفقتها .

ب) بناء على الاسباب الموجبة الموضحة في الفقرة السابقة ترجو اللجنة ان يكون ايفاد الخبراء الى نفس الدول التي ذكرت في توصيتها الصادرة بشأن هذا المشروع في مدينة البتراء (اكتوبر ١٩٧٦) والى الدول التي طلبت فيما بعد عن طريق اتصالها كتابة بالمنظمة بعض هؤلاء الخبراء .

٥) مدونة النقوش اليمنية :

(وردت التوصية الخاصة بها في موضع سابق من هذه التوصيات) .

٦) تبادل الخبرة بين الباحثين العرب في مجال الاثار والتاريخ :

أ) تعطى الحاجة الى معاينة مواقع اثرية يحددها الباحث اولوية عند التنفيذ .

ب) يتم الاتصال بالدول على النحو المبين في المشروع في وقت مبكر بحيث ترد ردودها وتعرض على اللجنة في دورتها القادمة (بنغازى ـ اكتوبر ١٩٧٨) .

٧) دعم مؤسسة ماكس فان برشم بسويسرا :

أ) بعد ان استمعت اللجنة للشرح الذى ادلى به الاستاذ ابراهيم سبوح فانها تقدر للاستاذ ابراهيم شبوح حرصه على امجاز مهمته العلمية التي ادت ظروف اجرائية الى ارجائها حتى الان كما تقدر اللجنة لسيادته ما وعد به من السفر الى جنيف خلال ايام قليلة مبتدئا هذه المهمة دون انتظار لوصول التعويض المالي الذى حولته المنظمة فعلا اليه منذ اكثر من شهرين ولم يصله حتى الان .

ب) ترسل المنظمة تقرير الاستاذ ابراهيم شبوح الى جميع الدول الاعضاء مشفوعا باقتراحات محددة في ضوء ما سيتضمنه التقرير .

) الندوة الدولية عن الاثار الفلسطينية :
التحقق من كفاية المخصصات المالية قبل انعقاد المؤتمر العام للمنظمة بما يكفل تنفيذ
خطة التي قررتها اللجنة التحضيرية لهذا المشروع في مراكش والعمل على تدارك ماقد
يكون هناك من قلة هذه المخصصات .

٩) اصدار كتاب الاثار الفلسطينية :
(وردت التوصية الخاصة به في موضع سابق من هذه التوصيات) .

١٠) رعاية الاثار الاسلامية في صقلية :
أ) وقع اختيار اللجنة على الاستاذ ابراهيم شبوح لاعداد التقرير العلمي المشار اليه
في هذا المشروع .
ب) يقوم الاستاذ شبوح بمهمته حوالي منتصف ١٩٧٨م .

ثالثا : العمل على استعادة الاثار العربية التي تسربت الى الدول الاجنبية :
ناقشت اللجنة هذا الموضوع من مختلف الجوانب وأبدت في كل منها رأيها .
واللجنة اذ تقدر الاهمية الكبرى لهذا الموضوع واذ تعرب عن حرصها الكامل على تحقيق
الغاية المستهدفة منه كامله .
فان اللجنة تفوض الى الاستاذ حسن عبد الرحيم اعداد مذكرة تتضمن الاراء التي كانت
محل اتفاق بين الاعضاء .
وتقدم هذه المذكرة الى الاجتماع الثاني لمؤتمر الوزراء المسئولين عن الشئون الثقافية
في الوطن العربي ، ويكون لهذه المذكرة صفة السرية كما تكون محدودة التوزيع جدا
ولا تناقش في جلسة عامة .

توصيات عامة

* ان اللجنة الدائمة للاثار والمتاحف باعتبارها اعلى تجمع علمي وتنفيذى في مجال الاثار والمتاحف على مستوى الوطن العربي ـ وقد لاحظت تغييرا في البرامج التي خططت لها والغاء لبعض البنود والمشروعات ـ ترجو ان تعرض بنتائج اعمالها الدورية كاملة على المجلس التنفيذى .**

* توصي اللجنة المنظمة بان تتخذ من الاجراءات ما يحقق وجودا عربيا فعالا ومخططا في اجتماعاته الا يكوم والا يكوموس .**

* توصي اللجنة المنظمة بان تبذل مساعيها لدى حكومات الدول العربية غير الاعضاء في هاتين المنظمتين المذكورتين للمبادرة الى الانضمام اليهما .**